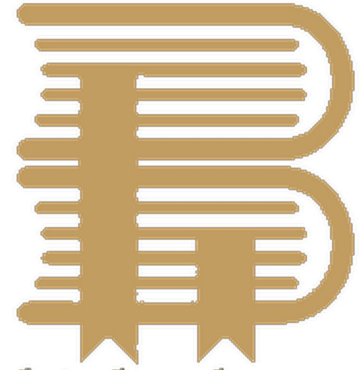


الدكتور توفيق الطويل
كلية الآداب - جامعة القاهرة

قصة
النزاع بين الدين والفلسفة

قصة المنزاع بين الدين والفلسفة

شبكة كتب الشيعة



shiabooks.net

رابطه يدیل < mktba.net

تأليف

الدكتور نوفس الطويل

مدرس الفلسفة بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول

الناشر: مكتبة الآداب بالجاميز ت ٤٢٧٧٧

بمصر

« فأما الزبير فيذهب بهفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرصه... »
« قرآن كريم »

- ليس خطابي في هذا الكتاب لجميع الناس ،
- بل خطابي لرجل منهم يوازي ألوف الرجال ،
- بل عشرات ألوف الرجال ، إذ كان الحق
- ليس هو بأن يدركه الكثير من الناس ،
- لسكن هو بأن يدركه الفاضل الفهم منهم ،

ابن الهيثم — آخر ما وجدته مكتوباً
بخطه في مذكراته الشخصية

- لا يكتب إنسان كتاباً في يومه ، إلا قال
- في غده : لو غُيِّرَ هذا لكان أحسن ،
- ولو زيد هذا لكان يستحسن ، ولو قُدم
- هذا لكان أفضل ، ولو ترك هذا
- لكان أجمل ، وهذا من أعظم العبر ، وهو
- دليل على استيلاء النقص على جملة البشر ،

القاضي عبد الرحيم البيهقي في اعتذاره للعماد
الكتاب الأصفهاني ، من كلام استدركه عليه

مقدمة الكتاب

إمكان الجمع بين الفلاسف والتدين — لا يستقيم النضج العقلي بغير حرية فكرية — العداة مع اللاهوت وليس مع الدين — متى قام النزاع بين العقل والإيمان طوال التاريخ — اضطهاد الفاسفة في الإسلام — موقف الدين من اضطهاد العقل — كلة في علاجنا لموضوع الكتاب — خلاصة هذا الكتاب وعلاقته بكتابنا من الاضطهاد — كامة أخيرة .

امطار المجمع بين الفلاسف والتدين :

جمد التفكير الفلسفي بعد اليونان أجيالا طويلا ، خضع فيها لسلطان دين فتسى قد استبد هواه بقلوب الناس واستأثر بعقولهم ، ولما أقبل عصر النهضة كان العقل قد بدأ يستيقظ ، وكادت حركة التحرير أن تقوِّض سلطان الدين ، وتعصف بتقاليده وتحتاج نفوذ رجاله ، فلما أشرق العصر الحديث في مطلع القرن السابع عشر ، نزع العقل الجديد إلى إنشاء فلسفة عقلية مبتكرة ، ومن هنا ظن الذين تخدعهم الظواهر ، وتستخفهم النظرة العاجلة ، أن العالم الأوربي قد أخفق في إبداع فلسفة جديدة ، حتى تيسر له التحرر من سيطرة الدين ونفوذ تقاليد .. ! ولهذا الحكم دلالة على نهوض الاستقراء التاريخي ، شاهداً على قيام التعارض بين الدين والفلسفة ، وتعذر الإنتاج العقلي الناضج ، مع الإيمان بالوحي الديني ومقتضياته ! أي أن الفلاسف يقتضى الإلحاد ، والإيمان بمنع الابتكار ! كما قلنا في مستهل حديثنا عن فلسفة القرن السابع عشر .

وفي ضوء هذه النظرة ، أصبح من المساغ أن يرد الباحثون « الأصالة » ، originalité في الفلسفة اليونانية ، إلى استقلالها المطلق عن كل دين ! كما قرر سانتهيلير ، وأن يرجعوا « عبقرية » اليونان إلى ما تهيأ لهم من حرية واسعة النطاق في مجال الدين والسياسة معاً ، كما قال لفتنجستون — وقد عرضنا رأيهما بشيء من التفصيل ، في الفصل الذي عقدناه على « العقل والإيمان ، في فلسفة اليونان والرومان » .

وإذا جاز أن يصدق الرأي الذي أيده أمثال هؤلاء الباحثين في أصالة التراث اليوناني ، فإن صدقه لا ينفى خطأ الوهم القائل بأن التفلسف يقتضى الإلحاد ، وأن الإيمان يمنع الابتكار والإبداع !

وسنرى في دحض هذا الوهم ، أن حركة التحرر من الدين ، كانت عنيفة واضحة في عصر النهضة ، ومع هذا التحرر الذي أوغل فيه المفكرون إلى أقصى أماده ، لم يستطع مفكرو ذلك العصر ، أن يسدعوا فلسفة جديدة مبتكرة ، وظل التفكير الفلسفي عندهم ، نزاعاً إلى إنشاء العلم الطبيعي ، ميالا إلى ابتعاث المذاهب الفلسفية القديمة . . ! أما الفلسفة المبتكرة حقاً ، فلم تولد إلا في مطلع العصر الحديث — في القرن السابع عشر . . . الذي اشتد فيه الإيمان بشريعة العقل ، مع الإبقاء على قدسية الدين وحرمة تعاليمه . . ! وكانت فرنسا في قرنها السابع عشر ، أصدق مثال للتعبير عن هذه الظاهرة ، فقد كانت روح النهضة على تنافر ملحوظ مع روح العصر الوسيط ، لأن حركة البعث قد أعلنت صوت العقل ، الذي كان قد خبا في العصر الوسيط ^(١) ، وسار في ركاب الوحي ، فجذت الفلسفة الفرنسية في القرن السابع عشر ، في إزالة هذا التنافر ، وحاولت أن تقيم التوازن بين مقتضيات الطبيعة وأوضاع الإيمان الديني ، وجمعت بين التسليم الملحوظ بسلطان العقل ، والإيمان العميق بوحي المسيحية ، فيما يقول پاروي على ما سنعرف بعد . وكان هذا هو معقد الطرافة في فلسفة هذا القرن ، كثرت فيه محاولات التوفيق بين الفلسفة والدين ، وبدأت عندما البرانش في فرنسا ، وسبينوزا في هولنده ، وچون لوك في إنجلترا . . ! ولم يكن تلاقى العقل الفلسفي والإيمان الديني في هذا القرن عقيماً مجدباً ، بل تكشّف عن إبداع فلسفي خليق بكل إعجاب . . وإذا كنا نثبت بهذا فساد القضية التي تقول إن التفلسف يقتضى الإلحاد ، ولا يستقيم مع الإيمان ، فلسنا نعتقد بصحة العكس ، أي أن الإلحاد يمنع التفلسف ! وإنما نريد أن نقول إن

(١) هذا حكم عام ، يقصد مؤرخو الفلسفة بتعميمه ، الحكم على الجو العقلي في هذه العصور مقبلاً به في غيرها ، مع علمهم بتنوع الحركات العقلية في أواخره ، وازدهار التفكير الفلسفي في القرن الثالث عشر بوجه خاص .

في الإمكان أن نجمع بين الإذعان لمنطق العقل ، والإيمان العميق بوحى الدين ، بل يستطيع الإنسان أن يكون فيلسوفاً مبدعاً مع وفائه لعقيدته الدينية وإيمانه بوحىها . . . ! وقد يتحقق له ذلك مع إلحاده - على غير ما يرى ديكرت . . . 1 . هذا في مجال الفلسفة العقلية المحضنة ، ناهيك بالفلسفة الدينية العميقة ، التي مثلها أمثال القديس توما من المؤمنين المدرسين في أوربا ، وعلماء الكلام في الإسلام . . . 1 . فإن في هؤلاء يكتمل الجمع بين التفلسف الصادق والتدين العميق .

لا يستقيم النهج العقلي بغير حرية فكرية :

على أن تسجيل هذه الظاهرة ، يقتضى الإشارة إلى ظاهرة أخرى ، لها خطرها في هذا الباب ، ذلك أن استقرار تاريخ الفلسفة مع الدين يقول : إن التفكير الفلسفي قد نضج أيام اليونان ، لقد شادوا فلسفة ضخمة في وقت كانت فيه حرية النظر مكفولة لكل مفكر ، ثم ركزت ربح الفلسفة - المستقلة عن الدين - وجمدت تياراتها في العصور الوسطى ، حينما اجتاحت فيها نفوذ السلطات الدينية حرية التفكير ، وشل حركة العقل وأوقف نشاطه ، وهم العقل المستقل بأن يستيقظ في أواخر تلك العصور - حين طال سباته ، وكان هذا في وقت ظهرت فيه محاولات التحرر من رق السلطات الدينية ! وكلما تخلص من سيطرة هذه السلطات ، واتسعت آفاق حرته العقلية ، كان تفكيره أتم وأكمل وأكثر نضجاً ! ومعنى هذا أن السلطات الدينية حين تهيمن على عقول المفكرين ، وتفرض رقابتها الجائرة على تفكيرهم ، تشل حركة العقل ، أو تضعف من قدرته على الإنتاج على أقل تقدير ! واستقراء تاريخ العلم والدين يقول : إن رجال اللاهوت المتعسف عند المسيحيين ، وغلاة المتعصبين من المسلمين ، أولئك الذين أبوا إلا أن يحجروا على تفكير الناس ، ويقيموا أنفسهم أوصياء على عقولهم ، قد أساءوا إلى الدين وتعاليمه السمحاء ، بمقدار ما أساءوا إلى الفلسفة والعلم معاً !

هذا كلام مجمل لا يحسن الإسهاب الآن في تفصيله ، فالكتاب كله قد وضع لشرحه وتفسيره ، في ضوء المعروف من تاريخ الفلسفة - منذ أقدم عصورها إلى يومنا الراهن !

العراق مع اللاهوت وليس مع الدين :

وبذكر الظاهرتين اللتين أسلفنا ذكرهما ، نقول إن « جون وليام درابر ، J. W. Draper قد أخطأ حين وضع كتابه عن « تاريخ النزاع بين الدين والعلم » وتحدث فيه عن اللاهوت ، وكأنه الدين المسيحي المنزل ! ورد ذلك النزاع إلى الخلاف بين طبيعة الدين وطبيعة العلم ، من حيث إن الدين بطبيعته يمتاز بالثبات والاستقرار ، والعلم بطبيعته يمتاز بالتجدد المستمر والتغير المتصل ، أخطأ « درابر » ومن جرى مجراه لأن الخلاف الذي يذكرونه من حيث ثبات الدين وتجدد العلم ، لا يفضى إلى النزاع الدامى ، ولا يستتبع الاضطهاد الآثم ، ولا يستلزم التشكيل الجائر ، الا متى امتلأ قلب المؤمن الديان تعصباً وجموداً ، وتهيات له سلطة دنيوية تمكنه من اجتياح خصومه والتشكيل بهم في غير رفق ولا هوادة .

ومن هنا كان « بيورى » J. B. Bury على حق ، حين ردّ في كتابه عن « تاريخ حرية الفكر » أكبر نصيب في تبعة هذا الاضطهاد الآثم إلى « السلطة الزمنية » التي تهيات لرجال الأكليروس ، ومكنتهم من اجتياح خصومهم ومحاولة القضاء على آرائهم... وصدق « أندرو ديكسون هوايت » A. D. White حين عرض في سفره الضخم بمجلديه عن « تاريخ النزاع بين اللاهوت ، والعلم ، إلى رد النزاع بين الإيمان والعقل ، إلى اللاهوت المتعسف Dogmatic Theology وليس إلى الدين السمع ، فبرئت بهذا ساحة الدين من آثام غلاة المتعصبين من رجاله .

بل من الإنصاف أن نرد فظائع المسيحية التي تضمنها هذا الكتاب ، إلى المتزمتين من جهال رجالها في الغرب ، أما مسيحيو الشرق - وهم الذين يقيمون بين أورشليم وما بين النهرين - فقد برئت ساحتهم من التعصب حتى أبوا تأييد مسيحي الغرب في حروبهم الصليبية التي آثاروها في وجه المسلمين ! على أن

مقاومة هؤلاء المتعسفين للفكر الحر ، قد عاقت نضج العقل وكفلت ركوده أجيالا طوالا - ومن الخير أن نرجى الآن الحديث عن علاقة الدين باضطهاد الفلسفة ، لأننا سنعود في الفصل التالى والفصل الرابع ، إلى مناقشة هذه العلاقة وبيان ما قيل بصددها تأييدا ودحضا .

متى قاص النزاع بين العقل والويمان طوال التاريخ :

والحديث عن الظاهرتين السالفتين ، يقتضى الحديث عن ظاهرة ثالثة ، هى أن استقراء تاريخ العقل مع الإيمان ، يقول إننا لانعرف نزاعاً قام بينهما وأفضى إلى استعباد العقل وجندلة أهله ، إلا إذا اجتمع أمران يدور اجتماعهما مع النزاع وجوداً وعدماً ، أولهما أن تهباً لرجال الدين سلطة تمكنهم من اضطهاد العقل وإيذاء رواده ، فان أعوزتهم السلطة ، قنعوا بالغيبة ، وانتقموا بالنيمة ! أو لاذوا بالعقل وجاروا خصومهم فى الاحتماء بشريعته - كما وقع فى انجلترا إبان القرن السابع عشر والثامن عشر - فلا يلبث منطقته ، حتى يشير الشقاق فى معسكرهم ، ويفت فى عضد دعوتهم !

وثانیهما : أن يوجد عقل يقوى على اقتحام « منطقة الحرام » وارتداد آفاقها ، والانهاء منها إلى اكتشاف مجهول أو إنكار مألوف ، وعندئذ يصبح بفضل جرمته ويقظته ، أهلاً لاضطهاد خصومه ! وبغير اجتماع هذين العاملين لا يقوم بين العقل والإيمان نزاع ، تلك سنة جرت فى تاريخ الفكر منذ أقدم العصور :

فند فجر الفلاسفة فى القرن السادس قبل الميلاد ، نهض العقل اليونانى فتياً جريئاً ، لم يسكن تحت وصاية دين منزل ، ولم يواجه نظاماً كهنوياً يمكن قساوسته من قمع الفكر الحر ، فكاد عهد اليونان أن يخلو من نزاع يقع بين العقل والإيمان .

فلما نزل الوحي بدين جديد ، يوضح تعاليمه كتاب مقدس ، لم تكن السلطة

فضلا عن اضمحلال العقل الروماني يومذاك - قد تهيأت لرجال الدين الجديد ، فلبث الجو في صفاء ؛ ومنذ القرن الرابع بدأت هذه السلطة تتهيا لرجال الأكليروس ، وسرعان ما أصبح في مقدورهم أن ينالوا من خصومهم شر منال ، ولكن العقل الأوربي كان واهنا قد طمست الشيخوخة عبقريته ، وأفقدته القدرة على اقتحام المصاعب ، فاستطاب الاستعباد قروناً وأجيالا ، حتى إذا انصرم عصر الآباء ، وشطر من العصر المدرسي ، دبت إليه اليقظة وانبعثت فيه فتوة الشباب ، وهمّ بإعلان تمرده على خصومه من رجال الكهنوت ، فحاسته السلطات الدينية عسى أن تلين قناته ، فلها جهر بالعناد ، تأهبت لتزاله وأجمعت أمرها على دحره ، اتقاء لما تنتظره من شره . . . !

ولكن الصراع لم يبد عنيفاً حامى الوطيس إلا في عصر النهضة ، حين اكتملت أسباب اليقظة والجرأة ، إذ عكس هذا العصر آية العصر الوسيط ، احتوته الثقة بالعقل ، واستغرقه حب الاستطلاع الحر ، واشتد كلفه بالعلم وحبه للجمال وسائر لذاذات الحياة ، وقوى نزوعه إلى تبرير الشهوات ، ونبت العقائد المتعسفة ، والخروج على التقاليد المألوفة والمبادئ المرعية ، فأطلق الشهوات من عقابها ، وتمرد على تقييد الحرية في مجال الأخلاق والآداب ، وفي ميادين العلم والفن والفلسفة جميعاً ، وأعلى صوت العقل على صوت الوحي وبهذا كله اتسعت هوة الخلاف بين صوفية العصر الوسيط وإباحة عصر النهضة ، فلم يكن من الميسور للسلطات الدينية أن تصطبر على أتباع هذه الحركات ، أو أن تهضم ما انتهى إليه أهلها من وجوه النظر ، فأشفقت على الدين أن تأتي عليه هذه النزعات الجائحة ، وعلى نفوذها أن تعصف به حملات أتباعها ، فنزعت إلى اضطهاد العقل ومناصبه أهله العداء ، فلها عاند وكابر ، وطنت عزمها على أن تصلية نارها ، وانقضت عليه بقوات حشدتها لجندلته وافتراس أتباعه ، وكانت محاكم التفتيش - التي نشأت قبل ذلك - عنوان هذه الوحشية الآثمة ، فطاردت أحرار الفكر في العالم الكاثوليكي طويلاً وعرضاً ،

وأشاعت الفرع في رءوسهم يمينا ويساراً ، وتولتهم بعذاب أهونه السجن
وأخره الإعدام صنوفاً وأواناً !

فلما أشرق العصر الحديث في القرن السابع عشر ، رد التنافر الذي كان
بين روح العصر الوسيط وروح النهضة ، إلى وحدة متسقة ، واتصلت فيه الحملات
الموجهة لتقويض السلطة ، ولكن أكثر الفلاسفة في العالم الكاثوليكي بوجه
خاص - قد جمعوا بين الإذعان للعقل والإيمان العميق بالوحي - على ما أشرنا
في مستهل هذا الفصل - وحاول الكثيرون منهم أن يترضوا رجال الدين ،
ويتجنبوا إثارة العنق في نفوسهم - عن وفاء لهم أو اتقاء لشرمهم ! ومع هذا
لبث الصراع قائماً ، لأن رجال الكهنوت ما زالوا أصحاب سلطة ، في وقت
اشتد فيه بأس العقل !

كان ديكارت يجهر في القرن السابع عشر باستبعاد كل سلطة غير سلطة
العقل ، الذي يجعل الحدس المعيار الوحيد لكل حقيقة ، ولكنه مع إيمانه
بالعقل قد غلب صوت الوحي على صوته ، وجعل العقيدة الدينية فوق متناوله ،
لأن البحث فيها لا يكون إلا بمدد خارق من السماء ! وشاع المذهب العقلي في
فرنسا طويلاً وعرضاً ، فاذا أقبل القرن الثامن عشر ، استبد هذا المذهب بهوى
المفكرين ، فأوغلوا فيه إيغالا انتهى بإخضاع الوحي الديني لمنطقه ! وسرعان ما
انتهى بهم هذا الغلو إلى الجهر بمعادة الدين المنزل ، والميل إلى تقويض
الوحي والسخرية من نفوذ رجال الأكلروس ! وكان قولتير وغيره من
رجال دائرة المعارف ، « وهولباخ ، وغيره من غلاة الماديين في طليعة هذه
الحركة ، وكان طبيعياً أن تضيق السلطات الدينية بهذا الجوح ، وتتصدى
لمقاومته ، ولكن نفوذها كان قد تضاعف حتى عز عليها أن تنكل بهؤلاء الخصوم
وتلوث تاريخها بدمائهم . . !

وقد كانت إنجلترا تدين بالمذهب البروتستانتي ، وقد واصل الفلاسفة فيها
حملاتهم على السلطة - مع استثناء هوبز الذي أراد أن ينقلها من رجال الدين

إلى رجال السياسة — كانوا طوال القرن السابع عشر والثامن عشر ، ينزعون إلى التسمي بالعقل وتمجيده على حساب السلطة الدينية ، ولكنهم كانوا في حملاتهم على اللاهوت ، يتظاهرون بالاعتقاد في صدق الأفكار التي يتحرون هدمها ، ويزعمون أن تأملاتهم العقلية لا تسيء إلى العقيدة الدينية ، كانوا ينظمون عقود المديح للدين ، في نفس الوقت الذي يضعون فيه آراء لا تجرى على وفاق مع تعاليمه ! وقد آمن أكثرهم بالدين الطبيعي الذي يميزه قيام إله اهتدى إليه العقل بفطرته ، من غير حاجة تدعو إلى الإيمان بالوحي المنزل والرسول والكتب المقدسة ! كانت هذه الدعوة الجارفة خليقة بأن تلقى من السلطات الدينية كل عنت ، ولكن نفوذها في ظل البروتستانتية كان ضئيلا ، فلجأت إلى الحيلة ، واعتصمت بشريعة العقل وراحت تحارب خصومها بسلاحهم ، ولم يجرؤ رجال الدين على أن يقولوا إن العقيدة الدينية فوق متناول البحث العقلي ! فلما اشتد بهم ضغط خصومهم ، لجأوا إلى التوفيق بين وجهات النظر عند المعسكرين — وإلى مثل هذا التوفيق في مثل هذه الظروف ، كان اتجاه رجال الدين في كل زمان ومكان ! — وأعلنوا أن مكتشفات العقل تؤيد الدين وتوطد دعائمه ! وبدأت حركة تأويل النصوص المقدسة ، حملت فيها الألفاظ ما لا تطبق ، لتنسجم معاني النقل مع حقائق العقل الجديد ؛ ولكن العقل حين انتقل إلى معسكر خصومه — من رجال الكهنوت — قد انقلب عليهم وفست في عضد دعوتهم ، إذ أثار الشقاق في معسكرهم ، وشتت جمعهم وجر الكثيرين منهم إلى مهاوى الهرطقة !

بين النزاع في إنجلترا التي اعتنقت البروتستانتية ، والنزاع في فرنسا التي دانت بالكاثوليكية ، تفاوت ملحوظ ، مرده إلى مدى السلطة التي تهيأت لكل منهما ، ومبلغ النزوع إلى الحرية عند كل فريق ، كان النزاع في إنجلترا — في أكثر حالاته — مقارعة حجة بحجة ، وكاد الاضطهاد الذي أنزله بأحرار

الفكر ذوو النفوذ منهم ، أن يقتصر على مصادرة كتاب أو الأمر بسجن مؤلف أو ناشر ، أو إلزامه بدفع غرامة ، أو إقصائه عن وظيفته . . . إلى آخر ما سنعرف بعد ، ومثل هذا الاضطهاد في جملته ، كان عند المتعصبين من رجال الدين الإسلامي ، أما في العالم الكاثوليكي حيث استحوذت الكنيسة على نفوذ زمني إلى جانب نفوذها الديني ، فقد ارتفع الاضطهاد إلى مرتبة الإعدام بمختلف صنوفه ، ونهضت محاكم التفتيش بمطاردة المفكرين وإثارة الفزع في نفوسهم أنى كانوا ، وكانت قصة هذه المآسي مروعة دامية !

وفي القرن الغابر نستطيع أن نقول على وجه الإجمال ، إن نفوذ السلطات الدينية قد تضائل كثيراً ، وأن الفلسفة من ناحية أخرى قد انتصرت للدين ، وازدادت عن تعاليم الكنيسة ، فعاشا إلى يومنا الراهن في صفاء قلما يبدو فيه غمام ، ولكن ظهرت موجة من النقد العقلي التاريخي للكتاب المقدس ، ونضج البحث البيولوجي وتقدم البحث البيولوجي ، فركب العلم رأسه في ذلك القرن وأعلن تمرداً على الكنيسة وتعاليمها فنافسته العدا ، وحشدت لمقاومة صلفه قواها ، ولكن تياره كان غلاباً ، فأصدر البابا جريجوري السادس عشر ، منشوره الذي دعا فيه إلى مقاومة الحرية في مجال النظر العقلي^(١) . . . وعقّب البابا بيوس التاسع بمنشوره عن خطايا العصر الحديث ، في نزوعه إلى تحكيم العقل ومنع الكنيسة من استئصال الآراء الهدامة . . . إلى آخر ما سنعرفه مفصلاً في الفصل الذي عقدناه على القرن الغابر . وأصدر مجلس الفاتيكان في عام ١٨٧٠ قراره بأن البسابة معصوم من الخطأ ! ولكن على غير جدوى ما كان من أمر هذه الجهود العابثة ، لأن القافلة أخذت تسير ، وقد وطنت عزمها على بلوغ غايتها ، وظلت مواكب الأحرار تمضي في طريقها قُدماً يتتابع بعضها وراء بعض ، وتختلف الرجعيون وفاتهم الركب ، فعسكروا حيث

(١) لحس هذا المنشور والذي يليه « بيوري Bury » كما سنعرف في الفصل الأخير من هذا الكتاب ، وقد قام بتلخيصه كذلك Leky من ٦٩ — ٧٠ من كتابه الذي سيرد ذكره كثيراً ، وقد ورد المنشور كاملاً في Lameunais, Affaires de Rome من ٢١٨ — ٢٥٧

كانوا ، وقد قل عديدهم واضمحجل نفوذهم وتضاءلت آمالهم ، وباتوا يسرحون الطرف في مواكب العقل الظافر ، فيرتد بصرهم خاسئاً وهو حسير !

* * *

هادنت الفلسفة الدين في القرن الغابر ، وانتقل ميدان النزاع إلى مجال العلم ، فاضطرنا هذا إلى أن نعقد حديثنا في القرن الغابر على النزاع بين اللاهوت و « العلم » ، وفي القرن الحاضر هادن العلم الدين إجمالاً ، رغم استمرار الخلاف بين منهج كل منهما ، وساد الصفاء جو العلاقات بينهما وبين الفلسفة ، فتلاشت بهذا مبررات الحديث عن نزاع في القرن الحاضر !

اضطهاد الفلسفة في الاسلام :

هذا ما كان من أمر العالم المسيحي ، أما عن العالم الإسلامي ، فقد نهض غلاة المتعصبين فيه بمعاداة العلوم الفلسفية باعتبارها خطراً يندر بتقويض العقيدة الدينية . . ! وآذنت الفلسفة في العالم الإسلامي بالمغيب ، بعد حملة الغزالي التي كفتّر فيها المشتغلين بها ! وتوارت شمسها في الغرب الإسلامي ، بعد محنة ابن رشد ؛ ومكن للقضاء عليها المتزمتون من أمثال ابن الصلاح ، وقد تراوح اضطهادها - بوجه الإجمال - في العالم الإسلامي ، بين إحراق كتبها وسجن أهلها ، وإصدار المنشورات والفتاوى بتحريم الاشتغال بعلومها ، ونحو هذا مما شابهه - من بعض الوجوه - اضطهاد البروتستانت للفلسفة في العالم المسيحي - على ما سنعرف بعد - وهو اضطهاد قد برئت ساحة الدين من آثامه ، وحمل تبعته التعصب والجهل وضيق النظر عند غلاة المتعصبين .

موقف الدين من اضطهاد العقل :

حسب الدين الإسلامي براءة من تبعة الاضطهاد ، قوله تعالى في سورة البقرة « لا إكراه في الدين ، قد تبين الرشد من الغي . . . » وفي سورة الكهف « وقل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر » ! وحسب المسيحية براءة من تبعات الدم الذي خضب رجال الكنيسة تاريخها به ،

قول المسيح في خطبته على الجبل « سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن ، وأما أنا فأقول لكم ، لا تقاوموا الشر ، بل من لطمك على خدك الأيمن ، فقول له الآخر أيضاً ، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً . . . سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك ، وأما أنا فأقول لكم : أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعينكم ، أحسنوا إلى مبغضيكم ، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات . . . » (١)

* * *

هذه إشارة خاطفة مجملة ، للتيارات التي استغرق تفسيرها هذا الكتاب ، فمن خطر له أن يعرض لنقدها ، فليترث وليتند ، فقد يجد ما يبررها في مادة الفصول التالية ، ومنهج دراستها ومنطق بحثها .

كلمة في عهدنا لموضوع الكتاب :

وبعد ، فقد حرصنا على ألا يكون كتابنا مجرد سجل لما نزل بالفلاسفة من وجوه الاضطهاد . سجناً ونفياً وتعذيباً وإعداماً ، بل توخينا أن نشرح المذاهب التي أثارت رجال الدين ، وتحريماً أن نبين عن وجوه الخلاف في وجهات النظر عند رواد الفكر الحديث ، وغلاة المتعصبين من رجال الكهنوت (٢) ، وبهذا احتلت أسباب النزاع العقلي المكان الأول في دراستنا ، وغلب الاهتمام بها عنايتنا بنتائج هذا النزاع ، وكثيراً ما كان هذا يضطرنا إلى

(١) انجيل متى - الإصحاح الخامس - وقد عالجنا بالتفصيل موقف الإسلام والمسيحية من الاضطهاد في كتابنا « قصة الاضطهاد الديني » .

(٢) أغنانا هذا عن تحديد معنى الدين والفلسفة ، وقد حار العلماء في هذا التحديد على وجه يتعقد عنده الاجماع ، أنظر مناقشة دوركايم للتعريف التي قبلت في معنى الدين في كتابه *Les Formes Élémentaires de la Vie Religieuse* . ثم مناقشة « لالاند » لتعريف الذي انتهى إليه دوركايم في معجمه الاصطلاحى النقدي للفلسفة ، ومناقشة أستاذنا الشيخ الأكبر مصطفى عبد الرازق لتعريف لالاند في كتابه « الدين والوحى والإسلام » والخلاف في معنى الفلسفة أشهر من أن يذكر ، فحسبنا مفهوم اللقظين ، مع العناية بشرح المذاهب التي أثارت رجال الدين وأغرثهم باضطهاد الفلاسفة .

الاستطراد في شرح المذهب طويلا ، ليضح مكان الخلاف ، وتتكشف مبررات الاضطهاد .

وعلى ذكر الاستطراد ، نقول إن ماتضمنه الكتاب من نزاع في غير الميادين الفلسفية ، له ما يبرره ، فمن ذلك حديثنا عن محاربة اللاهوت « للعلم ، في القرن الغابر ، وقد أسلفنا الإشارة إلى أسبابه ، وحرصنا على الحديث عن العلم الطبيعي في عصر النهضة وما بعده بقليل ، يبرره تصور هذا العصر للبحث الفلسفي الحديث ، ومدى إدراكه لموضوعاته ، فالعلم الطبيعي لم يكن قد انفصل عن الفلسفة بعد ، وكانت الأبحاث الفلسفية الحديثة — من ناحية أخرى — تتجه إلى ميادين العلم الطبيعي — كما تصوره الآن ، حتى لقد كان « جاليليو » يسمى عند مؤرخيه « شيخ الفلاسفة » ، وقد آثرت أن أنظر إلى موضوع بحثي ، بمنظار العصر الذي أقوم بتأريخه ، حتى يتيسر لي تصوره على أكمل وجه مستطاع .

وفي الحق إن موضوع الكتاب رحب الآفاق ، بحيث لا تفي هذه الصفحات باستيعاب الحديث عنه ، ومن الجرأة التي لا يسيغها منهج البحث العلمي ، أن ندعى بأننا أرخنا في هذا الكتاب النزاع بين الدين والفلسفة في كل زمان وكل مكان ! وحسبنا أن نقول إننا عرضنا في هذه الصفحات نماذج للتعبير عن روح النزاع في كل عصر من عصور التاريخ — منذ استقام أمر الفلسفة إلى جانب الدين (١) . وقد آثرنا — لسعة الموضوع على هذا النحو — أن نذيل كل

(١) من بواعث هذا التنويه بسعة الموضوع ، ما يلاحظه القارئ في المصادر التي عرضت له ، فالأستاذ « هوايت » يؤرخه في نحو تسعمائة صفحة من الحجم الكبير تحت عنوان « تاريخ النزاع بين اللاهوت والعلم في العالم المسيحي » A. Hist. of the Warfare of Science with Theology in Christendom 1930. والأستاذ روبرتسون يضع صفرا من مجلدين في نحو ألف صفحة ويسميه « الموجز في تاريخ الفكر الحر » J. M. Robertson, A. Short Hist. of Freethought, (1915) — وإن كان موضوعه أهم — ويضع سفرين آخرين في حجم قريب من ذلك ، عن « تاريخ الفكر الحر في القرن التاسع عشر » ومثل هذين المؤلفين كثير ! وسنعرف هذا في مصادر الفصول التالية .

فصل - بل كل فقرة في أكثر الحالات ، بالمصادر التي استقينها منها مادتنا ، بل زودنا القارىء بمصادر أخرى - لم تتمكن من قراءتها ، عسى أن تسد حاجته إلى المزيد من التفصيل .

مقدمة هذا الكتاب وعرفته بكتابنا عنه الاضطهاد :

طارد المتزمتون من رجال الدين أحرار الفلاسفة ، ونكلوا بهم في غير رفق ولا رحمة ، واستطاع الاضطهاد الدامى أن يسكت أصواتهم أمدأ من الزمان - قعر أو طال ! ولكن الأفكار التي استشهد هؤلاء الأحرار من أجلها قد بقيت حية بعد مصرعهم ، تكفل صدقها بخلودها ؛ فالفكرة الصحيحة التي تنكشف عنها النظر الفلسفى أو البحث العلمى ، لا تموت أبداً ، لأن صدقها لا يعرف زماناً أو مكاناً يقف عنده ، وصدقها يضمن بقاءها ، بل يكفل خلودها ؛ وسيان بعد هذا أن ينجح أو يفشل الاضطهاد الأثم فى إسكات أصوات الداعين لها ، أو استئصال المؤمنين بها ، لأن الفكرة باقية ، والاضطهاد لا يمكن أن يعيش أبداً ، والفكرة الصحيحة إذا عدت أنصارها فى أيامه السود ، وجدت هؤلاء الأنصار بعد انقضاء عهده المشؤم ، ومن هنا كان الفشل هو المصير المحتوم لكل اضطهاد يزاول فى مجال الفلسفة والعلم معاً ، وللإبانة عن هذه الفكرة وضعنا هذا الكتاب .

ولكن الاضطهاد الدامى يمكن أن ينجح فى غير هذا الميدان ، إنه يحقق غايته ، متى كان يهدف إلى تغيير مجرى الإيمان الدينى ، مع الإبقاء على مجاله ، أى متى كان يقصد إلى إحلال دين مكان دين . هذه فكرة لا تدخل فى نطاق كتابنا هذا ، ولكن دراستها ضرورية لاستيفاء البحث فى موضوعنا ، ولهذا وضعنا كتاباً آخر (١) للإبانة عنها والتدليل على صحتها :

* * *

(١) هو كتاب « قصة الاضطهاد الدينى » وتقوم بطبعه الآن لجنة الكتاب العربى .

كلمة انهمرة :

حسبنا هذا مقدمة لهذا الكتاب ، وإذا كان بعض الباحثين الذين عرضوا لدراسة هذا الموضوع ، قد قنعوا بتأريخ هذا النزاع ، ولزموا الحياد وتحاموا تأييد فريق دون فريق ، فقد تجاوزنا نحن هذه المرحلة ، وعالجنا أبواباً لم تُطرق من قبل ، وكان لنا موقف إزاء ما عرض من وجهات النظر عند المعسكرين وهو موقف خالفنا فيه غيرنا في أكثر من موضع ، ولم نرتفع به في مراتب القسوة إلى مثل ما ارتفع بعض الباحثين ، من الأمريكيين والأوربيين ، وإذا كنا قد قسونا على غلاة المتعصبين في المسيحية والإسلام معاً ، فقد عقبنا في غير موضع في هذا البحث ، بتأييد حق المعتدلين من رجال الدين في مناهضة التطرف والمغالاة ، ومقاومة « إذاعة » النزعات الجامحة « ونشر » الآراء الهدامة ، والعمل على حماية الدين وتقاليده من كل أذى يهددها ، لأنهم إن تهاونوا في أداء هذا الواجب ، تخلوا عن القيام بوظيفتهم ، ومكنوا خصومهم من أيذاء دينهم ، وتقويض نفوذهم .

هذا كتابنا - فُصِّلَتْ فيه آيات النزاع بين العقل والإيمان ، توكيداً لقيمة الفكر الحر ، وتبياناً لمضرة الاستبداد الجائر ، وتكريماً للاستشهاد في سبيل الحقيقة ، « فأما الزبد فيذهب جُفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ... » ؟

نوفيس الطويل

الإسكندرية في { صفر ١٣٦٦ هـ
يناير ١٩٤٧ م }

الفصل الأول

حرية النظر العقلي والقوى المناهضة لها

حرية النظر وآفاقها — طبيعة العقل البعري — طبيعة المعتقد الديني — موقف الإنجيل والسلطات الدينية من حرية النظر (رأى درابر وبيوري وهوايت — مناظرة الإمام وفرح انطون) — جهالة السلطات الدينية — رجعية الجامعات — محاكم التفتيش — رجعية القاعمين بالاصلاح الديني — أحرار الفكر من المصلحين — كلمة أخيرة .

حرية النظر وآفاقها :

يراد بحرية النظر ، تحرر العقل من كل سلطة تُفرض عليه من خارج ، وقدرته على مسaire منطقته إلى أقصى أماده ، وإذاعة آرائه — بالغاً ما بلغ وجه التباين بينها وبين أوضاع العرف وعقائد الدين ومقتضيات التقاليد — من غير أن تتصدى لمقاومتها أو التكيل بصاحبها سلطة ما . وضعت انجلترا قوانين لمحاربة التجديف — على ما سنعرف بعد — واستندت في وضعها إلى أن المسيحية جزء من قوانين البلاد ، وأن الاستخفاف بقدسية الدين وإنكار عقائده والتبشير بمبادئ لا تسير تعاليمه ، جرح لعواطف المؤمنين ، فرأى أحرار الفكر من أمثال ج . ف . ستفن ، أن الحرية تقتضى — متى استقام أمر العدالة — أن يتساوى المؤمن والملحد أمام عرف البلاد وقوانينها ، وأن من الظلم البين أن يحارب التجديف والتهجم على عقائد الدين ، بحجة أنه جرح لعواطف المؤمنين ، لأن مسaire هذا المنطق تفضى إلى المطالبة بوضع قوانين لمحاربة الوعظ والتبشير بالدين ، لأن فيه جرحاً لعواطف الملحدين !

فإذا ضاق المؤمنون بهذا المطلب ، سجلوا على أنفسهم ما لا يشرف دينهم ولا يبرر قوانينهم ، وهو أن رائدكم كان الاضطهاد وليست العدالة . . بل يشهد بهذا الاضطهاد مجرد إكراه الملحدين - أو محاولة إكراههم بالتضييق المستتر - على اعتناق دين لا يقرون بصحة قواعده . . !

ويرى غير العقليين من المؤمنين أن عقائد الدين لا تدخل في نطاق التجريب العلمى ولا تخضع لمنطق النظر العقلى ، ومن هنا لزم الاكتفاء بالوحي عند التسليم بصدقها ، وحسب المؤمن عجز خصومه عن إثبات بطلانها ، بل إن التدليل العقلى لا ينهض حجة على إنكارها ، ولكن أحرار الفكر لا يرضيهم هذا النزوع ، ويرون أن الدين - كغيره من الظواهر - يخضع لمنطق العقل ، وأن مهمة التدليل على صحة العقائد ملقاة على عاتق المؤمنين وحدهم - أشار رجل إلى جهنم ساخراً متهمكاً ، فقال محدثه وكان على إيمان بها : إنك لا تستطيع أن تقيم الدليل على بطلانها - بالغاً ما بلغ وجه التهافت في توهم وجودها ، فقال محدثه : إذانبتت بأن في كوكب سيار يدور حول الشعري اليمانية ، يقيم جنس من الحمير يتحدث اللغة الانجليزية ، وينفق وقته في البحث في تحسين سلالة الحمير ، فإنك لا تقوى على إثبات ما يتضمنه هذا الزعم من تهافت ، فهل يبرر هذا العجز اعتقادك في صحته . . ؟ ومع هذا فإن العقل مهياً للتسليم به عن طريق الإيحاء متى تكرر تكراراً كافياً ، لأن الإيحاء بتكراره القاطع المؤكد ، كبير الأثر في إقرار الآراء الجازمة ، وإذاعة المعتقدات الدينية - فيما يشير الأستاذ بيورى .

ومعنى هذا أن حرية النظر تبيح الخروج على كل مألوف ، والتهجم على قدسية الحرمات ، وتقر المضى في هذا السبيل إلى أقصى أماده ، أسوة بالمؤمنين الذين لا تعوقهم سلطة عن تأييد عقائدهم ، واستباحة الحرمات في مجال الاحقاد . . ! ولا يقنع بهذا هؤلاء المتطرفون من أحرار الفكر ، بل يلقون عبء التدليل العقلى عن عواتقهم ، ويحملون المؤمنين تبعته متى كان شاقاً

وعراً أو متعذراً . . . ! لأنهم هم الذين أقاموا القضية الدينية ، فعليهم وخدم عبء التدليل على صحتها .

وقد كان طبيعياً أن يندر مثل هذا الشطط ، بقيام نزاع بين أهله وحماة الدين وحراس التقاليد المرعية ، ويقول تاريخ التفكير الحر منذ أقدم العصور ، إن العقل الحر متى نزع إلى الانصراف عن قديم مألوف ، وتطلع إلى اكتشاف جديد مجهول ، أثار عند المحافظين ضيقاً قد يرتفع إلى مرتبة الاضطهاد الدامى ، وتصدت لمقاومته قوى متفاوتة شدة وليناً ، منها الطبيعى الذى لا حيلة للانسان فى أمره ، والصنعى الذى استحدث مع الظروف ، وسائر روح العصر الذى نشأ فيه ، ومرد المقاومة إلى ما حققه الباحثون بشأن طبيعة العقل البشرى ، وطبيعة المعتقد الدينى - بالإضافة إلى أن الشطط فى النزوع الحر ، والاستخفاف بعواطف الناس وميولهم الفطرية ، مثار للضيق والتبرم - فلنعرض فى إيجاز للحديث عن هذين العاملين :

طبيعة العمل البشرى :

إذا كان العقل بفطرته حراً ما اتسع للحرية تصوره ، ومدت فيها تجارب صاحبه ، فإنه نزاع بطبيعته إلى إذاعة ما ينتهى إليه من وجوه النظر ، فإن صدّ نزوعه عائق ، ضاق به ونزع إلى مقاومته ، وربما استشهد صاحبه فى سبيل ذلك ، وقد عبر العالم بمحيرات من دماء شهدائه ، حتى توصل آخر الأمر إلى إقرار حرية النشر بمختلف صورها ، وجعلها حقاً طبيعياً لكل فرد من أفرادِه .

والعقل وإن كان بحكم وظيفته الطبيعية نزاعاً إلى التفكير الحر ، ميالاً إلى إذاعة آرائه على الأغيار ، فهو بفطرته نزاع إلى الكسل حريص على أن يبدل من ذاته أقل جهد ممكن ، ثم هو عامر بمعتقدات تسلت اليه خفية أو جهاراً ، واستقر الكثير منها فى ذاته اللاواعية وتدعم كيائها ، وأضحت كل فكرة جديدة لا تتمشى معها ، إعلاناً بالحاجة إلى إعادة النظر فى هذه المعتقدات ،

وهذا إيذان بأن العقل مطالب ببذل جهد ونشاط لا يساير طبيعته في الحرص على الاستمتاع بأكبر حظ من الراحة ، وقد حمله هذا النزوع الطبيعي إلى الظن بأن سعادة الأمة مرهونة بمدى استقرارها والمحافظة على تقاليدها ونظمها — وإن احتواها الفساد ومست الحاجة إلى تعديلها . . ! وقد عاش هذا الوهم في عقول الناس طويلاً ، حتى اكتشف وجه الخطأ فيه حديثاً .

وهذه النزعة في طبيعة الإنسان ، يقويها جهله ويخفف وطأتها أو يلاشى آثارها انساع عقله واستنارة ذهنه ، وإذا نزلت الجهالة بالعقل وحالت دون قيامه بوظيفته الطبيعية في التفكير والتأمل النظري ، انطلق الإنسان يعمل يوحى من مكونات ذاته اللاواعية ، وعندئذ يزداد ميله إلى الاستكانة لما عرف فيختصم مع كل خارج على العرف الذي ألف ، وينساق في مقاومته وقد وضع بينه وبين منطق العقل حجاباً ، لأن العقل معطل بجهالته عن أداء وظيفته في التفكير ، فاذا دخل في اعتقاده أن الظواهر الطبيعية مرجعها إلى الله أو إلى القوى الخفية عنه ، هاله أن يرى غيره حريصاً على مناقشة أسبابها بالعقل ، وأفرعه أن ينتهي من بحثها مستنداً إلى منطقة أو معتمداً على تجاربه إلى غير ما عرف الناس ، وإذا كان كسوف الشمس أو خسوف القمر في عرف قوم شاهداً من الشواهد التي تستخدمها الآلهة للاتصال بهم ، وإلقاء نوع من المعرفة إليهم ، فإن التبشير بعلة هذه الظاهرة الطبيعية معناه اتهامهم بالجهل وقصور النظر ، وهو اتهام لا يرضاه لنفسه إنسان ، فضلاً عن أنه قلب لنظام يميز المجتمع الذي يعيش في ظله هؤلاء الناس ، وهذا فوق أنه إهانة موجهة إلى آلهتهم . . وهذا كله كفيل بأن يكون مثار ضيقهم ومبعث النزوع إلى تنكيلهم بهؤلاء الخصوم . ثم كيف يرضى رجال الدين — الذين يتولون بحكم وظائفهم تأويل هذه الشواهد الإلهية — بمثل هذا التفسير الجديد الذي يستند إلى منهج التجربة أو يقوم على شريعة العقل ، ولا يعاب بجرمة الحياة الدينية و قدسية رجالها ، فيتجهم على أسرارها ويهتك سترها على هذا النحو

المعيب غير المؤلف ؟ ويهدد رجال الدين — فوق هذا كله — بتقويض سلطانهم والحد من نفوذهم . . ؟

طبيعة المعتقد الدينى :

هذه هى طبيعة العقل البشرى من حيث الضنّ بنشاطه والحرص على راحته ، ويُقوّس الجهل من هذه النزعة الفطرية ، ويزيدها سوءاً طبيعة المعتقد الدينى ، وقد حقق الباحثون الذين عرضوا للنظر فى طبيعة المعتقدات وخواصها أن لها ناموسين : أولهما فيما يقول لوبون فى « الآراء والمعتقدات » أنها بحكم الضرورة عديمة التسامح ، بل لقد ذهب بعضهم إلى أن عدم التسامح يتمشى طردياً مع قوة المعتقد، عكسياً مع ضعفه ، وأن الإيمان متى احتل قلوب الناس قلّ اضطبارهم على من ليسوا على دينهم . بله الخارجون على تعاليمهم ، وهذه سنة عرفت منذ أقدم العصور . وقد صور هذا الناموس القديس توماس حين قال : إن الإلحاد إثم يستحق صاحبه الإعدام . . ! وثانى الناموسين يقرر— فيما يقول لوبون فى « روح الثورات » — بأنه متى عظمت شوكة طبقة فى الشعب ، نزعت إلى استعباد سائر الطبقات . وتطبيق هذين الناموسين على تاريخ النزاع الذى وقفنا عليه هذا الكتاب ، نرى أن اضطهاد رجال الكهنوت لرواد العلم والفلسفة الجديدة ، كان قضاء لا مفر منه ولا مناص من شره ، وذلك لأن البرهان العقلى يقوم على استنباط نتائج من مقدمات تلزم عنها هذه النتائج ، وهو يخالف طبيعة البرهان الدينى الذى يلزم فيه الإيجاز مع مراعاة حالة السامع وغير هذا مما لا تقتضيه طبيعة الدليل العقلى .

ومن هذا نرى أن النظر العقلى الحر ، تتضافر على اضطهاده — بالإضافة إلى ما يترتب على شطحات الحرية الفكرية : — طبيعة العقل البشرى من ناحية ، وطبيعة المعتقد الدينى من ناحية أخرى ، ولكن حديثنا عن العامل الأخير يعوزه التفصيل الذى يتكشف عن إقرار الكتب المقدسة فى وضعها الصحيح ، ومعرفة مدى التبعة التى تحملها فى النزاع بين العقل والإيمان .

موقف الانجليز والسلطات الريفية من هرية النظر

ذهب بعض الباحثين في هذا الموضوع إلى أن الكتاب المقدس مسئول عن محاربة دعائه للعقل الحر في أوروبا، ونفى عنه غيرهم هذا الاتهام، ونزهوا تعاليمه عن عرقلة نشاط العقل، وعزوا هذا للأغبياء والحمقى من رجاله، وأصحاب السلطة منهم بوجه خاص، فأما خصوم الكتاب المقدس فيمثلهم جون وليام درابر G.W. Drape الأستاذ بجامعة نيويورك وصاحب كتاب *History of the conflict between Religion & Science* الذي صدر عام ١٨٧٣ وأعيد طبعه عشرات المرات، وقد صور هذا النزاع قائماً بين طبيعة الدين وطبيعة العقل البشري، وقد ترجم كتابه إلى الفرنسية تحت عنوان *Les conflits de la Science et de la Religion* وأثار الكتاب ثائرة المؤمنين في كل مكان. ومن دعاة هذا الرأي الأستاذ بيوري J. B. Bury أستاذ التاريخ الحديث بجامعة كامبردج وصاحب كتاب *History of Freedom of Thought* على ما أشرنا في مقدمة الكتاب

ورغم ما عهد في أساتذة الجامعات - ولا سيما المؤرخين منهم - من ائزان ورعاية للتقاليد والتزام الاعتدال وتحاشي إثارة الرأي العام، فإن هذا الكتيب كان عند صدوره مثار الضيق في المعسكرات الدينية والدوائر المحافظة في إنجلترا. وحسبنا أن نعرف من آراء هذا المؤرخ في هذا الكتاب أنه يرى في فصل عقده عن العقل الأوربي الأسير في العصر الوسيط أن طبيعة الكتاب المقدس - فضلاً عن منطق تعاليمه تحمل نصيباً في تبعة مبادئ التعصب التي اعتنتها الكنيسة الكاثوليكية، ويصرح بأن المسيحيين الأول قد ضمتوا - لسوء الحظ - كتابهم المقدس تلك المقطوعات اليهودية التي تصور أفكار مرحلة منحة من المدنية حافلة بالبربرية، وليس من الهيتين - فيما يقول - أن نعرف إلى أي حد أضرت بأخلاق الناس تلك المبادئ ومثل القسوة والعنف والتعصب الديني ونحوه مما كان يدين به قارىء العهد القديم، فإن هذا قد أمدهم بزاد خصب لتأييد نظرية الاضطهاد، والواقع أن

الكتب المقدسة عقبة تعوق التقدم العقلي والأخلاقي ، لأنها تحوط بالقداسة أفكار عصر معين وعاداته ، على اعتبار أنها من وضع الآلهة ، والمسيحية ياذعانها لكتب عصر عريق في القدم ، قد وضعت في طريق التقدم الإنساني عقبة كأداء لها خطورتها ، وإن الإنسان ليعجب كيف كان ينتظر أن يتغير مجرى التاريخ - ومن المحقق أن التغير كان واقعاً لاحالة - لو أن المسيحيين قد استبعدوا أسفار موسى الخمسة من كتبهم وقنعوا بالعهد الجديد وحده ، ورفضوا وصايا العهد القديم .

حسبنا هذا إشارة إلى بيورى ودرابر فسيرد تفصيل آرائهما في الفصول متناثراً ، ولكن الحديث عن اتجاههما يذكرنا بمنظرة شائقة جرت بين الأستاذ الإمام والأستاذ فرح أنطون ، إذ يروى الأخير في الجزء الثامن من السنة الثالثة من الجامعة في عرض حديثه عن ابن رشد ، أن الإسلام قد جمع بين السلطتين : الزمنية والروحية ، بحكم الشرع الذى جمع الملك والخلافة فى يد الحاكم ، بعكس المسيحية التى فصلت بينهما فصلاً تاماً فى قولها : « أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » ، فهذه الفصل لا تنشر العلم والفلسفة ، فتصدى الإمام محمد عبده ، للرد عليه (١) ، وفصل فى بيان ما رآه أركاناً للدين المسيحى وأصولاً له مستقاة من الأناجيل المعروفة فى أيدي المسيحيين وكلام أئمتهم الأولين ، وما ترتب على هذه الأصول من نتائج تتصل بالعلم والفلسفة ، فقال إن الأصل الأول للنصرانية : خوارق العادات . وهذا يضاد القول « بأن للسكون شرائع ثابتة وأن للعلل والشرائط أو الأسباب أو الدوافع أحكاماً فى معلولاتها أو ما شرطت فيه أو ما تسبب عنها أو ما استحال وجوده لوجودها » ، وصاحب الاعتقاد فى الخوارق فى غنى عن العلم الذى يبحث فى الأسباب والمسببات .

(١) نشر الرد فى سلسلة مقالات فى مجلة المنار ، ورد المرحوم فرح أنطون على الرد فى الجامعة ، ثم نشر رد الإمام فى كتاب « الاسلام والنصرانية » ونهر « فرح أنطون رده فى كتاب « ابن رشد وفلسفته » ١٩٠٣ .

وثاني أصولها : سلطة الرؤساء على المرءوسين في عقائدهم وما تكنه ضمائرهم ، وهذا الأصل موضع نزاع بين المسيحيين اليوم ، ولكنه الدين الذي جروا عليه خمسة عشر قرنا ، وبذلك يصبح عقل المرءوس وتفكيره مرهونا برأى رئيسه الديني .

وثالث أصولها : التجرد من الدنيا والانقطاع للآخرى ، والدنيا محرمة عليه بحكم هذا التشريع .

ورابع أصولها : أن الإيمان منحة لا دخل للعقل فيها ، وأن من الدين ما هو فوق العقل ، أى مناقض لأحكامه ، والسنة التي وضعها القديس أنسلم : الاعتقاد أولاً ثم فهم هذا الاعتقاد بعد ذلك (١) .

وخامس أصولها : أن الكتب المقدسة تتضمن كل ما يحتاج إليه البشر في المعاش والمعاد معا ، وبهذا يصبح العلم متضمنا في تعاليمها ولا شئ سوى ذلك .

وسادس أصولها : المحافظة على هذه الأركان على اعتبار أن الإخلال بمحبة المسيح والانقياد إلى وصاياه موجب للهلاك .

وقد أدت هذه الأصول فيما يقول الأستاذ الإمام — إلى انزواء العلم في الأديرة وتحريم نشره بين العامة ، إلا ما كان داعياً للصلاح والتقوى ، وقدمه هذا كله للرقابة على المطبوعات وقيام محاكم التفتيش ومطاردة رواد الفكر الحديث . وقد عرض الأستاذ بعد هذا للفصل بين السلطتين في المسيحية ، فقال إن الآية : « أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » ، أصلها أن بعض المرانين سألوا المسيح — تجسسا — عن الجزية التي يطلبها قيصر ، فطلب المسيح ديناراً وقال لمن هذه الصورة والكتابة . . ؟ قالوا لقيصر ، فقال أعطوا ما لقيصر . . . أى ادفعوا لصاحب السكة ما يطلبه ، أما عقولكم وقلوبكم وكل ما اتسم بطابع الله فلا تقطعوا لقيصر منه شيئاً ، وبديهي أن العلم ليس عليه طابع

(١) من الأنصاف ان نقول ان هذا هو موقف علماء الكلام في الإسلام كذلك وليس في المسيحية وحدها

قيصر ... ا ويقول مع هذا إن افتراض الفصل بين السلطتين لا يحل المشكل ، لأن دين الملك يقضى بمعادة العقل ، وسيضطره إلى جعل مصالح مملكته قربانا لسلطان عقيدته ، بل إن الفصل بين الحاكم الدينى والرئيس الدينى ، كفيل بايجاد النزاع بينهما حتى يتغلب أحدهما على الآخر ... الخ

هذه نماذج من حملات الذين حملوا الكتاب المقدس تبعة الاضطهاد الدامى للعقل ورواده ، وقد تصدى لدحضها وبيان وجه الضعف فى حججها الكثيرون من الباحثين ورجال الدين على السواء ، وفى طليعه هو لاء الأستاذ أندرو ديكسون هويت A. D. White الذى وضع سفرا ضخما فى مجلدين يستغرقان نحو ألف صفحة Hist. of the warfare of Science with Theology in Christendom أى «تاريخ النزاع بين العلم واللاهوت فى العالم المسيحى» ، يصور فيه النزاع قائما بين رجال اللاهوت ورواد الفكر الجديد ، ويصرح فى مقدمة كتابه الضخم بأن «دراپر» قد أخطأ عند جعل النزاع قائما بين طبيعة الدين وطبيعة العقل ، وأكد القول بأن تعصب رجال الدين وتزمتهم هو الذى أفضى إلى مآسى الاضطهاد الذى عرفته أوروبا ، ونستطيع أن نقول إن «بيورى» وإن لم يعف النصوص المقدسة من تبعة هذا الاضطهاد الآثم ، إلا إنه يلج فى توكيد القول بأن رجال الكهنوت إن تهبأت لهم سلطة ما ، بسطوا نفوذهم خارج نطاقهم ، ونزعوا إلى إيذاء خصومهم والتنكيل بكل من لا يدعن لرأيهم وينقاد لتفكيرهم .

فأما عن حديث الأستاذ الإمام فقد تولى تفنيد أدلته فرح أنطون ، وبمقدار ما كان الأول لبقا حاذقا فى هجومه ، بقدر ما كان الثانى موقفا فى دفاعه منطقيا فى مناقشاته ؛ وحسبنا من رده المتزن عتبه على الأستاذ فى تحامله على طبيعة الديانة المسيحية بما ليس فيها تأييدا لحجته ، وقطعه بأن طبائع الأديان كلها منزهة عن الشر داعية إلى الخير ، ومرجع الشر فيها إلى من أساء فهمها من أهلها ، ثم إلحاحه الشديد فى توكيد المبدأ الذى قرر من قبل أنه سر الرقى فى أوروبا ، واليه مردّ النظر العقلى الحر ، وهو الفصل بين السلطتين الزمنية

والروحية ، وقد أسهب في بيان هذا قائلاً إن الدين مجرد علاقة بين المخلوق وخالقه ، فليس يعنى الانسان دين غيره ، أي أكان هذا الدين ، وعلى أساس الإخاء الذى بشرت به الأديان ، بحق للانسان من حيث هو إنسان أن يتولى حتى رياسة أمته بصرف النظر عن عقيدته ، وأن يعتقد ما شاء من الآراء ، ولكن السلطات الدينية لا تحتل هذا التسامح ، لأن الحقائق لا تكون حقائق إلا لأنها صدرت عن هذه السلطات أو اعتمدت منها ، وكل ما خالف هذا فهو كفر ، إن أذعن صاحبه لها بالترغيب أو الإكراه كان بها ، وإلا أو لته احتقارها وخصته باضطهادها ، ثم إن إعطاء الإنسان الحق فى اعتناق الدين الذى يشاء ، والرأى الذى يريد ، ينشأ عنه الحق فى عدم الاعتقاد بشيء ما ، ويترتب على هذا حقه فى جحد الأديان وإنكار حقائقها ، وأعدل عقاب ينزله رجال الدين بمثل هذا الكافر قتله ، وليس يمنعهم من ارتكاب هذه الجريمة إلا حاجتهم إلى السلطة ، ومن هنا وجب الفصل التام بين السلطتين : المدنية والدينية. لأن الحكومة غرضها حفظ الحريات فى حدود الدستور ، أما السلطات الدينية فوظيفتها حفظ تعاليم الدين ونشرها بين الناس ، وبين الغرضين هوة سحيفة القرار ، فاذا انتهى النظر العقلى أو الاختبار التجريبي إلى إقرار رأى لا يتمشى مع عقائد الدين وتعاليمه ، كان على الحكومة ألا تنهض لمقاومته إلا إذا تضمن العدوان على الحريات ، وذلك لأن الحقيقة المطلقة لم تكتب بعد فى قاموس الحكومات ، وأما السلطات الدينية فمن واجبها النهوض لمقاومته ، والاستبسال فى الجهاد فى سبيل الله ، فان تولت زمام الحكم ، جنحت إلى مقاومة الفكر الجديد لا محالة ، وميزت على دعائه معتنى دينها ، ومن هنا كان إطلاق العقل البشرى من كل قيد خدمة لمستقبل الإنسانية، يستلزم الفصل بين السلطتين وتجريد جبر الأحبار من كل سلطة زمنية ، وكف يده عن التدخل فى الشؤون الدينية ، لأن الأديان شرعت لتدبير الأخرى لا لتدبير الدنيا . فاذا لم يقع هذا الفصل ، نزع رجال الكهنوت إلى اضطهاد الذكاء النزاع

للاستقلال بنفسه . وخلق التنوع في التفكير . وصب العقول البشرية في قوالب واحدة ، ومجارة العوام والأميين باضطهاد المتفوقين عليهم في مجال النظر العقلي ومعنى هذا كله قتل الحياة العقلية لا محالة .

وهذا بالإضافة إلى تعرض الدين لأحوال السياسة ومفاسدها ، أما عن الآية « أعطوا ما لقيصر ... » ، فليس يعيننا تفسيرها لمعرفة أصلها ، بقدر ما يعيننا إقرار حقيقة واقعة ، هي أن الملوك في أوروبا قد استندوا إليها وإلى آية أخرى هي « ملكتي ليست من هذا العالم » ، في الفصل بين السلطتين ، وإن كان رؤساء الدين المسيحي إلى مطلع القرن العشرين ، يرون هذا الفصل بدعة إلى حد أن البابا يقرر في منشورات رسمية أن حرمانه من السلطة المدنية ، يحط من كرامة الدين .. ! ولكن الفصل قد تم على كره من هؤلاء ، ومن تفسيرهم للآية السالفة ، فإذا تم الفصل حسب التأويل السابق ، وجب - تلافياً لعجز الملك عن تجرده من دينه - أن يقيد الملك بالدستور الذي يكفل الحريات ، وعندئذ تمحى أهمية عقيدته الدينية .

وإذا تم الفصل سادت السلطة الزمنية ، وخسرت به السلطة الدينية نفوذها وسلطانها ، وغلبت على أمرها ، وتمكن العقل من أن يرقى حراً بعيداً عن كل قيد ما دامت مذاهبه لا تؤدي إلى الحجر على حرية أحد من الناس ، حتى لا تتدخل الحكومة لقمعه ، وبغير سيادة السلطة الزمنية لا يكون ثمة فصل بين السلطتين ، ولا خوف من استبداد الحاكم السياسي ، لأنه مقيد بالدستور ، بل إن العلم قد سلب رجال الدين نفوس الخاصة من الناس ، وسلبتهم أو ستسلمهم الاشتراكية نفوس العامة ، وبهذا يصبح الناس في غنى عن السلطة الدينية .. ! وبهذا ينطلق العقل حراً من كل قيد ، ويمتنع التنازع بين أهله ورجال الدين وما أصدق فيكتور هوغو حين قال : نحن مع الدين على رجاله .. !

ويعرض صاحب الجامعة بعد هذا الذي فصله في نيف وعشرين صفحة من القطع الكبير إلى مناقشة ما اعتبره الأستاذ الإمام أصولاً للديانة المسيحية وأركانها ،

يفنده في نيف وعشرين صفحة أخرى ، قائلاً ما خلاصته :

إنه يسلم بالقول بخوارق العادات والإيمان بغير المعقول (وهما الأصلان الأول والرابع في حديث الإمام) ، ويصرح بأن الدين إذا كان عقلياً تحول إلى علم ، لأن الإيمان بالخالق والآخرة والوحى والبعث والحشر وخلود النفس ونحوه ، أمور غير محسوسة ولا معقولة ، ولا دليل عليها إلا ما جاء في الكتب المقدسة ، ومن هنا اتفق الغزالي في تهافته (ص ٤٤-٦٥ و٦٤) مع خصمه ابن رشد في تهافت التهافت (ص ١٢٥-١٢٩ و١٢٦) على أن الإسلام - ككل دين في العالم - فوق العقل ، ومردّ المعجزات إلى الخروج على المبدأ العلي في تلازم الأسباب والمسببات ضرورة أو عدم تلازمها ضرورة ، والمعجزات مبادئ تثبت الشرائع - كما قال ابن رشد نفسه - والمنطق والعقل يؤديان إلى الهاوية كما قال رينان ، فأساس الأديان كلها اعتبار الفاعل في المواد خارجاً عنها - أي في الغائب لا في الشاهد - ومن هنا نرى أن الأديان كلها قائمة على الغيب ، ولولا الخوارق لانهدم الدين .

وأما عن أصل النصرانية الثاني وهو سلطة الرؤساء ، فإنه يعترف بإفراط الكنيسة في استعمال هذه السلطة ، وإن رآها ضرورية لمنع الفوضى ، ولكن قول الإمام إن عقل المرءوس مرهون برأى رئيسه ، يثير ابتسام المسيحيين ، ولا سيما بعد أن أصبح المرءوس رئيساً .. !

أما عن أصلها الثالث ، وهو ترك الدنيا ، فإن خطبة المسيح على الجبل (الإصحاح الخامس والسادس والسابع من إنجيل متى) قد قررت الفصل بين الدين والدنيا بما لا يدع مجالاً للشك ، وحضت المؤمنين على ترك الدنيا والتسامح مع مخالطهم « إن كل من يغضب على أحد ، يكون مستوجب الحكم ، فكن مراضياً لخصمك دائماً ... سمعت أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك ، وأما أنا فأقول لكم : أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعنيكم ، أحسنوا إلى مبغضيك ، وادعوا إلى الله أن يغفر للذين يسيتون اليكم ، وإن لم يقصد الشارع إلى هذا

بل أدت إليه طبيعة الزمان الذي عاش فيه ، إذ استحال إدراك السعادة عن طريق الطلب ، فنزلت المسيحية تحض على التماسها عن طريق الترك .

وأما عن الأصل الخامس ، وهو احتواء الكتب المقدسة لكل علم ، فقد اعتبره فرح أنطون مزاحا ومداعبة من الإمام ، وأغفل الرد عليه . ثم التمس العذر — بعد هذا كله — لرجال الكهنوت الذين أسرفوا في قسوتهم مع رواد الفكر الحديث في أوروبا ، لأن هؤلاء كانوا بحق أعداء للأديان ، ومن أجل هذا استباح الأكليروس المسيحي كل سلاح لمحاربة هؤلاء الملحدين ، والمسيحية مع هذا بريئة من جرائم رجالها ، ولو ظلت السلطة المدنية مقرونة بالسلطة الدينية في أوروبا ، لتوقف تقدم العقل الأوربي لاحالة .

حسبنا هذا من رد صاحب الجامعة ، وهو على ما أعجبنا من اتزانه وسعة علمه وتسلسل منطقته ، فيه فجوات ملحوظة ، لأن رده على خوارق العادات والإيمان بغير المعقول يُسوَّى بين المسيحية وغيرها من الأديان ، ولسكنه لا يبنى الاتهام الموجه إلى المسيحية بعرقلتها النظر العقلي الحر ، وورده على سلطة الرؤساء لا يبنى القول بأنها عاقت النظر العقلي في أوروبا قرونا طوالا ، قبل أن يتحول الحال ويصبح المرءوس رئيسا ، وورده على ترك الدنيا ضعيف ، لأن الذي يركز كل جهوده لآخرته ، خليق بأن يبغض من يخالفه في سلوكه ، فإن تهيأت له السلطة أذله ، وربما قتله . . . وقوله إن رجال الدين كانوا يقاومون العلم الطبيعي المعادى للدين وتعاليمه ، تعميم حيث ينبغي التخصيص ، إذ أن الكثيرين ممن نالهم أذى الأكليروس ، لم يكونوا أعداء ألداء لعقائد الدين المسيحي ، على ما سنعرف في الفصول التالية . . . ومثل هذا كثير في رده .

ومع هذه الملاحظات على رده على الإمام ، نقول إن قيمة النصوص المقدسة ليست في ذاتها ، بمقدار ما هي في طريقة تأويلها ، وأصحاب التأويل هم المسؤولون عن فهم الدين المسيحي وما ينشأ عن هذا الفهم من تصرفات ،

وقد فسر الإمام - ورؤساء الدين المسيحي قبله وبعده - الآية « أعطوا ما لقيصر . . . » بما يفيد الجمع بين السلطتين، وأولها صاحب الجامعة - وغيره من مفكرى المسيحية - بما يفيد الفصل بينهما ، ولكل من الفريقين وجهة نظر ، ومثل هذا الخلاف البين يمكن قيامه فى أكثر الآيات ، ومن هنا كانت تبعة السلوك المسيحى إزاء النظر العقلى الحر ، مردها إلى مؤولى النصوص المقدسة ، لا إلى هذه النصوص نفسها ، ولما كان التأويل حتى مطلع العصر الحديث ، فى يد رجال الكهنوت ، لا ينازعهم فيه منازع ، كانوا هم المسئولون عن جرائم النزاع بين الدين والفكر الحديث ، ولا سيما وأن الكتب المقدسة قد دخلت من كل إشارة تعرقل طلاقة الفكر .

على أنه من الإنصاف مع هذا كله أن نقول إن فظائع المسيحيين التى تضمنها هذا الكتاب ، لا يحمل تبعتها إلا رجالها - أو بعض رجالها فى الغرب - دون مسيحي الشرق على ما عرفناه من قبل .

ومع هذا كان من الممكن ألا يقع هذا النزاع الآثم الدامى ، لو جُرد رجال الدين من سلطتهم ، هذه حقيقة سجلها تاريخ الأديان فى شتى البقاع ومختلف العصور ، على نحو ما عرفنا فى فاتحة هذا الكتاب بجملا ، وما سنعرفه فى فصوله مفصلا .

مهمات السلطات الربانية :

ولو كان جميع رجال الكنيسة مستنيرين ، أو كانت تعاليمهم مسارية للتفكير الناضج ، لكان خطب تعصبهم الذميم بعض الهون ، ولكنهم كانوا يمثلون دوراً من أدوار البربرية القديمة المظلمة ، قد تخلف مع الزمن ووجد فيهم خير حماة ، وبذلك أوقفوا تقدم المعرفة وأوصدوا أبواب العلم ، وحاولوا الحيلولة دون تقدمه حتى النصف الأخير من القرن الغابر ، وقد هيمنت الكنيسة على كل ميادين البحث العلمى ، وفرضت عليها ما تراه حقاً ، مستندة فى ذلك إلى

سلطة الكتاب المقدس المعصوم من كل خطأ ، وسرعان ما اتصل الدين بالظواهر الطبيعية ونحوها مما يدخل في نطاق العلم والفلسفة ، فاتصل وصف التوراة لخلق الكون ووقوع الإنسان في الخطيئة بفكرة الفداء في المسيحية ، وأفضى هذا إلى استبعاد علم طبقات الأرض وعلم الحيوان ، وعلم الاثروبولوجي من ميادين البحث الحر ، وأصبحت الحقيقة هي التي تقوم في ظاهر نصوص الانجيل ، وتأويلها الحرفي كفيل بهداية الناس إلى وجه الحق فيما يبحثون ، وقد أدى هذا إلى القول بدوران الشمس حول الأرض ورفض الاعتقاد بأن الجانب المواجه لموطننا من الأرض معمور بالخلائق ، وإذا كانت العصور القديمة لم تخل من أمثال أبقراط الذي أقام دراسة الطب على التجربة والمنهج العلمي ، فإن العصر الوسيط قد ارتد إلى الأفكار البدائية في العصور البربرية ، إذ كانت الأمراض الجسدية تعزى إلى عوامل خفية ، أظهرها حقد الشيطان أو غضب الله ، وقد أكد هذا أكبر آباء الكنيسة « أوغستين » ، إذ قال إن أمراض المسيحيين مردها إلى الشياطين ، وسار في هذا الاتجاه نفسه المنشقون عن الكنيسة ، فقال لوثر إن الأمراض مرجعها إلى إبليس ، وما دامت أسباب الأمراض فوق طبيعته ، فعلاجها من جنسها أي فوق الطبيعي وبينما كانت الكنيسة ترجح من الأحجة والتعاويد ، كان الأطباء معرضين في أكثر الأحوال للاتهام بالسحر والكفر معاً ، إذ كان تشريح الأجسام محرماً ، ولعل مرد هذا إلى الاعتقاد في بعث الأجسام يوم الحساب ، وقد كان اعتراض الدوائر الكليركية على التطعيم في القرن الثاني عشر ، بعثاً لرأى العصر المظلم في المرض ، وكانت الكيمياء تعتبر فناً شيطانياً خبيثاً ، وقد أدان البابا المشتغلين بها عام ١٣١٧ م ، وقد سجن روجر بيكون ١٢٩٢ مدة طويلة رغم حماسه للدين لمجرد نزوعه الطبيعي للبحث العلمي ، وهذا شاهد هدل على كراهية العصر الوسيط للعلم ؛ وحقيقة إن العلم اليوناني قد وقف تقدمه قبل أن تقوى المسيحية بخمسة قرون من الزمان ، ولم تظهر إلى الوجود

مكتشفات علمية هامة بعد القرن الثاني ، ولكن تفسير هذا الاضمحلال يلتمس في الأحوال الاجتماعية للعالم اليوناني والروماني ، أما في العصر الوسيط فإن الظروف الاجتماعية ربما كانت أكثر ملائمة للروح العلمي والاهتمام ببحث الحقائق لذاتها ، وربما كان من الممكن أن يولد العلم من جديد مع هذه الظروف الاجتماعية ، ولكن موقف الكنيسة من العلم وسلطانها في تحديد الحقائق قد عاق تقدم الروح العلمي ، أو لعل الأصح أن نقول إن الضرر الذي أحدثته نظريات الكنيسة لا يعزى إلى ظلام العصر الوسيط بقدر ما يعزى إلى العقبات التي أقامتها الكنيسة في وجه العلم .

وقد ورثت العصور الوسطى عن القديمة الاعتقاد في السحر والجن وقوة من أمره ، واعتقد الناس أن الشياطين تحوطهم وترقبهم وترقب كل فرصة للإضرار بهم ، وأن الأوبئة والزوابع والقحط وكسوف الشمس وخسوف القمر ونحوها من ظواهر طبيعية أو نكبات اجتماعية ، مردها إلى الجن ! وليس يقوى على إيقاف هذه الظواهر إلا الطقوس الإكليريكية ، وقد عتي بأمر السحر بعض الأباطرة المسيحيين الأول ، فسوا الشرائع لمقاومته ، وإن كنا لا نجد أثراً لمحاولة جديدة ترمى إلى استئصال السحر قبل القرن الرابع عشر ، وقد وقع في هذا القرن وباء مخيف دمر أوروبا ، وسمي بالموت الأسود ، وقوت هذه الظاهرة من فزع الناس من عالم الشياطين الخفي . وقد لبثت أوروبا منشغلة بمقاومة السحر والتنكيل بأهله ثلاثة قرون من الزمان ، وأيد الكتاب المقدس اضطهاد السحر إذ ورد في إحدى وصاياها « لا ينبغي أن تترك ساحرة على قيد الحياة ، وقد أصدر البابا أنوسنت الثامن أمراً بابوياً عام ١٤٨٤ أكد فيه أن الطاعون والزوابع من عمل الساحرات ، وآمن بهذا حتى المستنيرون من الناس ، حتى اجتثت النزعة العقلية الحديثة جذور هذه العقيدة ووضعت حداً لفظائها .

ومن هنا نلاحظ أن الفترة التي بسطت فيها الكنيسة سلطانها على التفكير ،

كان العقل مقيداً أسيراً في سجن شادته الكنيسة للعقل البشري ، وأن الكنيسة قد استغلت سلطانها على قلوب الناس وعقولهم ، واحتكرت حرية التفكير والنظر العقلي ، وفرضت على العقول رقابتها الصارمة ، ولو كانت الكنيسة مستنيرة مع هذا الاحتكار لكان خطب خطرها على العلم ، وإن كان الاحتكار في كل الحالات يتنافى مع تقدم العلم ، لأنه يعرقل حرية النظر ، ويوصد أبواب الإبداع في التفكير ، وبغير هذا لا يستقيم تجدد العلم وتقدم المعرفة

جمعية الجامعات :

كان الأكليروس عل جهالة ، ولكنه بسط نفوذه على الجامعات وحوّلها إلى معادل للاستبداد وأوكر للرجعية ، على أن مردّ نشأتها إلى أيلارد الذي طالب باعتبار العقل محكاً للحقيقة ، وأقرّ الأسئلة طريقة لاكتشافها ، دون اكرات بما اعتمدهت الكنيسة أو بشر به أرسطو من قبل ، وقد درس في باريس وتولى التدريس بها فتهافت عليه الآلاف من الطلاب المعجبين بمنهجه ، فلما مات أيلارد عام ١١٤٢ أنشأ طلاب العلم في أواخر القرن الثاني عشر نقابة في باريس تحرس مصالحهم ، وسموها Universitas فنشأت بذلك جامعة باريس التي ضمت ثلاثمائة وألف طالب في ختام ذلك القرن ، وقامت بعدها الجامعات الاوربية القديمة ، فنشأت بولونيا وسالرنو واكسفورد وكامبردج إبان القرن الثاني عشر . وكان المنتظر وقد مهد لنشأتها رب الدعوة إلى تحرير العقل من قيود العقيدة الدينية والعلمية معاً ، أن تنتصر لحرية التفكير ، وتقي دعائها عدوان خصومها ، ولكن الكنيسة كانت إذ ذاك تحتكر العلم وتهيمن على شئونه ، فسارت الجامعات في ركابها ، وأخذت تتلقى الأوامر والتعليمات من رجالها ، وتلقى طلابها ما يبيحه هؤلاء ، وتحبس عنهم ما يحرمونه ، ومن هنا نشأت سياسة «التعليم السلبي» الذي جرت عليه الجامعات ، وأصبح أساتذة هذه الجامعات لا يعنون بالحقيقة من حيث هي وليدة نظر عقلي سليم أو اختبار تجريبي مؤكد ، بقدر ما يعنون بالاستجابة لطاعة الكنيسة واعتناق

ماتقره من آراء ، فاذا تجلى لأستاذالجامعة بطلان رأى شائع معتمد ، وأضحى على يقين من ذلك ، كان عليه أن يجارى العرف الذى يقضى بالتزام التعليم السلبى فى الجامعات ، وأن يجبس رأى فى حنايا نفسه ، ولا يبشر به أحداً من تلامذته أو سواهم ، كما فعل الكثيرون من أمثال رينولد Reinhold فى منتصف القرن السادس عشر ، أو كان على هذا الأستاذالذى يكشف خطأ رأى مألوف أن يغادر منصبه فى الجامعة ليتمكن من التبشير به خارجها ، كما فعل أمثال ريتكوس Reticus ، وإلا أكره على ترك منصبه راغماً ، كما حدث لجاليليو فى القرن التالى ، وقد كان هؤلاء الثلاثة على يقين من صحة رأى الذى بشر به كوبرنيكوس بصدد دوران الأرض وعدم اعتبارها مركز الكون ، وكان الأولان فى ويتنبرج — وهى مركز الدعاية البروتستانتية — والثالث فى جامعة ييزا بايطاليا ، وكانت خاضعة لنفوذ الكنيسة الكاثوليكية . ! وليس أدل على الروح السائد إذ ذاك من أن تفاخر الجامعة بأنها التزمت التعليم السلبى الذى لا يجيد عن حقائق الكتب المقدسة ، ولم تأذن بادخال الفكر الجديد فى برامجها — كما فعل رئيس جامعة Douay فى حديثه عن موقف جامعته من مذهب جاليليو فى دوران الأرض ، بل إن مؤرخى الفكر يقولون مع « ولف » ، إن نفوذ التعاليم الكلاسيكية على الجامعات ، قد صرفها عن دراسة العلم ، وأن تعصب المصلحين من أعداء الكنيسة قد خنق التفكير الحر ، وكان لا بد للروح العلمى الجديد من أن يلتمس طريقه خارج الجامعات ، وبعيداً عن المجددين من دعاة الإصلاح الدينى ، وقد نهضت بهذا العبء الجمعية الملكية ونحوها

على أن عصر النهضة حين أقبل ، نشأت معاهد تولت التبشير بالعلم وتحررت من نفوذ رجال الدين ، فنشأت أكاديميتا فلورنسا والبندقية فى القرن الخامس عشر ، وقامت فى باريس كلية فرنسا (كوليغ دى فرانس) على يد فرانسوا الأول للتبشير بالعلوم الإنسانية ، وظهرت بوادر منهج

البحث العلمى خلال هذه الحقبة من الزمن ، ونشأت جمعيات علمية تلتزم هذا الأسلوب من البحث ، وسنعرض لها فى الفصل الذى سنناول فيه عصر النهضة .

محاكم التفتيش :

كانت محاكم التفتيش أخطر سلاح تقلدته السلطات الكنسية لمحاربة العقل الحر وجندلة أهله ، ولهذا آثرنا أن نقف عندها قليلا :

انتشرت الزندقة فى جنوبى فرنسا الغربى — فى لنغويدوك — واستقام أمرها على يد الأليبيجين من رعايا أمير تولوز ، فطلب إليه البابا أنسنت أن يستأصل الهرطقة من إمارته ، ولكنه أبى الإذعان لمطلبه ، وعندئذ نهضت الكنيسة لإبادة الحركة ، فأعلنت غفران كل ذنب ارتكبه من يجاهد لاستئصالها واضطلعت بعبء حروب دامية ، وصبت عذابها على أعدائها — ولو كانوا أطفالا أو نساء — وتعقبتهم شنقا وحرقا وإعداماً ، حتى تلاشت مقاومتهم وإن بقيت آثار الهرطقة فى نفوسهم . وانتهى الصراع فى مستهل القرن الثالث عشر (١٢٢٩م) بإخضاع أمير تولوز إخضاعاً تاماً ، وكان أخطر ما أفضت إليه هذه الحركة ، أن الكنيسة أدخلت فى قانون أوروبا العام هذا المبدأ ، أن الحاكم يحتفظ بعرشه متى قام بواجبه فى استئصال الهرطقة ، فان تردد فى الاستجابة لأمر البابا باضطهاد الزنادقة ، أكره على الطاعة ، وصودرت أملاكه ، ويعدت لأعوان الكنيسة وعرض نفسه للاعتقال ، وبهذا أقر البابوات نظاماً بيوقراطياً تخضع فيه كل مصلحة لواجب العمل على صيانة الدين من كل أذى يصيبه .

ولم تكتف الكنيسة بذلك ، وإنما أخذت تتعقب الهرطقة فى مظانها السرية إذ ليس يكفى القضاء عليها بالعنف ، حين يستفحل أمرها ، ولا النص على اشتراك السلطة التنفيذية فى إبادتها متى ظهرت واستشرى داؤها ، وإذن فلنأخذ الكنيسة حذرهما ، فترصد عيونها يفتشون عن خصومها ، وتقيم المحاكم

لتروع الملاحدة بأحكامها الصارمة . . . ولهذا أنشأ البابا جريجورى التاسع محكمة التفتيش أو ديوان التحقيق Inquisition عام ١٢٢٣ م ، ومكن لهذا النظام أمر بابوى أصدره أنو سنت الرابع عام ١٢٥٢ م ، وضبط به نظام الاضطهاد كجزء رئيسى من السكيان الاجتماعى فى كل مدينة أو دولة ، وكانت هذه أداة لسكب التفكير الحر ، لم يعرف التاريخ لها نظيراً .

وقد اختير الرهبان وفوضت إليهم سلطة البابا فى اكتشاف الملحدين ، وكانت سلطتهم مطلقة غير محدودة ، لأنهم أعضاء فى ديوان التحقيق ، وكانوا لا يخضعون لرقابة ولا يسألون عما يفعلون . وتعاونت السلطة التنفيذية على إقرار هذا النظام ، فسوا القوانين الصارمة للتسكيل بالزنادقة ، وتساوى فى هذا أهل الغفلة مع أحرار الفكر من الحكام ، وحسبنا فى هذا الموقف الصارم الذى وقفه فى القرن الثالث عشر فردريك الثانى فى هذا الصدد ، فقد شرع القوانين التى تقضى بإهدار دم الملحدين وإحراق غير المرتدين إلى الدين ، وسجن من تاب وعاد إلى اعتناق دينه ، وإعدام من عاد فارتد ملحداً ، ومصادرة أملاك الملحدين ونسف بيوتهم . . . إلى آخر ما لا يتفق مع شهرته فى مجال الحرية الفكرية .

وقد توطد هذا النظام وشاعت المحاكم حتى غطت العالم المسيحى الغربى كله بشبكة لاسبيل لاتقاءها ، واتصل أعضاؤها فى شتى الممالك وتعاونوا على الاضطلاع بهذه المهمة ، وإذا كانت إنجلترا قد أفلتت من هذا النظام ، فإن حكومتها فى عهد هنرى الرابع والخامس قد قمت الهرطقة باستعمال «الخازوق» تحت تمثال معـين (عام ١٤٠٠ م — وإذا كان هذا النظام قد تقرر الغاؤه عام ١٥٣٣ ، فإنه أعيد فى عهد مارى ، ثم أبطل أخيراً عام ١٦٧٦)

وقد أصابت محكمة التفتيش فى أسبانيا أعظم نصيب من التوفيق فى توطيد الدين المسيحى ، إذ نشأ بها النظام فى نهاية القرن الخامس عشر ، ولبث قائماً بها حتى القرن الغابر ، وتميز عن غيره بميزات خاصة .

وكان من بين الوسائل الفعالة في مطاردة المارقين « فرمان الإيمان ، الذي جنّد الناس في خدمة ديوان التحقيق ، وحتم على كل امرئ أن ينهى إلى مركز هذا الديوان كل ما يبلغه من شأن الملحدين من غير تردد أو تباطؤ ، وللبقصرين عقابهم الديوى والروحي معاً ، ومن أجل هذا لم ينج أحد من اشتباه جيرانه وإساءة الظن به حتى في نطاق أسرته ، ولم يكن ثمة أبرع من هذه الحيلة الماكرة في قهر السكان جميعاً وشل تفكيرهم ، وردهم إلى الطاعة العمياء ، فانها رفعت التجسس إلى مرتبة الواجب الدينى الخلق بالإكبار .

أما الطريقة التي اتبعت في محاكمة المتهمين بالزندقة في أسبانيا فكانت تنكر كل طريقة معقولة لتوكيد الحقيقة ، فلم يكن المتهم بريئاً حتى يثبت إجرامه ، بل اعتبر كل سجين مذنباً . . . ! ومن ثم وكلوا اليه عبء التذليل على براءته . . ! وكان قاضيه هو المدعى عليه ، وكل من تقدم للشهادة ضده قُبلت شهادته ولو كان من أرباب السوابق ، وكانت قواعد ادعاء الشهود عليه مرنة طليقة ، وعلى عكسها كانت القواعد التي وضعت لرفض شهود الدفاع ، فمن حق اليهود والمغاربة والخدم والأقارب حتى الدرجة الرابعة أن يقدموا ضد المتهم أدلة تثبت إدانته ولكنهم ممنوعون من الشهادة في صالحه . . ! والمبدأ الذي اعتنقته محكمة التفتيش كان يقول : لأن يدان مائة بريء زوراً وبهتاناً ويعانون العذاب ألواناً ، خير من أن يهرب من العقاب مذنب واحد . . ! ومن ساهم في تقديم الوقود الذي يحرق به الزنديق فقد استحق المغفرة . . ! على أن المحكمة مع هذا كانت فيما يظهر تشفق على نفسها من أن تتهم يوماً بالقسوة الصارمة ، إذ كانت تتقى الحكم باهراق الدم ، فلا تحمل تبعة الإعدام على « الخازوق » ، فكان القاضي الأكبر كي يعلن أن السجين ملحد لا أمل في توبته ، ثم يسلمه الى السلطة الزمنية ويلتمس عندها التزام الرحمة والرفق في معاقبته . . ! وكان المفهوم أن السلطة الديويوية لا تستجيب لهذا المطلب ، بل لا تملك إلا اعدام المتهم بالهرطقة ، وإلا اهتمت بالعمل على ترويج الإلحاد . . ! وقد كان القانون يلزم جميع الأمراء

والموظفين بالإسراع في تنفيذ العقاب فيمن أسلمهم اليهم ديوان التحقيق محرومين من السكنيسة .

أشاعت هذه المحاكم روح الصرامة والقسوة في الناس ، وكان لطريقتها في الاضطهاد تأثير بالغ السوء في فقه القانون الجنائي في أوروبا كلها ، ويرى الأستاذ لي Lea مؤرخ ديوان التحقيق ، أن أعظم الأخطار التي نجمت عن محكمة التفتيش ، ربما بدت في تقليد أكبر شطر في أوروبا لطريقتها حتى أواخر القرن الثاني عشر في معاملة من كان موضع اتهام . ويرى « جبون » ، أن كراهية الإلحاد كانت نوعاً من الجرائم المعدية ، وأنها نشأت عن نظرية الخلاص على ما أسلفنا ، بل إنها اضرت بقيمة الحقيقة في ذاتها ، إذ جعلت قدر الإنسان في خطر ، فأصبح من المشروع ، بل من الضروري اتخاذ كل وسيلة تؤدي إلى تقوية المعتقد الديني ، بالغاً ما بلغ زيفها وخداعها ، أما تقدير الحقيقة لذاتها فإنه لم يحتل مكانه واضحاً في عقول الناس إلا في مطلع العصر الحديث — في القرن السابع عشر . .

وقد ساعدت هذه المحاكم على إفساد الأخلاق ، إذ طالما أدى حسد العلماء بعضهم لبعض ، إلى اتهامات لا يبررها سند من الحق ، وقد راح ضحية هذا الحسد Pietro of albano في مستهل القرن الرابع عشر (١٣٠٢ م) متهماً من أحد حساده من علماء الطبيعة بالهرطقة والسحر ، وكان قد ترجم (١٢٩٢-١٢٩٣ م) كتب ابراهام بن عذرا في علم النجوم — وقد نشرت عام ١٥٠٦ م — ووقع ما يشبه هذا لمعاصره البادوي Jiovanning Sanguinnacci الذي اشتهر بأنه مجدد مهنة الطب ، ومع هذا فقد ولى الادبار ولم يكن هذا يبدع على محكمة كان قضاة من الدومنيكيين في ايطاليا يدركون خطأ الاتهام وتداعيه ، ثم لا يمنعهم هذا من إدانة المتهم . . !

وكان من أهم أعمال محاكم التفتيش وضع فهرست الكتب المحرمة على المؤمنين — وسنعود للحديث عنه في الفصل الذي سنعقده على عصر النهضة (١)

(١) سنعرف في الفصل المشار إليه أن تاريخ الفهرست الصحيح إنما يبدأ بعد اختراع المطبعة .

روعت محاكم التفتيش العالم الأوربي الذي خضع لنفوذها ، وساعدت الكنيسة على التحكم في رقاب الناس ، وإثارة الفزع في نفوسهم ، ولكنها مع هذا كله لم تستطع أن تقضى على نهوض العقل أو تعوق تقدمه ، بل ظهرت في عباب هذا الحول والطول تباشير الانهيار ، لأن تاريخ الاضطهاد يقول إن استخدام القوة ومطاردة الناس لاقناعهم قهراً لا يجدي فتيلاً ، بل إن الاضطهاد في تاريخه الطويل قد شجع الناس على اعتناق المذهب الجديد ، الذي يستشهد في سبيله أصحابه ، وهكذا أحاطت الكنيسة بقدسية نفسها يحرسها الحديد والنار ، وعلى هذا كله كانت على الدوام في فزع وروع ، لأن خصومها من أحرار الفكر ، كانوا يقتحمون حصونها وينيرانها في جراءة وجلد يثير كل دهشة ، بل أخذ يتهجم على قدسية سلطانها طائفة من المصلحين الذين ضاقوا بسوءاتها ، فانها لولا على رجالها نقداً وعلى نفوذهم هدماً ، ولكنهم للأسف الشديد شاركوها خصومتها للعقل الحر ، وكان تاريخهم في النزاع معه لا يقل سواداً عن تاريخها ، فلنقف وقفة قصيرة لبيان هذا الهذر :

رجمية القامبين : الاصلاح الديني :

إذا كانت الكاثوليكية قد ناصبت أحرار الفكر العداء ، وأصلتهم نارها في غير رفق أو هوادة ، فإن البروتستانتية لم تكن أقل منها قسوة ومرارة ، وقد يبدو هذا مثيراً للدهشة ، لأن البروتستانت هم المنشقون على الكنيسة (الرومانية الكاثوليكية) الذين توردوا على سلطانها وأنزلوا بها شر الحملات ، فألحوا في إرجاع الدين إلى الكتب المقدسة ورفضوا التسليم باحتكار الكنيسة لتفسير نصوصها ، وأباحوا للعامة الاطلاع عليها ومحاولة تفهمها ، وسلبوا الكنيسة حقها فيما زعمت في غفران الذنوب ، والاتجار بصكوك الغفران وثواب الآخرة وسعادتها . . . إلى آخر ما هو معروف عن حركة الإصلاح الديني . وقد خدعت هذه الظواهر بعض الكتاب ممن ألموا بالتيارات التاريخية إماماً سطحياً ، فصوروا الإصلاح الديني في صورة حركة عقلية

تولاها مفكرون سبقوا زمانهم بما امتازوا به من سداد التفكير ونفاذ النظر، ولو صحت هذه النظرية لوجب أن يعتبروا من رواد الفكر الحديث الذى نُعنى فى كتابنا هذا ببيان الاضطهاد الذى عانوه على يد الكنيسة ورجالها، ولسكننا نظمناهم مع رجال الكنيسة على ما بين الفريقين من خصومة، وأهملنا ما لا قوة من اضطهاد الآخرين، وعيننا باشتراكهم مع الكنيسة فى اضطهاد رواد الفكر الجديد، ولهذا الموقف ما يبرره، وأول هذه المبررات أن حركتهم كانت دينية وليست عقلية، وأنهم كانوا رجال دين عبروا عن روح عصرهم وروح العصر السابق لهم، ولم يكونوا رجال فكر سبقوا زمانهم، ومن أجل هذا لازمتهم سوءات الحركات الدينية من تعصب ذميم لكل ما يالفون، وضيق صدر بكل جديد.

كان دعاة الإصلاح الدينى يلوذون بالعقل ويعتصمون بشريعته فى مهاجمة رجال الأكليروس والكشف عن فضائهم وسوءات تصرفاتهم، فخدعت هذه الظاهرة بعض الكتاب، وأعمتهم عن كنه القوى الخفية التى تسيروهم، وظنوا وهما أن العقل رائدهم وأنه الهادى إلى حركتهم، وسار فى ركبهم بعض من عرض للبحث فى دعوتهم، وتخلف هذا الظن ولبث عند بعض المتأخرين من الكتاب، فمن ذلك أن لافيس ورامبو فى كتابهما «التاريخ العام» يفسران الإصلاح الدينى بأنه نشأ من قراءة الانجيل، وقد أدت إليه «تأملات فردية أورثها قلوب البسطاء عقل جرىء»، ولعل الأصح أن نقول مع «لوبون» وبيورى ومن إليهما، إن حركة الإصلاح لم تنشأ عن بواعث عقلية، وليس الاستدلال المنطقي هو الذى أدى الى نضجها؛ وإنما قامت على عواطف وتدينات، وجرت على منطق ديني مشبع بالمشاعر والعواطف، ولا تربطه بمنطق العقل صلات، بل إن عناصر التأمل والتفكير فيه ضئيلة، ولم يكن هذا الإصلاح فى بدايته دعوة الى حرية التفكير، بل كان مجرد انتقاد ينصب على تصرفات الأكليروس البغيض، والتبشير بالتزام العمل بما تقضى به نصوص الإنجيل،

وربط العقل بقيودها ، والملاحظ أن البلاد التي سادها الإصلاح الديني ، أخذ فيها الملوك مكان البابوات حقوقا وسلطانا ، وأكروها رعاياهم على أن يكونوا على دينهم ، وكان أصدق مثل لهذا الحكومة التي أنشأها كلفن في جنيف ، وجمع فيها بين السلطتين الروحية والزمنية ، وسلط قواه على الشعب حتى يدين بما يدين به المصلح . . . إن فهم هذه الحركة في ضوء المنطق الديني يتكفل بتفسير الغامض من ظواهرها ، والكشف عن سر الاضطهادات التي أنزلها زعماءها برواد الفكر الحديث من رجال العلم والفلسفة ، إذ ليس بغريب على من قاده خلق التدين والحماة الشديدة ، وكان شأن العقل في تصرفاته ضئيلا ، أن يكون على خلق كلفن الذي كان لا يتردد قط في إعدام من خالفه في مذهبه ، ولا يستحي أن يقول إن الله يريد أن يقضى الإنسان الرحمة الإنسانية بعيدا عنه ، عندما يعتنق الجهاد في سبيله . . . !!

كانت حركة الإصلاح صدى لروح العصر ولم يكن لأهلها سبق عقلي على أهل زمانهم ، والذي ساعد عليها هو اندحار قوة البابا في أوروبا وسقوط الدولة الرومانية المقدسة ونمو الممالك القوية التي حددت فيها المصالح الدنيوية السياسية الاكبركية والتي ترقى فيها الدولة الحديثة ، وانتصر الإصلاح الديني في ألمانيا الشمالية لأن الأمراء انتصروا له ليفيدوا من مصادرة أملاك الكنيسة ونحوها . وهذا بالإضافة إلى أن سببه الرئيسي يرجع إلى فساد الكنيسة منذ زمان ، واهتمام البابوات بمصلحتهم الدنيوية ، وقد كان كل فرد في أوروبا يشعر منذ القرن الرابع عشر بهذا النقص ، ويعرف وجه الحاجة إلى إصلاح الكنيسة . فيما يقول بيورى — فظهور لوثر وأمثاله كان تعبيراً عن روح عصرهم وما سبقه ، ولم تكن ثورة لوثر ثورة عقل متمرّد على عقيدة ، بل كانت ثورة شعور واسع النطاق يناصب الاكليروس العداوة . ومن أجل هذا كان من الخطأ أن يقال إنه مكن لحق الفرد في إصدار الأحكام المستقلة ، وأقر الحرية الدينية ، « فليس من شيء كان أبعد عن عقول قادة الإصلاح الديني

من التسامح مع النظريات المخالفة لآرائهم ، وإذا كانوا قد قوضوا سلطة البابا ، فقد أحلوا مكانها سلطة الإنجيل ، ولكنه كان الإنجيل كما فهمه لوثر أو كما عرفه كلفن ، ولم تكن الحروب الدينية التي ثارت ، ترمى إلى إقرار الحرية ، بل كانت نزاعا بين معتقدات دينية .

ولعل من الإنصاف أن نقول إن السلطات الكاثوليكية لم تناقض نفسها بهذا الاضطهاد ، لأن من حقها حماية الدين والذود عن تعاليمه ضد كل عدوان — وإن أخطأت سبيل هذا الدفاع — أما السلطات البروتستانية فإن اضطهادها للعلم يتنافى صراحة مع المبادئ التي وضعها أهلها أساسا لحركتهم في الانشقاق عن الكنيسة الكاثوليكية ، كما إقرار المبدأ القائل بحق الحكم الفردي لكل إنسان ، ويضاف إلى هذا أمران ، ينبغي ألا نهملهما عند تقدير التبعة التي يحملها كل من الطائفتين ، أولهما أن البرتستانتين لم يؤتوا من السلطان ما كان للكاثوليك ، وعندما تهيأت لهم هذه السلطة — على يد كلفن في جنيف مثلا — لم يكونوا أقل وحشية من الكاثوليك ، وثاني الأمرين إن الكاثوليك إذا كانوا قد حرموا الحقائق التي اهتدى إليها علم الفلك الحديث في أوروبا الكاثوليكية إبان القرن السابع عشر والثامن عشر ، فإن السلطات البروتستانية قد أنكرت الحقائق التي كشفها علم طبقات الأرض وعلم الحياة والأتروولوجيا ، وحظرت الجامعات الأمريكية تدريسها إبان القرن الغابر . . . فيما يقول هوابت — ولم يكن البروتستانت أقل تشبهاً بالمعنى الحرفي للنصوص المقدسة من الكاثوليك ، وقد بلغ أمر هذا التعصب بكبيرهم لوثر ، أن اعتبر هذه النصوص في معناها الحرفي الظاهر ، المصدر الوحيد للعلوم الطبيعية كلها . . ! مع أن العلم الطبيعي كان شعار الفلسفة والتعليم الحديث عامة في عصر لوثر ، ومع هذا رفض التأويلات المجازية والصوفية ، وقرر أن العلوم الطبيعية أداة لخدمة التقوى والصلاح . . وإلى مثل هذا الاتجاه ذهب كلفن . .

وإذا كان لوثر قد احتج على كبح الآراء وإحراق الملحدين ، فقد كان

هذا يوم كان يخشى أن يكون مع جماعته ضحية هذا الاضطهاد الكهنسي الدامى، فلما أمن شر خصومه، وقوى مركزه وتوطد نفوذه، أعلن رأيه الصحيح، فأوجب على الدولة أن تفرض ما يبدو لها رأيا سليما، وأن تستأصل الهرطقة لأنها رجس من عمل الشيطان، وأوجب على الناس أن يطيعوا أميرهم فى أمور دينهم ودينهم على السواء، وصرح بأن غاية الدولة حماية الدين من المارقين، وجاهر بإعدام طائفة الأنا بابتست بالسيف بعد انسلاخها عنه، وبهذا أدت عقيدة الخلاص إلى نتيجة واحدة عند الكاثوليك والبروتستانت معا ..

أما كلفن فقد كان أشد تعصبا لأرائه وضيقا بمخالفه، وقد اتفق مع لوثر على إقرار السلطة المطلقة للحاكم، وانتصر لسيادة الدولة عن طريق الكنيسة، فأيد بذلك حكومة التيوقراسى التى يتولاها رجال الدين الذين يعملون بما يوحى إليهم، بل أنشأ حكومة من هذا النوع فى جنيف، فجمع بذلك بين السلطتين الروحية والزمنية، وتمكن بهذا أن يسحق حرية النظر العقلى وينكل بخصومه سجنا ونفيا وحرقا وإعداما، وموقفه من مصرع «سرفيتوس» أعدل شاهد على ما نقول، فقد كتب سرفيتوس الأسبانى يهاجم عقيدة التثليث (الآب والابن وروح القدس)، وسجن فى ليون (لأسباب كان منها دسائس كلفن) ولكنه فر من سجنه ولاذ مسرعا بجنيف حيث يقيم كلفن حكومته، ولما حوكم بها أدين وصدر قرار باعدامه عام ١٥٥٣ م، وقد أثنى «ملائكتون» - الذى صاغ مبادئ الاضطهاد - على هذا العمل كمثل طيب للأجيال التالية .. ولكن هذه الأجيال قد أحسبت بالمهانة لارتكاب هذا الجرم، حتى شعر أتباع كلفن فى صيف عام ١٩٠٣ أنهم مضطرون لاقامة ضريح تذكارى للتكفير عن خطأ كان خطيئة العصر كله - فيما يقول بيورى .

وفى الحق إن عقائد البروتستانت لا تمثل حركة التنوير Enlightenment، بل إن الاصلاح الدينى قد عادى الثقافة كما تصدى لمقاومة حرية النظر، وكان العلم متى خاد عن مظاهر الانجيل، تصدى لمقاومته لوثر (البروتستانتى)

والبابا (الكاثوليكي) على السواء ، وقد أخفق تطور العلم اخفاقا معيبا في ألمانيا التي انتصر فيها ركب البروتستانتية .

بل لقد عاق الإصلاح الديني حرية النظر العقلي من طريق أخرى غير مباشرة ذلك أن الكنيسة التي كان يهاجمها المصلحون كان عليها أن تناضل من أجل وجودها ، وتكافح لتثبيت سلطانها ، وليس إنشاء محكمة التفتيش في روما والرقابة على المطبوعات وإعداد ثبوت للكتب المحرمة على المؤمنين ، إلا حركة أريد بها مقاومة الإصلاح الديني ، ورجع أدت إليه حملات خصومها ، وهذا كله بالإضافة إلى ما يقوله تاريخ التفكير الحر ، من أن البروتستانتية بمختلف شعبها — من لوثرية وكلفنية وأنجليكانية — قد أقرت عقوبة الإعدام قانوناً يخضع له كل من خالف عقيدتها ، وقد قاوم زعيمها الأول — لوثر — المذهب الأرسطاطاليسي وسمى صاحبه بالخنزير الدنس الكذاب ، وقال عن كويرنيكوس وهو أول رائد عرفه تاريخ علم الفلك الحديث ، إنه منجم مأفون مصاب بفس ، ولم يكن الزعيم الثاني — كلفن — بأرحب صدراً من صاحبه ، وإن كان أقصر باعاً في مجال السباب ، فقد قاوم حرية التفكير ونكل بمن وقع في يده من أهلها شر تنكيل ، ومن ذلك أنه أعلن تكفير كل من أنكر القول بأن الأرض مركز الكون .

على أن من الإنصاف أن نقول إن الإصلاح الديني قد أيد قضية الحرية عن غير قصد منه ، إذ كان هذا التأييد على كره منه ومن زعمائه ، وكانت نتيجته في هذا الصدد بطيئة وغير مباشرة ، ولم يكن في الإمكان أن تنتصر قضية الحرية على السلطة الدينية ، ولكن هذه قد ضعفت بتعدد الآلهة وكثرة السلطات اللاهوتية ، وزعزعة التقاليد الدينية بحركة النقد التي أثارها الإصلاح الديني ، وهذا بالإضافة إلى أن السلطة الكليكية العليا كانت في الدولة

البروتستانتية في يد الحاكم ولهذا الحاكم مصالحه الدنيوية وظروفه السياسية التي تضطره إلى العدول عن تعصبه الديني .

على أن الثورة البروتستانتية في وجه الكنيسة ، كانت تستند إلى اقرار حق الحكم الفردي ، وهو مبدأ الحرية الدينية ، ولكن المصلحين قد أكدوا هذا الحق لأنفسهم وحرموه على غيرهم ، بمجرد أن صاغوا دينهم ووطدوا مركزهم ، وكان في هذا التناقص الصريح في موقفهم ما يوهن نفوذهم ويضعف سلطانهم ، إذ لماذا يخلع الناس غير السلطة الكنسية في روما ليخضعوا لسلطة لوثر على حدائته . . ! إن التمرد على روما ينبغي أن يقوم على العقل وحده ، وما دام العقل أساس التمرد فلن تقف الثورة عند لوثر أو كلفن أو غيره من الثائرين ، إلا إذا افترض الناس أن أحدهم يصدر عن إلهام ! وإذا رفض الناس الخرافات كما رفضها هؤلاء المصلحون ، فلا شيء قط - مع استثناء سلطتهم - يمنع من رفض الخرافات الأخرى التي تمسك بها دعاة الإصلاح ، على أن دعوتهم في رفع احتكار الكنيسة لتفسير الكتاب المقدس ، وإباحة حق تفهّمه للناس جميعاً ، لفتت أنظار الناس إليه ، وإذا كانت دراسة الانجيل لم تصادف قبولا في الجامعات الألمانية حتى القرن السابع عشر ، بل لم يجد الانجيل بين الجمهور قراء أكثر من قبل القرن الغابر ، فإن اتجاه الناس إلى دراسته وإن جاء متأخراً ، قد أفضى إلى حركة من النقد كان لها أثرها في اقرار الحرية الدينية ، ومن ثم في توكيد النظر العقلي ، وقد عاش النقد الانجيلي في جو بروتستانتى ، ومن هذه الناحية كان المذهب البروتستانتى أداة لاقرار كفاية العقل للتفكير ، وتوكيد النزعة العقلية ، وهذا هو الذى خدم قضية الحرية على غير قصد من دعاة الإصلاح الدينى - فيما يقول الاستاذ بيورى - وقد مكن لهذه القضية وخدمها عن طريق مباشر ، طائفة من المصلحين اتهمها البروتستانت - والكاثوليك - بالإلحاد ، وأغفل الناس أمرها حتى أصبح الذهن لا يلتفت إليها إذا ذكر الإصلاح الدينى ، وهذه الطائفة هي « الصوصنية » ، فلنقف عندها قليلا :

أمرار الفكر من المصلحين :

الصو صنية طائفة من المصلحين الطليان الذين انشقوا على الكنيسة في روما إبان القرن السادس عشر ، وأنكروا عقيدة التثليث ، وأقاموا مبدأ التوحيد في المسيحية وأنكروا ألوهة المسيح ، ونسبوا الربوبية الى الآب (وهو الأقوم الأول في الثالوث الأقدس) فقاومت الكنيسة حركتهم وأفلحت في قمعها ، وفر الكثيرون منهم متهمين بالهرطقة إلى سويسرا ، ولكن المصلح المنشق على الكنيسة « كالفن » قد طاردهم بتعصبه الذميم فلاذوا بترنسلفانيا وبولندة فراراً ، وهناك نشروا عقيدتهم التي أقاموها على مبدأ التوحيد ، وقد ضاع هذا المبدأ Fausto Suzziono الذي أطلق اسم Socinus علماً عليه . وقد كانت أصول الإيمان عند طائفته (١٥٧٤) تقضي بانكار الاضطهاد ورفض القوة أداة لخدمة الدين وتوكيد عقائده ، وكانت هذه نتيجة طبيعية أدت اليها النظريات الصو صنية إذ كان أتباعها — على عكس لوثر وكلفن — يبشرون بحرية التفكير الصحيحة ، ويلحون في منح كل انسان حق الحكم الفردي في تأويل الكتاب المقدس ، فمكنوا بهذا للنزعة العقلية التي كانت تعوز عقائد التثليث وساهموا بهذا في الدعوة لحرية النظر العقلي وتوفير أسباب الطمأنينة لرواد الفكر الحديث .

وتحت تأثير الروح الصو صني ، أعلن Castellion of Savoy مبدأ التسامح في رسالة شهتّر فيها بتعصب كلفن وحقده ، وندد بموقفه من إحراق سرفيتوس وسخر من ذلك الاهتمام الذي توليه الكنائس للمسائل الغامضة ، كعقيدة التثليث والقضاء والقدر Predestination وأعلن أن الدين إذا صاحبه الاضطهاد كان لعنة ومجلبة للمجن .

وقد طارد الصو صنية خصومهم في بولندة فانطلقوا إلى ألمانيا وهو لندة وكانوا وحدهم الممثلين لمبدأ التسامح ، فاعتنقه منهم في ألمانيا الانابابتست ، وهم طائفة ثورية دينية تابعت لوثر في أول أمرها ثم لم يرقها منه اعتداله ولينه

فانسلخت عنه ، وقاتلتهم الكنيسة الكاثوليكية قتالا داميا انتهى بسحقهم ، كما سلم بهذا المبدأ في هولنده طائفة أرمنية في كنيستها التي أوى إليها الاصلاح . على أن مذهب الصوصنية وإن كان قد ساهم في تحرير النظر العقلي ، إلا أنه شجع قيام الاتحاد الوثيق بين الدولة والكنيسة ، بيد أن الاتجاه الذي يمكن لحرية التفكير ويرفع كل عرقلة في طريق أهلها ، هو الفصل بين السلطتين : الزمنية والدينية ، وهذا هو الرأي الذي ذهب إليه جماعة الأنابا بتست ، وربما عدنا إلى بيان أثره في مناسبات أخرى .

كلمة أخيرة :

والملاحظ في نزاع العقل والإيمان ، أن قوات السلطة أكبر من قوى العقل عدة وعددا ، وأن القائلين بكفاية العقل كانوا قلة طوال هذا النزاع ، ولم يكن للعقل من سلاح يحميه من هجمات خصومه إلا منطقته ، أما السلطة فقد تعددت القوى المقاتلة من أجلها ، وسخرت إلى جانبها أسباب الاضطهاد والإذلال بمختلف صورته ، ولكن سلاح العقل مع هذا كان أمضى وأصلب قناة ، حتى لقد كانت السلطة كثيراً ما تلجأ إلى استعارته لمحاربة خصومها ، وكانت هذه هي نقطة الضعف في كفاحها ، ومنها تداعى بنيانها الشامخ ، لأن أنصارها حين لجأوا إلى العقل واستمدوا منه العون في حاجة خصومهم ، انتهى بهم منطق العقل إلى آفاق أدت إلى إثارة الشقاق بين هؤلاء الأنصار أنفسهم ، فكان سلاح أعدائهم حين انتقل إلى معسكرهم ، قد انقض على قواهم وأدار الدائرة عليهم — على نحو ما سنعرف عند الكلام على العصر الحديث .

* * *

حسبنا هذا من مظاهر السلطة التي تهيأت لرجال الكنيسة ، وقد لاحظنا أن مردها إلى طبيعة العقل البشري وخصائص المعتقد الديني وتسلط الجهل .

على رموس الناس، وامتداد نفوذ الأكليروس إلى الشؤون الدنيوية، والهيمنة على السلطات التنفيذية، وتضافر خصومها من المصلحين معها على مقاومة النظر العقلي الحر، وقد مكنتها هذا السلطان الواسع النطاق من فرض محاكم التفتيش للتحكم في رقاب الناس واستعباد الجامعات والتحكم في شؤون العلم الديني والدنيوي معاً، وقد نشرت هذه السلطات لخصومها صحيفة اتهام بالكفر تسجل فيها أسماءهم وعناوين كتبهم حتى لا يمسها المؤمنون ..! والعالم الأوربي يمضى في هذا التيار الجارف وقد أغمض عينيه وأسلس قياده، حتى أذن فيه مؤذن العقل في فجر العصر الحديث فاستجاب له ..!

مصادر الفصل (عدا ما ذكر منها في صلب الكلام)

1. J. W. Draper, History of the Conflict between Religion & Science (١٩١٠ الطبعة الخامسة والعشرون . وقد ترجم إلى الفرنسية بعنوان : Les Conflits

de la science et de la religion الطبعة التاسعة عام ١٨٩٣ وهي لا تحمل اسم المترجم)

2. Prof J. B. Bury, A History of Freedom of Thought.

3. A. Dickson White, A History of the Warfare of Science with Theology in Christendom, 2 vols.

وهو كتاب قيم تجاوزت صفحاته الثمانمائة، وقد ترجم الأستاذ اسماعيل مظهر الأبواب الثلاثة الأولى من الجزء الأول من هذا الكتاب (وهي ١٧٠ صفحة) ونشرها تحت عنوان : « بين الدين والعلم، تاريخ الصراع بينهما في القرون الوسطى (كذا !!) إزاء علوم الفلك والجغرافيا والنشوء » وخدم المترجم الفاضل ترجمته الطيبة بشروحه ورجوعه إلى أصل المقدسة

4. Ch. Singer, Religion & Science (Considered in their historical relations (928.)

(٥) فرح أنطون : ابن رشد وفلسفته (٦) محمد عبده : الاسلام والنصرانية

ثم مصادر عامة لمن شاء التوسع في فصول الكتاب كلها :

Ch. Watts. Freethought, Its Rise, Progress and Triumph.

S. Maréchal, Dictionnaire des Athées 1800.

J. M. Wheeler, Biographical Dictionary of Freethinkers.

W. E. H. Lecky, Hist. of the Rise, Influence of the Spirit of Rationalism in Europe, 2 vols.

Vam Mildert, Historical view of the Rise and Progress of Infidelity 2 vols.

Science & Religion.

ويضم ائنتى عمرة كلمة ألقيت في محطة لندن للاذاعة اللاسلكية من سبتمبر إلى

ديسمبر ١٩٣٠ فسر فيها العلاقة بين الدين والعلم علماء وفلاسفة ورجال دين .

Mr. Riddle, Natural Hist. of Infidelity and Superstition in contrast with Christian Faith.

Bonner, penalties upon Opinion.

الفصل الثاني

العقل والايان

في فلسفة اليونان والرومان

تمهيد — رأى سانت هيلير في أسباب الأصالة في تراثهم — رأى لفتنجستون في أسباب حرية الفكر عندهم — دين اليونان وعلاقته بالنظر العقل — رواد الفكر الجديد في اليونان — مصرع سقراط وأسبابه — موقف الأبيقورية والرواقية — موقف الرومان من حرية النظر العقلي — كلمة أخيرة .

تمهيد :

رزح العقل البشري في حضارات الشرق القديم ، تحت ضغط العقائد الدينية ، واستعباد الأغراض العملية ، ثم تحرر من جميع هذه القيود على يد اليونان ، وعاش في ظلهم طلقا فتيا ، يجهد لخدمة « الحقيقة » منساقا بيواعث اللذة العقلية وحدها ، فكان اليونان بهذا أول من « أبدع » حرية التفكير والبحث في تاريخ الإنسانية كلها ، وقد تكفل هذا وحده -- بصرف النظر عن عبقرية التراث العقلي الذي خلفوه — بأن يضعهم في طليعة الشعوب التي يدين لها التقدم الإنساني بأوفر نصيب .

رأى سانت هيلير في أصالة تراثهم :

ولعل مرد الأصالة في تراثهم الى تحرر العقل من ضغط العقيدة الدينية ونفوذ رجالها ، فإن فلسفتهم « بتامها كانت موضوعة في وضع استثنائي أفادها جداً ، وهو أنها لم يكن أمامها أبدا ديانة مبنية على كتب مقدسة ، وقد كان الأمر على ضد ذلك في مصر ويهوده وفارس والهند حيث لم تكن الحال قاصرة على أن الدين قد سبق الفلسفة في تلك البلاد كما هو الحال عادة في كل زمان ، بل إنها اعتمدت فوق ذلك على أسس معتبرة أنها إلهية أما في بلاد الإغريق فلم يكن ما يشبه ذلك ، لأن الاغريق لم يكن لهم كتب إلهية

ولا موحى بها وقد كان أرفى ولينوس وسائر المرتلين الأقدمين الذين كانوا ينشدون آيات الأسرار الأولى ، كلهم ما كان يتكلم إلا باسمه هو ، دون أن يسند ما يقوله إلى الإله ، ولما كان الإشراف بالله متغير الصور ، منشورا في البلاد لا ينتظمها على حال واحد ، لم يستطع الوصول إلى تأليف جسم من المذاهب قد يصير ديانة ذات قوام خاص ، فلم يكن للكهنه نقابة قوية ذات سلطان ، وكان الناس يحترمونهم ولكن لا يطيعونهم ، ولم تكن الروابط بين الهيئتين إلا مفككة القوى ، لأنها إنما تبحث عن معتقدات عامة ، يغير من عرفها في كل جهة أساطير محلية لانهاية لها ، وعن بعض احتفالات عامة لم تكن إلزامية ، وهوانف يستشيرها الناس وقتما يريدون ، وألعاب عمومية ، والكتاب الوحيد الذي أخذ بمجامع قلوب الاغريق إنما هو قصيدة حماسية ، إن قصيدة حماسية من شعر الحماسة تسحر العقول ولكنها لا تهديها ، تأخذ بالقلوب ولكنها لا توجب الإيمان ، إنها تنمي الإحساسات الشريفة بما تقدم من التذكارات الوطنية ولكنها لا تسوى سبل السلوك ، فإنا قصيدة حماسية بالتوراة ، ولا هي بالزاندافستا ، ولا بمتراس البراهمة ، ولا بالقربان المثلث عند البوذيين ، فالواقع أن الفلسفة كانت هي وحدها دين الهلين . .

« وما تنسب عظمة الفلسفة الإغريقية التي لا تزال تدهشنا ، وتعلم منها بعد خمسة وعشرين قرنا ، إلا إلى استقلالها المطلق ، ولو أنها كانت تحت وصاية ديانة حسنة النظام ، أفكانت تظهر قواعدها بهذه السهولة التي ظهرت بها ؟ أو كانت تحيا تلك الحياة الطيبة القوية ! أو كانت تلد للعالم تلك الملح من التأليف ، وتؤتي ذلك الثمر اللذيذ . . . ؟ . . . أما كانت تذبل هذه الخواص العجيبة لو أن العصارة التي تغذيها جرت في قنوات أخرى من قبل ، وخصوصا في قنوات الديانة ! ولم يكن تاريخهم الخرافي إلا لعبا تلعب بها الملكات ، فكانت الخواص العليا للنفس ، في سعة من أن تتخذ لها نحواً

جدياً آخر ، وتبحث عن غذاء لها أغزر مادة ، وأدخل في باب الحق . بعيد على أن أنكر نعم الديانات على الناس ، وأرى أن من الخير أن تكون قد سبقت الفلسفة دائماً وعند جميع الشعوب ، ولكنى لا أستطيع أن أحجم عن القول بأنه إذا كانت ديانة الهلين أكثر جدية مما كانت عليه ، لاوشكت فلسفتهم وعلومهم أن تكون أقل في الجدمما كانت عليه بكثير ، وتلك خسارة لا تعوض على الاغريق ، وعلينا أيضاً لأننا نحن أبناؤهم ومظهر استمرار حياتهم ، (١)

رأى لفنجستون في أسباب همزية الفكر عند همم :

هذه هي نظرة سانت هيلير إلى أسباب العبقرية اليونانية ، ونرجى مناقشتنا لها إلى حديثنا عن موقف الإيمان من العقل في القرن السابع عشر ، حين نبين عن «إمكان» الجمع بين النظر العقلي والإيمان الديني من غير تعارض ، كما أشرنا في مقدمة الكتاب وحسبنا الآن أن نقول إن هذا الرأي الذي ذهب إليه هذا المفكر ، قد أيده غيره من المفكرين ، بل توسعوا فيه كثيراً ، فمن ذلك ما تراه عند لفنجستون ، في حديثه عن الحرية في الفصل الثاني من كتابه (٢) ، إذ يرد عبقرية الاغريق إلى الحرية الدينية والحرية السياسية معا ، ويسوق المثال بأفلاطون الذي يناقش في جمهوريته أعمق المشاكل السياسية في حرية وحذق وعمق لم يبه فيها عصر تلاه ، ومثل هذا يقال في غيره من المفكرين ، ومرد هذه الظاهرة عند اليونان إلى ما يسميه جوته Goethe بصدق النظرة ، التي ترجع إلى التحرر المطلق من القيود اللاهوتية والأخلاقية والسياسية ، وهو تحرر إن بدا طبيعياً في عصرنا الراهن ، فإن قيامه عند شعب عريق في القدم ، يعتبر مثارا لكل دهشة .

(١) Barthélémy Saint - Hilaire برنلمى سنهلمير في مقدمته لترجمة كتاب الكون والنساذ

لأرسطو، والنص من ترجمة أحمد لطفى السيد باشا ص ٨٨ - ٩٠

(٢) Greek Genius, its meaning to us.

ويعمى لفتحستون فى شرح رأبه فىقول إن من الشعوب من تستعبده
الاعتبارات اللاهوتية والأوضاع الدينية ، إن وجود أفرادها مرهون بخدمته
الله ، وكل عمل لا يبدو على اتساق مع هذه الغاية يستبعد من مجال حياتهم ،
فالمسلم ممنوع من مزاوله النحت والرسم ، لأن جسم الإنسان من صنع الله
وحده، ومن شأن الرسم والنحت أن يؤدى إلى الوثنية، واليهودى مطالب بتعطيل
أعماله يوم السبت من كل أسبوع لأنه يوم مقدس ، والمسيحى فى العصور
الوسطى ممنوع من الاعتقاد فى صحة الأنتيبود، والاعتقاد بأن جانب الأرض
السفلى معمور بالسكان ، ومن هنا جاء إذعانه للتسليم بالكرة الأرضية كما
وردت فى الكتاب المقدس .

ومن الشعوب من تستعبده الاعتبارات السياسية، فالآداب والفنون مثار
الظنون لأنها تضر بمصالح الدولة ، والمملذات البريئة محرمة على أفراد هذه
الشعوب ، وحياة الأسر قد تصطبغ بألوان سياسية، فللرجل السيطرة وللرأة
إنجاب الأولاد، وكلاهما أداة لخدمة الدولة، إنها عبودية الفرد لصالح المجموع
وقد بدت حتى فى جمهورية أفلاطون، وتاريخ اسبرطه وروما وغيرهما من الدول
حافل بمثل هذه الشواهد . من واجب الفرد فى هذه الشعوب أن يقف حياته
لخدمة وطنه ، أو لإرضاء ربه ، ومن هنا كان التضيق على حرته ، والحد
من نشاطه وحركته ، بقيود صيغت أوامر ونواهى تملى عليه ليدعن لطاعتها
راضيا أو كارها .

هذه عبودية لا يكاد يخلو من الإذعان لها شعب من الشعوب ، مع استثناء
الاغريق ..! فى بلاد اليونان وحدها احتفظ الفرد بشخصيته وامستقل بفرديته
ولم يتقدم قربانا لخدمة الله أو لمصلحة الوطن ، ومن هنا كانت عبقريته فى صدق
نظراته ودقة تأملاته . وأما فى غير اليونان فقد عاش الفرد عبداً للاعتبارات
الدينية ، وأسيراً للأوضاع السياسية. ومن هنا كان الحد من حرية النظر العقلى
عنده . فالبحث محرم فى موضوعات محددة ، وفى غيرها قد يكون الناس على

اعتناق آراء بعينها . فان تجاوزها ضل سيلا وساء مصيرا ، أما عند اليونان فليس ثمة موضوع يستبعد من مجال البحث ، ولا يكره الناس على أن يدينوا برأى تمليه سلطة ، وسيان بعد أن يصيب في تفكيره أو يخطئ ، وأن يأتي عملا صالحا أو يرتكب ذنبا آثما . ومن هنا جاءت نظرتة إلى الأشياء كما هي في حقيقتها ، لا كما تصورها سلطة دينية أو سياسية .

على أن هذه الحرية المطلقة لم تمنع من اضطهاد سقراط وأنكساجوراس ودياجوراس وغيرهم ، ولكن مرد هذا الاضطهاد إلى أسباب شخصية أو سياسية ، ثم إن مقارنة هذه الاضطهادات الفردية القليلة بقصة الاضطهادات الدينية في عصر النهضة في إيطاليا ، تملأ الانسان إعجاباً بهؤلاء اليونان ، ففي نحو خمسين عاماً (بين سنتي ١٥٦٦ و ١٦١٩) أحرقوا في روما Carneseccho و Palea و برونو J. Bruro أحياء . . . وأحرق Vanini في طولوز ، وأعدم الكلفنيون جنتايل Valentino Gentile في بيرن ، وعذب كامبانيا في قسوة بالغة ، وزج إلى السجن سبعة وعشرين عاماً في نابلي ، وأكره جاليليو على أن يذل نفسه أمام رهبان جمعوا بين الجهل والغرور ، وشعر ساربي Sarpi بمنحجر المعتال . . . وغير هؤلاء كثيرين . بل أدانت محكمة التفتيش في أسبانيا وحدها ٥٢٦ ر ٢٣٤ نسمة ، وأتهمتهم بالهرطقة وهي أفظع جرم كان يدان به إنسان ، فأين هذا مما سجله تاريخ الفكر الحر عند اليونان ؟ . . إن المفكر اليوناني لم يكن أسوأ حالا من هوبز في القرن السابع عشر ، أو من فلاسفة الألمان الذين استبعدوا من مناصبهم منذ أكثر من قرن لاتهمم بالكفر .

وينتهي لفتنجهستون بعد هذا العرض ، إلى التصريح بأن حرية الفكر عند اليونان — وقد جاءت قبل أوانها — مردها إلى أسباب أكبرها خطراً :

(١) أن ديانة الإغريق تدعن لنقد النقاد ، ويشهد بهذا موقف هؤلاء من الآلهة ، وقد روى اكسانوفان عن هوميرو وهزيود أنهما كانا يعزوان

ردائل الانسان وسوماته الى الآلهة ، وقد صوروا هؤلاء في صورة الإنسان وأضافا اليهم نقصه ، بل ألهوا كل ما يثير الروح من ضروب الأهواء والدوافع والفضائل والمطالب والأوهام ... أله اليوناني كل مجالات نشاطه التي تكشف عن إعجاز ، فالموقد الذي أدفأه وأنضج طعامه والشارع الذي أقيم فيه بيته ، والحصان الذي سخره لخدمته ، والزوجة التي بنى بها ، والطفل الذي أنجبه ، والطاعون الذي اغتاله أو برىء من شره ... كل هذا قد أوحى اليه ياله .. !! ومثل هذا يقال في القوى المجردة من خوف وثورة وسكرووررياضة وديمقراطية وحسد وجنون واضطهاد ونوم وجوع ونحوه ... تجسدت هذه القوى وكانت في بعض الحالات موضع عبادة ، فلم يكن عند اليوناني إله واحد يتحكم في الناس ويستبد بهم ، بل كان آلهتهم من صنع أيديهم ، من وحي خيالهم .. ومن الطبيعي أن يكون الناس أحرارا مع مخلوقاتهم .. ! إنهم هم الذين خلقوا الآلهة ، وليست الآلهة هي التي خلقتهم ، ومن هنا جاء استخفاف المفكرين بهذه الآلهة .. لقد كان الإله يشبه الحاكم الدستوري الذي يؤكد رعاياه على الدوام أنهم هم الذين رفعوه إلى عرشه .. ! إن ماسكهم مقيد بالعمل على تحقيق رغباتهم ، ومن بين هذه الرغبات ، رغبتهم في أن يكونوا أحرارا .. ! (٢) وهذا بالإضافة إلى أن اليونان لم يكن لهم كتاب مقدس أوحى به سلطة إلهية ، إن الانجيل جم الفوائد لمن يحسن استخدامه ، ولكن نصوصه البسيطة سرعان ما انتهت بالتأويل المتزمت عند الجهال إلى إعاقه الذهن عن إدراك الحقيقة ، فمن آيات المزامير بصدد الشمس وجريانها ، نبت اضطهاد جاليليو الذي جهر بدوران الأرض حول الشمس ... ومثل هذا يقال في غيره من شواهد ، أما اليونان فقد كانوا بمنجاة عن مثل هذه الأخطار والمزالق ، وإذا كان هوميروس قد اعتبر انجيل اليونان ، فإن هذا التعبير مجازي مضلل .

لقد كان لبني إسرائيل وصايا يتقيدون بها ويلزمون باتباعها ، أما اليوناني فلم

يعد هذه الوصايا المقدسة التي يوحى بها إليه ، فكان عليه أن يلجأ إلى منطق عقله ودقة حسه في التمييز بين الصواب والخطأ ، والخير والشر ، والحق والباطل ، والجمال والقبح ، والكمال والنقص ، وكان عقله المصنع الذي صيغت فيه عقائده ، فكان ينكر من تقاليد الدينونة كل ما لا يتمشى مع منطق عقله ، على عكس ما كان بنو اسرائيل ، لقد كان اليوناني متدينا بالمعنى الذي ينسحب على رواد الكنيسة في أيامنا الحاضرة ، فلم يكن يفهم التدين على نفس النحو الذي بدا عند القديس أوغسطين أو بسكال أو نيومان وتولستوى ومن إليهم ، فلم يكن الله عنده المعبود الذي يتجه إليه كل عمل يقوم به أحد من البشر ، ولم يكن في نظره العلة المباشرة لكل شيء في الوجود ، ومن هنا قيل إن مرد الفكر الحر في أثينا إلى عدم وجود إنجيل أوحى به الله الذي لا معبود سواه ، وإلى الاعتماد على العقل والاعتقاد بكفايته .

وعمضى لفتحستون فيقول إن اليونان إذا كانوا قد تحرروا من ضغط الدين وقيود تقاليد ، فقد كان هذ شأنهم في شئون السياسة كذلك ، ومع أن الحكومة قد أثقلت عاتق مواطنيها بالواجبات ، فإن الفرد لم تتلاش شخصيته أبدا ، بل احتفظ بفرديته وصانها من التضحية لصالح المجموع . . . وقد بلغ من أمر هذه الحرية السياسية أن كان المواطن الطريد كثيرا ما ينضم إلى أعداء وطنه مختارا . . بل لا يكون اليوناني مقاتلا ممتازا حين يكون في حكم طاغية مستبد ، لأنه يقاتل في مثل هذه الحال من أجل سيد يستبد به ، فإن تحرر من طغيانه ، بدت شجاعته واكتسح أعداءه فيما يروى عنه هيرودوت .

والملاحظ أن حرية الكلام تحتل المكان الأول عند إروبيدس ، فمن أخطأته نعمتها كان عبدا رقيقاً ، وقلما كانت الدولة تتدخل في حرية الناس في الكلام والنشر ، وليس أدل على هذا من روايات أرسطوفان التي كانت تمثل على المسرح وتزاول النقد في طلاقة ، وقد كابد نقده المر الأثينيون وساستهم في الحرب

البلونيزية . وإذا استثنيت أفلاطون ، جاز القول بأن جميع المفكرين السياسيين في اليونان قد حرصوا على احترام شخصية الفرد، واعتبروا الدولة مسخرة لخدمته . وتبدو الحرية الكاملة عند الوثني في خلو أحاديثه من محاولة الالتجاء إلى ضغط القانون لجعل الفرد صالحاً خيراً ، وإقامة الاحتياطات التي تضمن تمسكه بوطنه ، إن الجو السياسي الذي عاش فيه كان شديد الاختلاف عن الجو الذي نعيش فيه نحن الآن ، إنه خلو من الحديث عن النزاع بين الطبقات وصيانة مصالحها ، والخدمة العسكرية الإجبارية، وتحريم السكر والتعليم الديني ونحوه — وإن كان من الحق أن نعترف بأن الاسبرطين قد أعوزتهم هذه الحرية ، إذ كانت تربية الصغار وإعداد الكبار يتجه إلى التهيؤ للقتال ، ومن هنا كانت تضحية الفرد في سبيل الدولة ، وهذا ما جاهر به بيركليس واحتقره حين كره المنع والتحريم ، ونزع إلى ترك الفرد لنفسه حتى يكون موضع ثقة تجعله كفواً لأداء واجبه — كان المثل الأعلى عند اليوناني : حرية مطلقة غير مقيدة ، فهل من الغريب بعد هذا أن يكون العقل اليوناني على هذه المبادئ حراً طلقاً . . ؟

إلى هذا ينتهي لفنجستون من بيان البواعث التي أدت إلى حرية النظر العقلي عند اليونان ، فالتحرر من ضغط الدين والسياسة ضروري لتحقيق أسمي تقدم يطمح إليه العقل البشري ، وقيام الفلسفة والعلم مستحيل بغير هذه الحرية التي تمكن العقل من المضى في تفكيره حتى يسير نحو الأشياء ويكشف عن حقيقة جوهرها ، وقد تكتسب الآداب بمثل هذه الطريقة ، ولكن نجاحها قد يتحقق حيث يضمحل العلم والفلسفة ، وتاريخها أعدل شاهد على ما نقول .
فلنعد إلى بيان العلاقة بين الدين والفلسفة عند اليونان :

دين اليونان وعرفته بالنظر العقلي :

قل إن أشعار هوميرو — الالياذة والأوديسا — كانت إنجيل الاغريق ، وهذا غير صحيح لأنهم لم يعتبروها قط من وحي الله ، وكانوا يعتبرونها

دنيوية لا دينية ، ورغم ما تهبأ لها من سلطان واسع النطاق على نفوس الإغريق ، لم تقو على تقييد العقل والحد من طلاقته — كما هو الحال في الكتب المقدسة — ومن أجل هذا لا يصادف نقدها ما صادف نقد الأناجيل من سورات الغضب ونزعات الانتقام، وساعد على نقدها ، ما تضمنته من ألوان الاستهتار والخط من المبادئ الخلقية .

ومع هذا فقد كان الدين الشعبي موضع احترام وتقدير ، وكان الشعب هو الذى يتولى اتهام المارقين ورفع أمرهم إلى القضاء ، ولكن العصر قد خلا من سياسة منظمة ترمى إلى قمع الفكر الحر والتنكيل بأهله ، ومن أجل هذا استهدفت المعتقدات الدينية للنقد وتعرضت للسخرية، على يد مفكرين كانوا بمأمن من اضطهاد الشعب وضغط حكامه ، وأغلب الحالات التى حوكم فيها أحرار الفكر من فلاسفة اليونان، مردها إلى أسباب سياسية وبواعث شخصية . وقد مكن لهذه الحرية الفكرية خلو البلاد من نظام كهنوتى ، يصبح معه قساوسة البلاد ذوى حول وطول ، ويمكنهم من الطغيان على مصالح الناس ، وإسكات أحرار الفكر منهم وقمع كل نزعة ترمى إلى هدم المعتقدات وزعزعة التقاليد . وقد هيمنت السلطات المدنية على العبادات ، ورغم ما تهبأ لبعض الأسر الدينية من سلطان ، كانت كلمة الكهان لا تسمع إلا فيما يتصل بالطقوس الفنية .

وقد تفاوت نقد الدين الشعبي قوة وضعفاً ، فعرض بعض الفلاسفة إلى تقويض معتقداته فى غير رفق ولا رحمة — كما سنعرف بعد قليل ، وحاول البعض الآخر أن يتحلل من تعاليمه ، فاعتبر الفيثاغورية آلهة الدين هى المعانى التى تحملها ، فغيرها هى الحكمة — لآلهة الحكمة — وهكذا الحال فى سائر الآلهة ومضى الرواقية فى هذا الاتجاه ، فاعتبروا الآلهة قوى كونية .

وعندما غزا الرومان بلاد اليونان — ٤٦ ق.م — ، ألبسوا التراث اليونانى ثوباً لاتينياً ، وإذا كانت نزعتهم الواقعية لم تهضم ما تضمنه هذا التراث من وجوه النظر التجريدى المحض، فحملتهم على تسخير العقل لخدمة الحياة العملية

— والخلفية منها بوجه خاص — فانهم — فيما يقول بيورى — قد واصلوا سياسة أسلافهم من اليونان فى احترام النظر العقلى الحر ، وعدم إخضاعه لاستعباد الأعراض الدينية .

هذا هو موقف اليونان من حرية التفكير إجمالاً ، وإننا لنلاحظ روحهم حياً يسعى فيما خلفوه لنا من آثار ، وهو الذى أضاء العالم الأوروبى يوم انطلق إلى تراثهم يرتاد مجاهله ، وينقب عن آثاره ، ويلتمس عنده العون على اكتساح الجهالة التى خلفها ظلام العصر الوسيط ، ولهذا قيل إن المدنية الأوربية الحديثة تدين لمبدأ الحرية الفكرية أكثر مما تدين لتراث أهله فى شتى ميادين المعرفة البشرية ، لأنه كان مصدر الإبداع فى النظر الفلسفى والتفكير العلمى والنظام السياسى ، بل كان سر الأصالة فى ميادين الآداب والفنون ، فما كان ينتظر أن تبلغ ما بلغته من وجوه الطرافة والابداع ، لو عاق أهلها عن نقد الحياة عائق فلنعرض للإبانة عن هذه النظرة المجرمة بشيء من التفصيل :

رواد الفكر الجدير فى اليونان

يتألف الاغريق من شعوب منفصلة بعضها عن بعض ، تختلف مزاج وعادات وتقاليد ، وإن جمعت بينها وحدة فى المظهر شاركت فيها جميعاً . وليس يعيننا الآن اختلافها فى الميول الرجعية أو النزعات التجديدية ، وتفاوتها فى عمق النظر وسمو الإدراك ، وحسبنا أن نخص بالحديث منها ما يتداعى ذكره مع تاريخ الحضارات ولا سيما الأيونيين والأثينيين .

كانت أيونيا مهد النظر العقلى الحر ، وعلى يد مفكرها بدأ تاريخ العلم والفلسفة ، يوم استخدموا الحد والبرهان فى معرفة العلل والماهيات ، وحاولوا منذ القرن السادس قبل الميلاد ، أن يفسروا الكون وما يعتره من تغيرات ، وأن يعرفوا المبدأ الذى صدر عنه ، والمصير الذى ينتهى إليه . وإذا كان العقل اليونانى لم يتمكن من التحرر الكامل من ضغط الأفكار الدينية الشائعة فى عصره ، فقد تيسر له — مع هذا — أن يعمل على تقويض الآراء والمعتقدات

الدينية وهو في مأمن من ضغط الدين وطغيان رجاله .

وفي طليعة رواد الفكر يقف اكسنوفان + ٤٨٠ ق . م ، وإن لم يكن أطولهم باعاً أو أكبرهم خطراً ، لأن موقفه من لاهوت عصره ، يصور لنا حرية الجوّ الذي عاش فيه هؤلاء الفلاسفة ، فقد كان يطوف بالبلاد معلناً باسم الأخلاق ، مأساورة من شك في المعتقدات الشعبية في الآلهة - ذكوراً وإناثاً ساخراً من ميل الإغريق إلى تشبيه آلهتهم بالإنسان ، وإضافة صفاته إليها ، فالآلهة عنده من خلق الناس ، المعرضين للفناء ، يرسمونها على صورتهم ، ويضيفون إليها ما لهم من عواطف وأصوات وأشكال ، ومن هنا بدت الآلهة في نظر الأحباش سود اللون فطس الأنوف ، وتمثلت عند أهل تراقيا زرقاء العيون ، حمر الشعر ، ولو كان للثيران أو الخيل تدبير الإنسان ومقدرته على التصور ، لتمثلت الآلهة على مثالها .. والله واحد يسمو على الموجودات جميعاً ، يخالف البشر في صورته وتفكيره ...

وهذه الحملة التي وجهها للاهوت الشائع في عصره ، اتهم ثقة الناس في الشعراء ، ولا سيما هوميير ، أعظم مرجع للأساطير عند اليونان ، وقد تناوله أكسنوفان بالنقد اللاذع في غير رفق ولا رحمة ، وأنكر عليه أن يعزو إلى الآلهة أعمالاً تعد معرفة لمن يقدم عليها من البشر .. ، ومع هذا لم يحاول أحد أن يخفف من حدة هذا النقد الساخر ، أو يتعرض لصاحبه بوجه من وجوه الأذى مع أنه وصف هوميير بأنه شاعر فاجر . ١

وقد ساهم الماديون من الفلاسفة القدامى في زعزعة الأفكار القائمة على الحس المشترك ، وتوجيه العقل في نظرته إلى السكون في اتجاهات جديدة ، وحسبنا من هؤلاء هيرقليطس وديموقريطس ، وكلاهما كان يضيق بالتصورات الشعبية للدين فيهاجمه من أجل ذلك ، ويفكر حراً طلقاً ، ولا يجد من القصص الخيالية ما يشبه القصص التي فرضتها الكتب المقدسة على الناس ، وعاقبت بها طلاقة تفكيرهم .

فأما الثاني فقد فسّر الوجود تفسيراً آلياً ميكانيكياً ، فاعتبر كل موجود لا يعدو أن يكون امتداداً وحركة ، يتألف من جواهر فردة هي وحدات متناهية في الدقة غير متناهية في العدد ، قديمة دائماً تتحرك بذاتها ، تقبل التجزئة ، بتلاقيها يحدث السكون ، وبافتراقها يقع الفساد ، تتشابه في طبيعتها ، ولكنها تختلف شكلاً ومقداراً ، وليس في الوجود موجود لا يخضع لهذا التفسير الآلي ، حتى النفوس البشرية والآلهة جميعاً ، ومن ثم اعتراها الفساد بعد السكون .

ولم يتعرض لدعاة هذه النظرية أحد من أتباع اللاهوت في عصرهم ، وحسنا ما كان ، فقد وجدت النظرية من يعمل على إحيائها في مطلع العصر الحديث ، وسرعان ما اتصلت بأحدث نظريات المادة في الطبيعة والكيمياء . فأما هرقليطس فقد حقر من شأن المعتقدات الشعبية والتقاليد والعبادات الشائعة ، وقرر - رداً على الإيليين - أن الأشياء في تغير متصل ومن ثم يكون الموجود الجزئي منتقياً الأضداد ، وبهذا يتمتع كل علم ، فهد بهذا الحركة الشك السوفسطائي ، الذي شغل أتباعه النصف الثاني من القرن الخامس قبل ميلاد المسيح ، وهم طائفة من المعلمين انصرفوا عن التفكير في السكون الطبيعي إلى مشاكل الحياة الإنسانية - ولا سيما ما اتصل منها بالأخلاق والسياسة - وأخذوا ينتقلون في البلاد طويلاً وعرضاً مبشرين بدعوة العقل ، وتحكيمه في كل ما يصادفه الإنسان من مشاكل ، مهتمين بالبحث في طبيعة المعرفة وأدوات التفكير ، فاعتنقوا مذهب هرقليطس في التغير المتصل ومضوا به حتى انتهوا إلى اعتبار الفرد مقياس الأشياء جميعاً ، فتأيدت النزعة الفردية بانتصارهم لاستقلال الفرد واحترام شخصيته ، وحمايته من تدخل الحكومة والجماعة معاً ، وأصبح الفرد بهذا معيار الصواب والخطأ في مجال العلم ، ومقياس الخير والشر في ميدان الأخلاق ، ولا عبرة برأي العرف ووحى التقاليد ، وانتفى الخطأ ، وامتنع قيام الحقيقة لذاتها ، وتضاءل شأن العلم وافتقد قيمته الذاتية واختفت النزعة الموضوعية في النظر العقلي ومهد هذا لاستخفافهم بالعقائد السائدة

والتصورات الشعبية استخفافاً أدى إلى نقدها في غير رفق ولا هوادة ،
وأشاعوا التشكك في الدين وجهروا بالسخرية من شعائره وآلهته ، وكان رائدهم
في كل هذا التمشي مع منطق العقل الفردي ، والاعتصام بجرية البحث والنظر في
التقاليد والمعتقدات وتغليب النزعة الفردية على النزعة الموضوعية ، ومن
أجل هذا كان عصرهم أشبه ما يكون بعصر التنوير — فيما يرى بعض المحدثين
من أمثال تيودور جومبرز .

وفي الحق لقد أثرت الثقافة الدخيلة عليهم تأثيراً واسع المدى ، في إخضاع
السلطة للشك الهدام ، وعملت رحلاتهم على تنمية روح الشك إزاء النقل
والرواية ، لأن من اقتصرت معرفته على تقاليد وطنه استجاب لوحيا ، ومال
إلى رفعها فوق الشك والجدل ، فاذا شد رحاله إلى أمم جديدة ، وأدرك وجه
الخلاف المحوظ بين عرفها وعرف بلاده واطلع على ما لا عهد له به من
مقاييس السلوك ، ومعايير الفهم والتصور أيقن أن الأخلاق والأديان تختلف
باختلاف المكان ؛ ومتى انتهى إلى هذا الرأي تضاءلت السلطة أمام نظره ،
وهان التهجم على قداستها .

وما من شك في أن هذه الحركات العقلية الهدامة ، كانت عند الإغريق —
هي في كل زمان ومكان — وقف على الأقلية المتتيرة ؛ أما سواد الجمهور فقد كان
نزاعاً لاحترام التفكير القائم على الأساطير ، ميالاً للاعتقاد بأن أمان مدينته
مرهون بارادة الآلهة ، ومن ساوره الشك في صدق هذه الخرافات الشائعة
مكن خصومه من اضطهاده ، وهذا ما وقع في أثينا فقد أضحى في منتصف
القرن الخامس أعظم ولايات الإغريق وأرفعها شأناً في مجال الآداب والفنون ،
وكانت قد استوفت حظها من النظام الديمقراطي ، فتحرر الجدل السياسي فيها
من كل قيد ، وكان يتولى أمرها حاكم حر التفكير هو بيركليس ، إذ كان
على اتصال بالنظر العقلي الحر في عصره ، اتصلت أسباب الصداقة بينه وبين
الفيلسوف السوفسطائي أنكساجوراس الذي كان لا يؤمن بآلهة الأثينيين

أدنى إيمان؛ ولما دحرت أثينا غاره الفرس على بلاد اليونان، غادر الفيلسوف أيونيا وخف إليها ليعلم فيها، فدخلت الفلسفة أثينا لأول مرة، ووقف الفيلسوف من الآلهة موقف كفر صريح، وجارى الطبيعيين فى تفسير السكون تفسيراً آلياً، وكان خصوم بيركليس السياسيين يكيدون له، فسئوا قانوناً لمحاربة التجديف، ليستهدف للعقاب من ألد أو علم نظريات تتصل بالعالم السماوى، وقد كان هذا العالم فى اعتقاد الأثينيين إلهياً، وتيسر لهم بعد هذا القانون أن يدللوا على أن «أنكساجورس» ملحد مجدف، يقرر أن الآلهة مفارقة للمادة والقمر أرض تحوى جبالات ووديان، والشمس التى يقيم لها الأثيني الصلاة كل صباح ومساءً، — هى وسائر الكواكب؛ كغيرها من الأجسام الأرضية، ليست إلا إجراماً ملتبهة، فصدر قرار بإعدامه جزاءً وافقاً على تجديفه، ولكن بيركليس قد تمكن من إنقاذ صديقه من برائن الموت، وإن اضطر هذا إلى دفع غرامة فادحة.

واضطر بعدها إلى مغادرة أثينا، والالتجاء إلى لمباقوس Lampsacus بأسيا الصغرى — وفيها عاش مكرماً حتى وافته منيته.

وإذا كانت الخصومة السياسية قد استغلت الدين فى مثل هذا الاضطهاد، فإننا لا نعدم فى هذه الفترة وجود حالات تشهد بأن مهاجمة العقائد الدينية قد تستفز الجمهور وتثير حفيظته وتدفعه للانتقام، فقد نشر «پروتاجوراس» أحد كبار السوفسطائية — كتاباً عن الآلهة، قال فيه: أما بصدد الآلهة، فإنى لست على يقين من وجودها أو عدمه، وثمة أسباب كثيرة تفسر عجزنا عن معرفة ذلك، منها غموض الموضوع، وقصر حياة الإنسان... إفتهم بالتجديف، وصدر حكم بإعدامه، وأحرق كتابه على ملاء من الناس، ففر إلى أثينا، ولكنه مات غريقاً.

على أن تاريخ النزاع بين الإيمان والعقل فى هذه الفترة لا يسجل وجود سياسة مقررة لقمع الفكر الحر واضطهاد أهله، فإن كتاب «پروتاجوراس»

السالف الذكر ، قد جمعت نسخه ، وأشعلت فيها النار جهاراً ، ولكن كتاب « انكساجوراس » الذي فصل الآراء التي أدين من أجلها زميله ، كان يباع للناس على قارعات الطرق ، في مكاتب متنقلة في أثينا بأسعار مخفضة . . . وهذا بالإضافة إلى أن الأفكار التي تسير منطق العقل ، ولا تتمشى مع وحى العرف ، كانت تمثل على المسارح ، وإن كان التمثيل الدراماتيكي في أعياد الإله ديونيسوس Dionysus ، كان يتسم بالوقار الديني ، على أن الجوح كان يشير الناس أحياناً ، فإن الشاعر « إروبيدس » كان مشعباً بروح النظر العقلي الحديث ، وكان كثيراً ما يجرى على ألسنة الأبطال في رواياته ، آراء تنبو عن العرف المألوف ، وتزج صاحبها في زمرة الملحدين ، فاتهمه بالتجديف أحد الساسة الشعبيين .

ويلوح لنا أن الإلحاد قد استشرى داؤه بين الطبقات المثقفة ، خلال الثلث الأخير في القرن الخامس قبل ميلاد المسيح ، فقد شغلت هذه الفترة طائفة كبيرة من أصحاب النفوذ من العقليين ، كانوا ضماناً لحرية التفكير ، ووقاء من شر كل حركة منظمة ترمي إلى قمع الرأي الحر ، ولكن وجه الخطر في قانون التجديف ، أن استغلاله لخدمة الأغراض الحزبية والمآرب الشخصية كان ميسوراً ، وما من شك في أن بعض الدعاوى التي تناهت إلينا تعزى إلى مثل هذه البواعث ، وإن كان بعضها الآخر قد دفع إليه التعصب المحض ، أو أدى إليه الخوف من انتشار التفكير الشكي واستفحال أمره ، وتجاوزه الطبقات المثقفة إلى غيرها ، إذ كان المبدأ المقرر الذي اتفق عنده الإغريق — والرومان بعد — أن الديانة ضرورة لازمة للكافة ، وليس من صالح الوطن ، ولا من خير أفراده ، أن ينصرف الناس عن اعتناقها ، واتباع تعاليمها ، فالذين لم يؤمنوا بصدقها ، ولم يعترفوا بوجه الحق في عقائدها ، آمنوا بنفعها كنظام سياسي ، ولم يكن من المألوف المساغ في رأي العرف أن يتحرى الفلاسفة نشر الحقائق المثيرة للجهير ، المشوشة لآرائهم ، بل كان المألوف

الذى جرت به العادة أن يبدو الذين لا يؤمنون بالمعتقدات الثابتة ، وكانهم يعيشون بوحيا ، ويجرون على نظامها — كما هو الحال في عصرنا الحاضر .

مصرع سقراط وأسبابه :

وإذا كنا في معرض الحديث عن حرية النظر العقلي عند اليونان ، فلا مفر من الحديث عن مصرع سقراط ، التزم منهجه في التهكم والتوليد ، فكان يصطنع الجهل ويستفسر من محدثه بأسئلة تثير الشك وتفضى إلى الكشف عن وجوه التناقض فيما يقول محدثه ، ولا يزال في حديثه حتى يستخرج الحقيقة مستعينا بالعقل الذى يتخطى عوارض الأشياء إلى ماهياتها ، وبهذا يكون العلم الصحيح ، وقد أثار خصومة الكثيرين من كبار البارزين من مواطنيه بمثل هذا الامتحان الذى أجراه معهم وكشف به عن جهلهم .

وقد أغرى تلامذته باختبار المعتقدات الشعبية بمنطق العقل الدقيق النزاع للجدل ، وحنهم على عدم الاستجابة إلى رأى الكثرة وإملاء السلطة عند إصدار الأحكام وتقويم الأمور ، فالرأى العام لا يصلح أن يكون محكا للحقيقة ، والعرف الشائع لا ينبغي أن يتخذ دليلا على صحة رأى أو بطلان فكرة ، وقد كان من بين تلامذته كبار فلاسفة الجيل التالى ، الذين تجاوز اسمهم حدود أثينا ، وملا تاريخ العقل البشرى بوجه عام . وقد كان منهجه فى الجدل يسىء خصومه ويجرح عزتهم ، فمناقوا به وبرموا بأرائه ، وكان من مظاهر استيائهم أن وضع أرسطوفان عام ٣٧٦ روايته « السحب » وصور فيها سقراط معلقاً فى الفضاء يرصد السماء ، وعزا إليه إنكار الآلهة ، واتهمه بتعليم تلامذته إثارة الباطل على الحق ، وطالب بإعدامه مع تلامذته وإحراق مدرسته ! ولكن مطلبه لم يتجاوز صفحات كتابه .

وإذا استثنينا مثل هذه المظاهر من استياء خصومه ، لاحظنا أنه واصل التبشير برسالاته فى تعليم مواطنيه حتى أدركته الشيخوخة ، دون أن يصيبه أذى من جراء تعاليمه ، فلما بلغ السبعين من عمره عام ٣٩٩ ق . م رفع أمره إلى

القضاء ثلاثة من خصومه بحجة أنه ينكر آلهة المدينة ، ويوجه الأذهان الى آلهة أخرى ، ويفسد عقول الشباب ، وطالبوا بإعدامه اتقاءً لشره ، ولم يكن من الهين على يوناني أن ينكر الآلهة ، وهي من التقاليد التي تحوطها القداسة ولا يجوز التعرض لها بسوء ، ولكن سقراط كان في الواقع مؤمناً بالآلهة وعنايتهم بالبشر ، حريصاً على المشاركة في الشعائر الدينية ، والمظنون أن اتهامه بالقول بآلهة أخرى مرده إلى ما كان يزعمه من أنه يسمع في بعض الأحيان صوتاً إلهياً ينهيه عن ارتكاب بعض الأعمال ، وأما اتهامه بإفساد الشباب فمرجه فيما يرى خصومه إلى أنه كان ينفر تلامذته من الديانة الشعبية ، ويغريهم بالتفكير المستقل القائم على شريعة العقل . فتألفت محكمة من اثنين وخمسمائة نوتي وتاجر ، لم يألفوا البحث الفلسفي والجدل العقلي ، وأنكر الفيلسوف ما عزاه اليه خصومه وقرر أنه يبشر بالصلاح والهدى مساقاً بإرادة إلهية ، غير طامع في منفعة ذاتية ، وأعلن إصراره على تحقيق رسالته ، ولو قضت المحكمة ببراءته ، لأنه يؤثر الواجب على الحياة ، ولا يخاف غائلة الموت ، ثم صرح في ختام دفاعه بأنه يأبى أن يسترحم قضائه ويطلب اليهم الغفران ، كما جرت بهذا عادة الأعيار من المتهمين ، فأدانتهم الأغلبية (٢٨١ ضد ٢٢١ صوتاً) وكان القانون يخوله اختيار نوع العقوبة التي يرتضيها ، فأبى هذا لأن الاختيار اعتراف بذنب لا يقرب به ، وأعلن أنه خليق بأن يثاب على رسالته التي قضى حياته في التبشير بها لصلاح أمته ، فليكن جزاؤه أن يعيش ما بقي من حياته على نفقة الدولة .. ثم عاد فاستجاب أخيراً لإلحاح تلامذته في إنقاذ حياته بدفع غرامة ، ولكن قضائه كانوا قد سبقوا إلى الحق عليه ، فأصدرت أغلبية كبيرة منهم حكماً بإعدامه ، واستقبل الفيلسوف هذا الحكم راضياً مطمئناً ، وأعلن أن الموت خير لا ينبغي أن نخافه أو نضيق به ، فدبر له تلامذته سبيل الهرب ، ولكنه أبى أن يذعن لرأيهم ، ويعصى بهذا قوانين بلاده ، واعتصم بالصبر ، وأنهى باللائمة على كل من جزع من تلامذته وصحبه وعشيرته ،

قالت له زوجته وهو في سجنه : أيقتلونك ظلماً وعدواناً .. ؟ فأجابها رابط الجأش : أو يرضيك أن يكونوا على حق في إعدائي .. ؟ ولما دنت ساعته ، تناول كأس السم في ثبات ، وتجرحه في اطمئنان حتى الثالثة ، وراح على يد الديمقراطية شهيداً .. !

هذا اضطهاد آثم ، ولو كان مردّه إلى الدين ، لأجهز على حياة الفيلسوف قبل أن تدركه الشيخوخة ، ولكن مرجعه إلى أسباب شخصية ، وبواعث سياسية ، مرد الأولى إلى الخصومة التي أثارها بأحاديثه على ما عرفنا ، ومرجع الثانية إلى كثرة هجومه على الديمقراطية .

والإتهامات التي وجهتها أئينا إلى سقراط ، يمكن توجيهها كلها إلى زينو مؤسس الرواقية ، ومع هذا فالمعروف أن زينو حين مات في الثامنة والتسعين من عمره ، نهضت أئينا لتكريمه ، فقامت برثائه رثاءً رسمياً ، وأصدر أولو الشأن قراراً يعلنون فيه أن زينو قد استحق تقدير الوطن جزاء على ما قدم من خدمات ، وأسلف من جهود في نشر الفضيلة والحكمة ، واعترافاً بقدرته على التزام المبادئ التي بشر بها واعتناقها طوال حياته ، وخلعت عليه أئينا تاجاً من الذهب ، وقررت إعداد قبر له في مدفن العظام . وقد كان سقراط خليقاً بأن ينال من أئينا كل هذا التقدير ، لولا الظروف السياسية والأحقاد الشخصية .

وقد صور مأساة سقراط تليذه أفلاطون ، في « احتجاج سقراط » وعرض فيها لبيان الاتهام ؛ وتفنيد مزاعمه ، بدفاع حي رائع عن حرية البحث والجدل ثم صور في « أقريطون » موقف سقراط من فكرة الهرب التي عرضها عليه هذا التليذ ، ويعيننا من دفاعه الآن مبدء ان قررها أثناء محاكمته وهما :

(١) أن من واجب الفرد أن يرفض — بالغاً ما بلغت خطورة رفضه — كل سلطة تنزع إلى كبح آرائه ، وتضطره إلى اعتناق فكرة باطلة في عرف منطقته ، فأكبر بهذا من سمو الضمير الإنساني ، واستعلائه على كل قانون

وضعى ، وقد كان يشعر عن إيمان بأنه يستجيب لوحى مرشد فوق الطبيعة البشرية ، حين يتصدى لهداية البشر ، ويقف على البحث الفلسفى حياته ، حتى لقد كان يعلن أنه يؤثر الموت ، على أن يتهاون فى أداء هذا الواجب ، وهو يقول لقضائه أثناء محاكمته :

لو أنكم اقترحتم إخلاء سبيلى بشرط أن أتخلى عن بحث الحقيقة ، لقلت لكم : إني أشكركم أيها الأثينيون ، ولكنى أؤثر أن أستجيب لطاعة الله الذى أعتقد أنه هياتنى لأداء هذه الرسالة على أن أنصاع لرأيكم ، وما دام بين جنبيّ نفس يتردد ، وقوة أشعر بديدها فى كيانى ، فلن أتوقف عن مزاولة التفلسف ومواصلة التحدث إلى من ألقى من الناس ، وتكرار القول له : ألا تشعر بالضعف والخجل حين تكلف بالثروة وتعلق بها ، ولا تحرص على الحكمة ولا تعباً بالحق ولا تعمل على ترقية نفسك . . ؟ إني لا أعرف ماذا يكون الموت ، وربما كان أمرا طيبا ، فأنا لا أخافه ولا أخشاه ، ولكنى واثق من أن توقف المرء عن أداء وظيفته شر لا محالة ، فأنا أؤثر ما يحتمل أن يكون طيبا على ما أعرف أنه شر .

(٢) ويلح سقراط فى القول بأن حرية البحث مفيدة للناس ، فيقول لهم : إنكم تجدون فىّ نافدا ينبهكم إلى أخطائكم ويثابر على إقناعكم وتأنيبكم ، ويداوم على امتحان آرائكم ، ويحاول أن يدلل لكم على أنكم تجهلون ماتتوهمون أنكم تعلمونه ، والخير الأسمى إنما يقوم فى بحث هذه الموضوعات التى أناقشها كل يوم ، والحياة التى لا تخضع لامتحان هذه المناقشة لا تستحق أن يحياها إنسان ، فكان هذا أول تبرير عقلى لحرية الفكر .

وبعد نحو سبعين عاما من مصرع سقراط ، مات الإسكندر تليذ أرسطو ، (عام ٣٢٣ ق م) ، فجد ديموستين وحزبه فى مطاردة الأجانب ، واتهموا أرسطو بالاحاد ، فعهد بمدرسته إلى ثاوفراسطس ، وولى الإدبار وهو يقول :
لاداعى لأن أمكن الأثينيين من ارتكاب جريمة أخرى فى حق الفلسفة !..

وضع أفلاطون في أواخر حياته « جمهورية ، مثالية ، اقترح في نظامها دينا يختلف مع الدين المعتمد الشائع اختلافاً بينا ، وفرض على أهلها الاعتقاد في الآلهة الجدد وإلا استهدفوا لعقوبة الموت أو السجن ، واستبعد كل حرية في البحث في هذا النظام الصارم ، الذي وضعه للطبقات ، ووجه الطرافة في موقفه أنه كان لا يكثرث بصدق الدين ولا يعبأ ببطلان الخرافات ، وحسبه من الدين منفعة في ميادين الأخلاق ، أما الخرافات فقد حرص على تهذيبها لتساهم في ترقية الأخلاق ، ولم يكن بطلان الأساطير الشعبية سر ضيقه بها ، بل كان مرجع احتقاره لها ، أنها لا تهيم لحياة البر والصلاح .

وفي البيئة السقراطية نشأ أنصاف السقراطيين ، وأفلاطون ، وعن هذا الجدل العقلي صدر أرسطو والأبيقورية والرواقية والشكك ، بمن هيمنوا على الحياة العقلية حتى مطلع العصر الحديث ، بل ما زالت نظراتهم تحتل مكانها في تفكيرنا الراهن .

موقف الأبيقورية والرواقية :

ومنذ القرن الثالث قبل الميلاد اتجه التفكير — على يد الأبيقورية والرواقية ومن إليهم — إلى إحياء النزعة الفردية ، والنظر إلى الفرد مستقلاً عن الجماعة ، والعمل على توفير راحتها واطمئنانها ، وشاعت هذه النظرة في العالم الإغريقي كله ، وكان سواد المثقفين في هذه الفترة من العقلين ، فسكن هذا لنزعات التمرد على الدين المعتمد ، وشجع على المروق والإلحاد ، وانحل الإيمان بالآلهة القديمة ، وأصبح الله أداة لتحقيق الخلاص الذي كان ينشده الجميع .

وجاهدت الأبيقورية بنزعها المادية وإلحادها الصريح بمعاداة الدين ، وتهجمت على قدسيته ، لأنها اعتبرت التماس الأمان مثلها الأعلى ، فأداها هذا النظر إلى أن التوقف عن الاعتقاد في الدين أدعى للإيمان من الإيمان به ، ومن ثمَّ يصبح الإيمان بالدين خطيئة ، بل أضحي عند بعضهم مبعث كل شر ،

على أن أبيقور كان يعتقد مع هذا بوجود الآلهة ، ولكنها بدت عنده في صورة إنسانية محضنة ، وإن كان قد كفل لها الخلود ، فهي تعيش في عزلة عن الناس منعمة هائلة بالاطمئنان ، مجردة عن العواطف حتى لا تشغل نفسها بشئون السكون ومن فيه ، فاتفتت العناية الإلهية ، وجاز ما نلاحظه في السكون من تفوق نصيب الشر على نصيب الخير . ولكن ما أصل هذا الشر ؟ إما أن نقول إن الله يريد إبطال الشر ولا يقوى على ذلك ، أو يستطيع إبطاله ولكنه لا يريد إلغاه ، أو يعجزه إبطاله وتعوزه إرادة ذلك ، أو تتوافر له القدرة على إبطاله وإرادة هذا معاً ، والفروض الثلاثة الأولى لا تليق بمقام الألوهية ، ومن ثم لا تصلح أن تكون موضوعاً لتفكير ، وبهذا يصدق الفرض الرابع ، وصدقه يستتبع الاستفسار عن السبب في قيام الشر ، وقيامه شاهد على ضرورة الانتهاء إلى إنكار الله بمعنى الحاكم المدبر للسكون المعنى بشئونا ، ولم يكفه إنكار الألوهية - بالمعنى السالف - ورفض القول بالعناية الإلهية ، بل حاول أن يثبت الدين من أساسه ، فاعتبر الخوف الباعث الرئيسي على الإيمان به ، وتحرى أن يحرر العقل البشري من هذا الخوف لينحل ما ترتب عليه من آثار ! ومضى في نزعاته المادية ففسر السكون في ضوء نظرية ديمقريطس في الجواهر الفردة ، وأكد خلوه من كل حكم إلهي .

على أن شيوع الإلحاد واستفحال أمره ، لا ينفى ضيق العامة بمثل هذه الآراء المتطرفة ، ولعل هذا يفسر مشاركة أبيقور في الشعائر الدينية وتردده على المعابد كما يفعل غيره من عامة الناس . . . ، على أنه عاش آمناً لا يزججه اضطهاد ، ولا يقلقه تضيق على تفكيره ، حتى وافته منيته .

وانتصر الرواقية لقضية الحرية ، وأكدوا حقوق الفرد ضد السلطة العامة ، وتمسكوا في هداية المجتمع « بقانون الطبيعة ، واعتبروه أسبق وأسهي من العرف والعادات والقوانين الوضعية جميعاً .

موقف الرومان منه حرية النظر العقلي :

على هذا النحو كانت حرية النظر العقلي قائمة عند الرومان ، كما كانت في ظل اليونان - فيما يقول الأستاذ بيورى - فلم يكن للعقل قيود تعرقل طلاقته طوال الجمهورية والامبراطورية الرومانية الأولى ، وفشت المذاهب الفلسفية التي جعلت الفرد جماع الاهتمام ، وكان أكثر قادة الفكر كفرة بالدين الرسمي للدولة ، ولكنهم نفروا من هدمه ، وحرصوا على صيانه للاستفادة منه في حكم الجماهير ، وتوفير الأمن وإقرار النظام ، بل لقد نزع بعض المفكرين - من أمثال شيشرون - إلى غرس الخرافات في النفوس لصالح الجمهور...! وقد شاع بين الملحدين من القدماء القول بأن الدين الزائف لا غنى عنه لمصلحة الحياة الاجتماعية بين الناس ، ولهذا رأى أنصار في عصرنا الحاضر ، لا يعينهم التفكير في صدق الدين وبطلانه بقدر ما يعينهم نفعه في حياة الجماعات ، والانتصار لهذا الرأي يتصل بسياسة مكيا فيلي الذي صرح بأن الدين ضرورى لقيام الحكومة ، وربما كان من واجب الحاكم أن ينتصر للدين الذى يؤمن ببطلانه...!

كانت القاعدة التي قامت عليها السياسة الرومانية : التسامح مع كافة الآراء - وجميع الديانات - في أرجاء الامبراطورية كلها ، وليس أدل على صدق هذا من أن يكون التجديف بمنجاة من العقاب ، وقد أوضح هذا المبدأ الامبراطور تيربوس (الذى ولد عام ٤٢ ق . م) إذ قال : إذا أحس الآلهة بأنهم قد أهينوا ، فعليهم أن يقتصوا لأنفسهم ..! وكان وجه الشذوذ في قاعدة التسامح ، أتباع الدين المسيحى الجديد ، وربما كانت معاملة هذا الدين الشرقى بدء الاضطهاد في أوربا ، على أن النزاع بين الطوائف الدينية لا يعنينا في هذا البحث ، وإن كان اضطهاد الفكر فرعاً من الاضطهاد في أوسع معانيه . هذا هو رأى بيورى في موقف الرومان من حرية الفكر ، ولعلنا لاحظنا أنه قصر حديثه على الجمهورية الرومانية القديمة والامبراطورية

الرومانية الأولى ، وإذا نحن تجاوزنا هاتين المرحلتين ، لاحظنا أن السياسة الرومانية قد انعكست فيها الآية ، فاحت سياسة التسامح ، وأخذت مكانها سياسة السكبح والقهر المعيب ، ولعل لفنجستون قد قصد هذا حين عرض لموقف الرومان في هذا الصدد ، وروى عن بلوتارك أن عقلية الرومان كانت بحيث لا تسمح بأن يتزوجوا أو ينجبوا أولادا أو يعيشوا من أجل أنفسهم ، أو يقيموا الأعياد والحفلات لإشباع لذتهم الخاصة ، ولم يكن من المألوف أن يأذنوا لكل فرد بأن يعمل ما يشاء منساقا مع أهوائه وشهواته ، إن بين الرومان والإغريق هوة سحيقة القرار في عبادتهم لله . والرومان لا يشجعون التجديد في التفكير أو في الدين ، ولا يمتدحون التسامح ، ولا ترضهم حرية البحث ، وقد فوض الحكام الذين يَلَوْنُ القناصل praetors في روما عام ١٦١ ق . م في طرد فلاسفة اليونان ورجال البيان من هذا البلد ، وتقرر نفي كثيرين من معلى الأبيقورية — وربما كان هذا عام ١٨٤ ق . م — وفي عام ٩٢ ق . م أصدر الرقباء هذا المرسوم : ترامت إلينا الأبناء بأن هناك أفرادا يبشرون بنوع جديد من العلم ، وأن الشبان يقبلون على مدارسهم ، وأن هؤلاء الأفراد يزعمون لأنفسهم وللناس بأنهم معلمو بيان من اللاتين ، وأن الشبان ينفقون الأيام الكاملة في محبتهم ، لقد قرر آباؤنا نوع العلم الذى ينبغى أن يتعلمه أبنائهم ، ونوع المدارس التى يجب أن يلتحقوا بها ، أما هذه المدارس التى نشأت على نقيض ما جرى به العرف والتقاليد عند آباؤنا ، فإنها فى نظرنا باطلة وليس من المرغوب فيه تشجيعها ، والإقبال عليها . ويمضى لفنجستون بعد هذا فيقرر أن هذا التباين بين الرومان والإغريق مرده إلى الاختلاف فى تاريخ الشعبين : فالرومان عاشوا فى كفاح طويل مُمضٍ مع أعدائهم ، وانتهى هذا الكفاح بابتصارهم ، فانتفى التسامح من حياتهم . وقد كانوا يمتازون بالثبات والنشاط والعزم والصلابة ، ومن أجل هذا مسّت حاجتهم إلى العمل والكفاح لرد الأعداء ، لا إلى البحث والنقاش .

وقد عرض الدكتور طه حسين لبيان هذا الموقف في فصل جعل عنوانه « بين الدين والعلم » في كتابه « من بعيد » فقال « وأما الرومان فمكرهاوا (في أول الأمر) فلسفة اليونان أشد الكره ، لقوها بالازدراء ثم قاوموها مقاومة سياسية ، فحظروا درسها ، وبلغ بهم ذلك أن زعيما من زعمائهم هو كاتو القديم توسل إلى مجلس الشيوخ في أن يتعجل في قضاء حاجة لبعض السفراء اليونانيين ليترك هؤلاء السفراء المدينة ، ويستريح منهم سواد الشعب ، وكان بين هؤلاء السفراء فلاسفة انتهزوا سفارتهم فرصة لإلقاء محاضرات فلسفية في روما ، ولكن الرومان لم يكرهاوا الفلسفة اليونانية وحدها بل كرهاوا معها كل جديد أيضاً . . كانوا أشد الشعوب القديمة في الغرب محافظة وحرصاً على القديم ، ومع أن دينهم لم يكن أشهر من الدين اليوناني تعقيداً ، ومع أنه لم يكن كالديانات السماوية يعتمد على كلام أو لاهوت ، فقد كان يمتاز عن الدين اليوناني امتيازاً قوياً من وجهين : الأول أنه كان أشد من الدين اليوناني تسلطاً على حياة الفرد والجماعة ، فقد كان الفرد الروماني أشد الناس طيرة وإشفاقاً ، يخاف من كل شيء ويرى تأثير الآلهة في كل شيء ، ويحرص على أن يتملقهم ويترضاهم . . ونحن لانعرف عن اليوناني زجراً ولا عياقة ولا قيافة ولسكنا نرى هذا كله عند الرومان ، ونراه مؤثراً أشد التأثير في الحياة الخاصة والعامة جميعاً . الثاني أن هذا الفرق بين الفرد اليوناني والروماني من حيث التأثير بالدين ، قد استتبع نتيجة الطبيعة ، وهي أن تكون عناية السياسة بالدين ملائمة لشدة ما لهذا الدين من التأثير في نفوس الأفراد والجماعات ، فنظمت حماية السياسة بالدين في روما تنظيمًا قوياً ، وقام في روما شيء يشبه « الأكليروس » له سلطته الدينية وله امتيازاته أيضاً ، وإذ كان رئيس الدولة سواء أكان ملكاً أم قنصلاً ، إنما يستمد سلطته من الشعب بعد استشارة الآلهة ، أو قل من الآلهة بعد استشارة الشعب ، فقد كان الواجب الأول على الملك أو القنصلية حماية الدين ، وكذلك قامت بحماية الدين في روما جماعة

الأكليروس وهيئة الحكومة ومجلس الشيوخ الذي كان ، واجه الأول حماية ما ترك الآباء ، فلا تعجب إذا رأيت الرومان يقاومون الجديد مهما يكن ويشتدون في مقاومته إذا مس الدين ، ولا تعجب إذا رأيت الرومان في عصورهم الأولى يبغضون أشد البغض ويناهضون أشد المناهضة هذه الديانات . . . الخ ،

كلمة أخيرة :

وإذن فقد كانت حرية النظر العقلي عند اليونان - بوجه عام - حقاً طبيعياً لكل إنسان ، فهو أشبه ما يكون بالهواء الذي يتنفسه ، وقد اتفقت كلمة الجميع عند هذا الحق ، وإذا كانت أثينا قد عرفت سبعة أو ثمانية مفكرين قد عوقبوا من أجل الاتهام بالهرطقة ، فقد كان الاتهام في بعض هذه الحالات ، أو في أكثرها - مجرد تعلق وادعاء ، يستر وراءه أحقاد أمردها إلى الأسباب السياسية أو البواعث الشخصية ، فان المستنيرين من هؤلاء القدامى ، كانوا من أشياع العقل والانتصار لشريعته ، ينفرون من كل سلطة تنزع إلى الهيمنة عليه ، ويرون أن الحججة وحدها هي الطرق إلى سيادة الآراء ، ولكن هذه الحرية لم تكن نتيجة لسياسة تحروا وضعها عن وعي ، وتوخوا توكيدها عن اقتناع أكدته البراهين عن قصد . ولم تكن مشكلة حرية التفكير والتساح ونحوه ، مفروضة على المجتمع ، ولا موضع بحث جدى بتاتاً ، فلما واجهت المسيحية الحكومة الرومانية ، كان لابد من تجربة النظرية ، وممارسة الاضطهاد زمناً طويلاً ، لكي تستقيم حرية التفكير وتتوطد في أمان ، وكانت سياسة السكبح التي أقرتها الكنيسة المسيحية ، وما أدت إليه من نتائج ، هي التي دفعت العقل لمواجهة هذه المشكلة والتصدى لها ، وسرعان ما اهتدى العقل إلى اكتشاف تبرير لحرية الفكر .

حسبنا هذا عن حرية النظر العقلي عند القدامى من أهل أوروبا ، ولنتبع

موقف المسيحية من العقل منذ نهض رجالها لمقاومة شريعته :

أهم مصادر الفصل

1. Prof. J. B. Bury, A History of Freedom of Thought (1920)

وكتابتنا مائل للطبع ، ظهرت ترجمة عربية لكتاب بيوري تحت عنوان « حرية الفكر »
للاستاذ محمد عبد العزيز المسحق .

2. Livingstone, Greek Genius, its meaning to us.

3. F. M. Conford, From Religion to Philosophy

4. A. Taylor Socrates.

5. Encyclopedia Br. art. Socrates by Jackson

6. Platon, Apologie de Socrates.

7. Roberston, A Short Hist. of Free Thought, (Ancient & Modern 2 vols).

ثم من كتب تاريخ الفلسفة :

Th. Gomperz, Les Penseurs de la Grèce (2 vols).

Greek Thinkers مترجم عن الألمانية وله نسخة انجليزية بعنوان

(ويمكن الرجوع الى Zeller و Erdmann و Burnet و Brhier وغيرهم)

ويوسف كرم في تاريخ الفلسفة اليونانية وطه حسين في « من بعيد » ومقدمة سانتيلير

لكتاب الكون والفساد لأرسطو (في ترجمة أحمد لطفي السيد باشا)... إلخ

الفصل الثالث

موقف الأكليروس من شريعة العقل

في العصور الوسطى

تمهيد — التقاليد المهمة لاضطهاد العقل — مسألة العقل للكنيسة في العصور المظلمة
بدء النزاع بين العقل والسلطة — أوروبا بين الطابع الأفلاطوني والأرسطاطاليسى — موقف
الأكليروس اليهودى من ارسطو — موقف الأكليروس المسيحى من ارسطو وشراحه من
المسلمين — كلمة اخيرة

حلق النظر العقلى فى جو الحرية الرحب أيام اليونان على ما عرفنا فى
الفصل السالف — ولكن الشيخوخة قد أدركته فى أواخر عصرهم ، فخصع
لسلطان دين فتيّ جديد نزل بأرضه ، واستبدّ بقلوب أهله . وآثر العقل الواهن
حياة الأمن والهدوء ، واستطاب السلامة واتقى أسباب النزاع قروناً طوالاً ،
فلما دبّت اليه اليقظة وعاوده النشاط ، تأهب — فى العصر المدرسى —
لإعلان تمردده والجهر باستعداده للنزال ، فكان هذا بدء عهد جديد ، شهد
صراعاً دامياً آثماً ، استشهد فيه الكثيرون من رواد الفكر الحديث ، على يد
أصحاب السلطة من رجال الكهنوت .

وإذا كان النزاع الذى يعيننا فى هذا البحث ، لم يقع إلا بعد انقضاء نيّف
وعشرة قرون على قيام الدين إلى جانب العقل ، فردّ هذا إلى أن النزاع يتطلب
اجتماع أمرين لا يكفى أحدهما لقيامه سلطة فى يد رجال الكنيسة ، يتمتع
بدونها كل اضطهاد ، يصاحبها عقل يتمرد على مألوف أحاطه بالقداسة أتباع
السلطة . والقدرة على هذا التمرد والمروق ، هى الشاهد على يقظة العقل
وجرأته معاً ، ومن أجل هذا عاشت المسيحية فى أوروبا فترة من الزمن ،

لا تملك الاضطهاد ، لأن السلطة تغوز رجالها — فوق تغيب العقل الجريء .
الناضج — ثم تهيأت السلطة لرجالها بعد قرونها الأولى ، ولكنها لبثت زماناً
طويلاً لا تمارس اضطهاداً ، ولا تطارد من أحرار الفكر أحداً ، لأن العقل
اليقظ الناضج ، الممتاز بجرأته ، لم يكن قد وُجد بعد . فلما بدت بشائر هذه
اليقظة العقلية ، وتجلت في القرن الثاني عشر ، مع قيام السلطة الأكليرية بدت
في الأفق بوادر هذا النزاع .

ولا يعيننا في هذا البحث ، أن نعرض لحياة العقل المطمئن المسلم ، ولهذا
كان المنتظر أن تتخطى العصر الذي هادن فيه العقل الدين — عصر الآباء
وشرطاً من العصر المدرسي — ولكننا مضطرون إلى الوقوف عنده قليلاً ،
لنرى الجو الذي تنفسه أهله ، ونقف على التقاليد التي توطدت في ظله ،
والشرائع التي سُنّت على يد رجاله ، وكانت أساس الصراع العنيف الذي
أعقب هذا الوتام :

التقاليد الممهدة لاضطهاد العقل :

فرق لفينجستون بين التفكير الهيليني والتفكير المسيحي من ناحية الوضع
الديني ، فقرر أن الأول يستغنى عن حاجته إلى إله ، وإن تطلع إلى الحياة المقبلة
والعالم الروحي المحض ، فإن استبعدنا من التفكير اليوناني هذه الفكرة ،
لاحظنا أن اليوناني لا يزال يعيش نفس الحياة التي كان يعيشها ، فليست الدنيا
كلها تأوها ونصباً وأنيباً ، إنه لم يكن في انتظار مجد يتكشف له بعد هذه الحياة
ويعوضه عن شرها خيراً ، كان المجد الذي يطمع فيه حاضراً بالفعل أمامه ،
ففي استطاعته أن يعيش راضياً بحاضره ، أما في العالم المسيحي فقد كان على عكس
هذا تماماً ، إنك إن استبعدت منه العالم المجهول غير المرئي ، غيرت كل ما للحياة
من معنى وقيمة ..! علت صيحة العقل عند اليونان ، ثم خبت وأخذ مكانها نداء
الوحي في العصور الوسطى ، وفي ضوء هذه التفرقة تلمس أسباب النزاع بين
رجال الكهنوت ودعاة العقل .

وقد أشرنا فيما أسلفنا إلى أن الاضطهاد الديني في أوروبا ، قد بدأ يوم خرجت السياسة الرومانية على شريعته في إطلاق الحرية الدينية لرعاياها ، وضنت بالتسامح على الدين المسيحي الجديد منذ ظهوره ، فكتب المشتغلون بالفلسفة من آباء الكنيسة في القرن الثاني دفاعات ذادوا بها عن دينهم ، وردوا فيها على حملات الوثنيين من خصومهم ، واستغلوا فيها أساليب الجدل الفلسفي الذي أخذوه عن اليونان ، وكانوا ينطون على كراهية عميقة للبدنية الرومانية التي كانوا يعيشون في ظلها ، كما يشهد بهذا معاصرهم Tatian (١) . وكان المسيحيون في إبان القرنين الأولين طائفة منبوذة أعوزتها فيهما السلطة وأحاطها مقت المجتمع ، فأعلنوا مبدأ التسامح ، وصرحوا بأن المعتقد الديني أمر اختياري لا سبيل إلى إكراه الناس عليه ، فلما تمكن دينهم ، واستبد بقلوب الناس ، وأيدته الدولة بقوتها ، تنكروا لمبدأ التسامح ، وفرضوا رقابتهم على آراء الناس في الكون وظواهره وأسراره ، ثم شرعوا في وضع سياسة محددة لقهر الفكر وكبح العقل ، وسلم الامبراطرة والحكومات بهذه النزعة ، لأسباب بعضها سياسية ، وأخذ المسيحيون يبشرون بنظرية مؤداها أن « الخلاص ، لا سبيل إليه إلا عن طريق الكنيسة الكاثوليكية وحدها ، وروّجوا للإيمان بأن الذين لا يستسلمون للكنيسة ، ويعتقدون بصحة نظرياتها تحقيق بهم اللعنة الابدية لا محالة ، فأفضى هذا الاعتقاد بطبيعة الحال إلى الاضطهاد ، والتشكيل بكل من جنح عما اعتمده الكنيسة من آراء ، واعتبرت الهرطقة (الإلحاد) أعظم خطيئة ، لا يقاس ما يبتلى به أصحابها في الدنيا من صنوف الآلام ، بما ينتظرهم من عذاب الجحيم ، وأضحى إنقاذ الدنيا من أعداء الله واجبا مقدسا ، والاتصاف بالفضيلة لا ينهض عدرا للسروق ، فإن الطفل على براهته وخلو ساحته من كل خطيئة ، متى مات من غير تعמיד ، قضى بقية حياته في جهنم ، فالطبيعي بعد هذا أن يستهدف المتهمون بالمروق من أهل

الفكر لأشد صنوف العذاب ، فلنتبع تطور هذه النظرة في الجو الكنسى .
كان اعتناق المسيحية في القرن الثالث لا يزال محرماً (١) ، ولكن أهلها
كانوا يعيشون في أمن لا ريب فيه ، فشرعت الكنيسة تنظم نفسها في هذا
الجو الآمن دون تخفّ أو تستر ، وتمكنت المجمع الإكليريكية من تنظيم
اجتماعاتها ، دون أن تخشى تدخلا من السلطات (٢)

خلا تاريخ المسيحية في قرونها الثلاثة الأولى من كل أثر لاضطهاد رسمى
تنزله بخصوصها ، لأن السلطة تعوز رجالها ، بل بشرآبأؤها الأول بمبدأ التسامح ،
وصرح أمثال أوريجان Origen (٢٥٤ ؟) ولاكتانتوس Lactantius (٣)
(+ ٣٤٠ ؟) برفضهم لفكرة الاضطهاد

والواقع أن الأصل في المسيحية أنها تدعو الناس إلى أن يُحبّ بعضهم
بعضاً ، ومن هنا جاء نفور رجالها الأول من عقوبة الإعدام ، وكان تحريم
ترتليان Tertullian ولاكتانتوس قتل المسيحي رقيقاً له ، أيا كانت ظروف
هذا القتل ، وكانت الهيئات الدينية كلباسلت مذنباً للسلطات المدنية ، توصلت
إليها ألا تلجأ إلى إعدامه ، ولكن الكنيسة حين بدأت تظفر بالسلطان ،
قد غيرت سنن شريعته على نحو ما سنعرف بعد قليل .

وفي مطلع القرن الرابع انتهى الاضطهاد بصدور مرسوم عام ٣١١ م
يقضى بالتسامح ، ثم أصدر قسطنطين فرمان ميلان ، الذى أعلن فيه نفس المبدأ
الذى يقضى بالتسامح ، واعتنق المسيحية بعد عشر سنوات من صدور هذا

(١) في عهد تراجان وضع المبدأ الذى يقول : إن اعتناق المسيحية لثم عقوبته الاعدام
ولكن الامبراطرة قد نزعوا إلى استئصال المسيحية دون لاهراق الدماء ، وحالات الاعدام
التي عرفت في القرن التالى ، ادى إليها بوجه عام تعصب الدماء .

(٢) ولكن المسيحيين استندوا إلى حالات إعدام قليلة واخترعوا أسطورة صوروا
فيها فظاعة الامبراطرة وروعة الاستشهاد من أجل الدين ، فيما يقرر الاستاذ يورى الذى يلتمس
الاعذار للامبراطرة في اضطهاد معتنقى المسيحية .

(٣) يسمى شيشرون المسيحي .

الفرمان — عام ٣٢٣ م — فبدأت بهذا القرار الخطير ، عشرة قرون شداد ، استُعبد فيها العقل الأوربي ، ووقف تقدم المعرفة ، فسنت القوانين لمحاربة الهرطقة والتسكيل بدعاتها ، في عهد فالنتينيان الأول Valentinian (في النصف الثاني من القرن الرابع) وتيودوسيوس الأول Theodosius I (+ ٣٥٩ م فاستهدف الملحدون للنفي ، وسلبوا حقهم في الوراثة ، وتعرضت أملاكهم للمصادرة ، وأضحوا عرضة للإعدام في بعض الحالات ، وبدأ الإعدام في نهاية هذا القرن (عام ٣٨٥ م) عند ما أدين الملحد الاسپاني « بريسييليان » Priscillian وأعدم بأمر الأمبراطور ماكسيموس Maximus ، فأثار إعدامه جدلا عنيفاً ، وغضب لهذا بعض القديسين من أمثال القديس مارتن (من أهل تور) رغم حماسه في تحطيم تماثيل الوثنيين ، والقديس امبروز رغم نشاطه في قمع عبادة الوثنيين واليهود ، واحتج هؤلاء على القساوسة الذين تسببوا في إعدامه ، وطالب القديس Chrysostom بإباحة حرية الكلام ، والإذن للهرطقة بتنظيم مجالسهم ، وصرح بأن إعدام الملحد إقرار بارتكاب جريمة لا سبيل إلى غفرانها أو التكفير عنها .

وفي النصف الثاني من القرن الرابع ظهر عاملان كان لهما خطرهما في تأييد سياسة الاضطهاد : أولهما أن الكثير من مجالس الأكليروس قد طلبت إلى السلطات المدنية معاقبة الهرطقة أو نفيهم ، وكان لقراراتها أثرها الملحوظ في مسلك الحكومة إزاءهم ؛ وثانيهما استقرار نظام الرهبنة ونموه ، وقد دعت الرهبنة إلى إنكار الذات ورفض الترف والتحرر من المطامع والأهواء واحتقار الرغبات واللذات ، والاعتصام بالتعصب الصارم والشجاعة المجيدة والميل إلى تعذيب الجسم رغبة في التكفير عن الخطايا . . . والرهبان هم الذين حطموا تماثيل الوثنيين وأبطلوا عباداتهم في الامبراطورية الرومانية ، وانتهى هذا بشيوع الروح الديني وخلو العالم المسيحي من مظاهر الاضطهاد عدة قرون .

وفي مطامع القرن التالي تمكن نظام الاضطهاد على يد القديس أوغسطين

+ ٤٣٠ أوسع آباء الكنيسة نفوذاً وأعلام صوتاً ، إذكادت تجتمع عند شروحه للنصوص المقدسة كلمة الذين عرضوا لتفسيرها بعد ، والاستشهاد به كثيراً ما يكون فصل الخطاب ومحك الصواب ، لأن أقواله قد ارتفعت بعده إلى مرتبة القداسة ، بهذه الصولة صاغ أوغسطين مبدأ الاضطهاد ، لهداية الأجيال التالية ، وأقامه على أساس من الكتاب المقدس ، فاستند إلى كلمات فاه بها يسوع المسيح في مثل من أمثاله التي كان يسوقها لحوارييه إذ قال : « أجبروهم على اعتناق دينكم » . ومضت الكنيسة بعد هذا لمحاربة خصومها وتمشياً مع هذا المنطق سلم « أوغسطين ، بمعاينة الملحد بالنبي والجلد وفرض الغرامات ، ووضع للكنيسة دستوراً تلتزمه إزاء كل حركة عقلية ، فصرح في كتابه « تعليقات على سفر التكوين » ، بأن ليس في الوسخ التسليم برأى لا تؤيده الكتب المقدسة ، لأن سلطانها أقوى من كل سلطان أمر به العقل البشري *major est scripturae auctoritas quam hominis humani ingenii capacitas*»

فضت الكنيسة بعده تعمل جاهدة لقمع الهرطقة وجندلة دعائها ، وكان لموقف هذا القديس أبلغ الآثار في عرقلة النظر العقلي ووقف التقدم العلمي ، كما ستعرف بعد (١) ومنذ هذا الوقت أصبح الكتاب المقدس أساس العلم ومصدره . وبعد مئات هذا القديس يبضع عشرات من السنين ، صدرت — بأمر قسيس روما — أول قائمة بالكتب التي حرمت قراءتها على المؤمنين وهي :
"Notitia Librorum apocryphorum quae non recipiuntur"

وتولى البابا Gelaius تنقيحها (عام ٤٩٤ م) في عدة مناسبات .

(١) ومن طريف المفارقات أن ينال رب الاضطهاد ثمرة غرس يده ، ويتجرع من الكأس التي أهداها لغيره ، فيظهر بعد مائة بأحد عشر قرناً لاهوتى يسومى (Suarez) يضيق بموقف القديس أوغسطين من الخلق وعدم التزامه للعنف الحرفى للنصوص المقدسة ، فيعلن اتهامه بالهرطقة . . وقد لحصنا موقفه عن « هوايت » و « بيورى » وقد دلل على هذا الموقف « دواير » فعرض في كتابه مختارات من « اعترافاته » في دراسته لسفر التكوين ، أدت إلى جعل اللاهوت في عداوة مع العلم (أنظر ص ٥٨ وما بعدها من كتابه) .

وفي إبان هذه الفترة (٤٧٦ م) قوض البرابرة الدولة الرومانية الغربية ، فزادوا الحياة العقلية اضمحلالا ، ومكنوا للجهالة وكادوا يقضون على ما كان معروفا من تراث اليونان ، وعندما أقبل القرن التالي — السادس — كانت الجامعات تشرف على الاحتضار ، وكان چستيان يضطهد الوثنية ويطارد أتباعها ، فأصدر أمره عام ٥٢٩ م بإغلاق مدارس الفلسفة جميعا ، وتوارت من الوجود جامعة أثينا ، وإن بقي تراثها في ذمة التاريخ . وإغلاق هذه المدارس — مع اضمحلالها — دون العمل على إحيائها ، وإنعاش الدراسات العلمية بها ، شاهد ينهض للتدليل على عداوة الروح المسيحي للعلم والفلسفة منذ قيام الدين الجديد . فقد كان بعض القدماء من رجاله — أمثال ترتليان — لا يقنعون بالجهر بأن إيمانهم مجرد من كل صبغة فلسفية ، بل يكادون أن يفاخروا بذلك ، وعلى الرغم من استغلالهم الجدل الفلسفي في رد حملات خصومهم ، وتشبع بعضهم — كالقديس أوغسطين — بالأفلاطونية والأفلاطونية المحدثة وغيرها مما يسائر الروح الديني ، فإن موقف المسيحية إزاء العلم والفلسفة كان موقف احتقار صريح فيما يقول ولف A. Wolf .

وقد تجلّى هذا العداوة في الشرق كذلك — فيما يقول درابر — ففي عام ٣٩٠م حطم إحدى مكاتب الاسكندرية أحد المطارنة تيوفيلوس Theophilus وبعد قرن كامل وقع حادث وحشي مفرع ، ذلك أن «هيپاتيا» Hypatia ابنة الفلكي طيون Theon كانت من المشتغلات بتعليم الرياضة والفلسفة ، وعرض مذهب أفلاطون وأرسطو بوجه خاص ، وكانت قاعة درسها تكتظ بأثرياء الاسكندرية وأكابرها ، كانوا يختلفون إلى قاعتها ليستمعوا إليها وهي تبحث في هذه الموضوعات التي أثارت الجدل منذ زمان على غير طائل : من أنا وأين مصيري ، وماذا في استطاعتي أن أعرف ؟ فضاقت بهذا القديس سيريل Cyril وهو ابن أخت تيوفيلوس الذي أسلفنا ذكره ، فأثار عليها الشعب بتعصبه، فتربص بها بعض الدهماء من المسيحيين وانقضوا عليها وهي في طريقها

إلى قاعة درسها وجردوها عن ثيابها وحملوها إلى كنيسة ثم مزقوا جسمها إرباً إرباً ، وجردوا اللحم عن العظم وألقوا ما بقي منها إلى النار ١ ويقول درابر Draper أن سيريل لم يُسأل عما فعل ، وكانت الغاية مبررة لأبشع الوسائل .
ومضت الكنيسة في هذا التيار ، حتى إذا انتصف القرن الحادى عشر ، طالب القديس Theodivrn of Liège باستخدام السلاح الديوى في معاقبة الملحدين ، وفي القرن التالى احتج بطرس المغنى على عقوبة الاعدام ، وأبى التسليم بغير السجن على أكثر تقدير ، ثم اتفق البابا لوكيوس الثالث . Locius III وفرديك برباروسا - عام ١١٨٤م - على مطاردة الملحدين ، ونفيهم ومصادرة أملاكهم وهدم بيوتهم وسلب حقوقهم المدنية . ثم أصدر بطرس الثانى ، عام ١١٩٧ قراراً باحراق الملحدين إذا لم يغادروا مملكته - أراجون - فى مدة محددة ، وقوى البابا انوسنت الثالث حركة الاضطهاد ، فنجح فى عام ١١٩٨ فى حشد الأمراء - الديويين - لمعاونة الكنيسة فى التشكيل بخصوصها ، فأقر محاكم التفتيش عام ١٢٠٨ ، فهضمت بأداء مهمتها الآثمة على النحو الذى عرفناه فى الفصل الأول ، وهو مع خلفائه الذين رسموا خطة منظمة لسحق الملحدين واستبعادهم من العالم المسيحى ، وفى عام ١٢٠٩ بدأ دى مونفورت فى مذبحه الالبيجيين ، وفى عام ١٢١٥ طلب مجلس لاتران الرابع إلى جميع الحكام أن يقسموا غير حائثين أن يبذلوا أقصى ما فى وسعهم لاستئصال الهرطقة فى أقاليمهم وإبادة أهلها فى غير رفق ولا رحمة .
حسبنا هذا إشارة مقتضبة لوجهات النظر التى أدت بعدد إلى الحد من طلاقه العقل والتضييق على التفكير الحر ، ولنعرض لموقف العقل إبان هذه العصور :

مسألة العقل للكنيسة فى العصور المظلمة :

منذ تهاى للكنيسة هذا الحول والطول ، والعقل الأوربى على شفا الاحتضار ، يعوزه الإبداع وتنقصه أصالة التفكير ، فيردد بعض ما انحدر

إليه من تراث القدامى ، منساقاً في ركاب الكنيسة ، يسبح بحمدها ويكبّر
لسلطانها ، ويبشر بتعاليمها ، فلبث الجو بينهما على صفاء ، حتى دبت فيه اليقظة
وواتاه النضج ، واستشعر الضيق لاستبعاد الكنيسة له ، وتأهب للتمرد على
سلطانها ، فأذن هذا التغيير باكفهرار الجو وتوتر العلاقات ، فلنفسر
هذا قليلاً :

كان بعض آباء الكنيسة يشتغلون بالفلسفة قبل اعتناقهم الدين الجديد ،
فاتجهوا منذ العصور الأولى إلى استغلال الفلسفة لخدمة الدين وتأييد عقائده ،
وإذا كان النظر العقلي عند اليونان قد تحرر من كل قيد ، لأن اللذة العقلية
كانت جماع بواعثه ، واكتشاف الحقيقة كان أقصى غاياته ، وإذا كان الرومان
قد احتضنوا هذا النظر لخدمة الأغراض العملية ، فإن مفكرى المسيحية منذ
عصورها الأولى ، قد جنحوا إلى رفض هاتين النزعتين ، فاعتبروا نزعة اليونان
ترفا لا طائل تحته ، ونزعة الرومان حرصاً على الدنيا التي بشرت المسيحية
بالاستخفاف بها إيثاراً للأخرى ، ومن أجل هذا وجهوا نشاط العقل إلى
خدمة الدين ، فسلك المتفلسفة في أوروبا المسيحية مسلك المتكلمين في الإسلام ،
أقاموا منهج البحث على أساس البدء بالاعتقاد بصحة ما نزل به الوحي ، ثم
استخدام العقل في محاولة تأييده والبرهنة على صحته ، على عكس ما يقضى به
منهج البحث عند الفلاسفة والعلماء معاً ، من عدم التسليم برأى ما ، إلا بعد
إقامة البرهان على صحته بالنظر العقلي الحر ، أو الاختبار التجريبي ، وعند
هذا المنهج الكلامي انعقد الرأى عند فلاسفة العصور الوسطى — من
أفلاطونيين كأوغسطين وأنسلم ، وأرسطاطاليسيين كألبيير الكبير وتوما
الأكوينى — وفي هذا يقول چاينيه وسيباى : إن الفلسفة منذ عصور المسيحية
الأولى كانت متضمنة في تكوين العقيدة الدينية ، وقد جدّ الفلاسفة في العصور
الوسطى ، في التوفيق بين العقل والايان ، لكي يجعلوا سلطة العلم القديم ،
وسلطة الدين الجديد على وفاق واتساق ، وكانوا ينزعون إلى البرهنة على أن

الحقائق التي نزل بها الوحي الإلهي ، تسائر منطق العقل ، ومن ثم تكون قوانين المادة والعقل وطبيعة الانسان وقوانين منطقته متضمنة كلها في المسيحية ، وكان هذا مطمح كبار المفكرين في هذه العصور ، فالقديس أنسلم + ١١٠٩ - كبير الأفلاطونيين في العصر المدرسي - يرى أن الإيمان ضروري للعقل ، بل شرط لصحة التفكير وسلامته ، والقديس توما + ١٢٧٤ - كبير المشائين وزعيم اللاهوتيين في هذا العصر - يذهب إلى التمييز بين مجال العقل وميدان الايمان ، ويجعل وظيفة العقل تهية الطريق إلى الايمان ، وإرشاد الناس اليه ، ويقرر بأن الحقائق التي يقدمها الايمان ، لا يقوى العقل على التدليل عليها ، ففي استطاعة العقل أن يتصور وحدة ماهية الله Essence ولكنه لا يستطيع أن يدرك تثليث الأقانيم ، ومن دلل على عقيدة التثليث في الأقانيم حقر من شأن الايمان .

ورأى أن الفلسفة تمتاز من الدين في المنهج كذلك ، إن منهجها يقوم على البرهان العقلي ، ومنهج الدين يستند إلى الوحي الالهي . ولكن القديس توما مع اقراره بهذا التمايز قد عاجل التوفيق بينهما ، وإن أوجب على العقل أن يتقيد بالوحي ، لأن تجاوزه نطاق الوحي ، دليل على فساد تفكيره .

وإذا كان العقل لا يقوى على التمكن لحقائق الايمان ، ففي وسعه أن يدحض الاعتراضات التي توجه اليها ، وقد بدا «توما» في فترة من الزمن ، وكأنه نجح في التوفيق بين العقل والايمان ، ولكن وليام أوكام W. Occam باعث المذهب الاسمي في القرن الرابع عشر - قد أعلن أن كل ما كان وراء التجربة ، لا يدخل نطاق العقل ، ومن ثم يكون موضوعا للايمان (١) ومن هذا نلاحظ ما أسلفناه من قبل ، من أن محاولة التوفيق بين العقل والايمان -

P. Janet et G. Séailles: L' Histoire des Problèmes de la Philosophie (١)

وقد نشر هنري چونس أستاذ الفلسفة الخلقية في جامعة جلاسجو ترجمة انجليزية للشرط الأول من الكتاب في جزئين ترجمتهما إدا موناهان . والفقرة للقبسة ص ٩ - ١٠ في النسخة الانجليزية .

عند فلاسفة العصور الوسطى - كانت تقوم على إخضاع الأول للثاني ،
وتسخيره لخدمة الحقائق التي نزل بها الوحي ، لا لبحثها وتعرف وجه
الحق فيها .

وهكذا انصبّت الدراسات الفلسفية في شتى صورها في قوالب لاهوتية
محضنة ، وحتى العلوم الطبيعية - وكانت مذابة في الفلسفة - كانت فيما يقول
هوايت موضع استخفاف ، مالم تسخر لإقرار ماجاءت به الكتب المقدسة ،
وغاية البحث عند أهلها هي الكشف عن جلال الله ، وروعة حكمته البادية في هذه
الخليقة ، وكانت النصوص المقدسة ، مصدر التفكير في العالم الطبيعي ، أكثر
من عشرة قرون من الزمان ، ووجه الطرافة في هذا ، استمرار هذه النزعة ،
وتجاوزها العالم الكاثوليكي فيما بعد إلى البروتستانت الذين انشقوا على
الكنيسة الكاثوليكية ، وهذا يفسر لنا استخفاف الكنيسة الأولى بعلم الهيئة ،
إذا لم يحقق غرضاً دينياً ، وفي موقف القديس أوغسطين منه ، شاهد عدل
على ما نقول . وسرعان ما اتصل الدين بموضوع العلم والفلسفة ، فاتصلت
فكرة الخلق بنظرية الفداء في المسيحية ، وأفضى هذا إلى استبعاد علم طبقات
الأرض ، وعلم الحيوان وعلم الانسان ، من ميادين البحث الحر واعتبرت
الحقيقة متضمنة في ظاهر النصوص المقدسة ، وتكفل تفسيرها بهداية الناس
إلى وجه الحق فيما يبحثون ، فأدى هذا إلى الأخطاء الجسيمة التي سنعرض
ليانها في الفصول التالية .

على أن من الإنصاف أن نقول مع د بيوري ، إن الأوضاع الاجتماعية
في العصر الوسيط كانت لاتلائم الروح العلمي الذي ينزع إلى اكتشاف الحقيقة
لذاتها ، ولم يكن من المعقول - فيما يبدو في نظر بيوري - أن يبعث العلم
من جديد لو ظلت هذه الأوضاع الاجتماعية قائمة في القرن الثالث عشر وما
بعده . ومعنى هذا أن العقائد التي كانت سائدة في المدة التي تفصل الحضارة

الحديث عن الحضارة القديمة ، لم تكن السبب في إعاقة إحياء العلم وابتعائه ، وكل ما تحمله هذه العقائد من تبعات ، إنما يقوم في العوائق التي أقامت في وجه العلم حين همّ بالانبعاث والظهور من جديد .

برء النزاع بين العقل والسلطة :

هذا هو الجو الذي عاش فيه العقل الأوربي إبان عصر الآباء ، وشطراً من العصر المدرسي ، فلما أقبل القرن الثاني عشر ، أفاقت أوروبا المستغرقة في سباتها الآمن ، على دعوة جديدة لا تسير روح العصر ، نادى بها « أيلارد ، وطالب فيها بتحرير العقل من كل قيد ، واعتباره الحَكَم الذي يفصل في كل رأى ، ويعرض بالمناقشة الحرة حتى لحقائق الوحي المنزل ، وتعاليم الكنيسة المقدسة .. وبهذا أقام البحث اللاهوتي على أساس من منطق العقل ، ورفض كل ما لا يتمشى مع منطق دعوته ، فسخر من آلام المسيح لقاء رحمة الله وغفرانه ، وعزا تألمه إلى حبه لله ورغبته في أن يرد الناس إلى طاعته والاعتراف بجميله ، وتمادى فوضع كتابه « نعم ولا Sic et Non وعرض فيه بآباء الكنيسة . وعرض إلى عقيدة التثليث في الأقانيم ، فأولها تأويلاً يساير منطق العقل ، وهال رجال الدين مارأوه من كلف الناس بدعوته ، وتهاقهم على الاستماع لمحاضراته ، فصدوا لمقاومته . واضطلع القديس برنارد St. Bernard of Clairvaux باثارة الرأي العام في وجهه ، وكان هذا القديس يستلمهم الانجيل في دفاعه ، وينساق في خصومته بوقدة الايمان الذي كان يعمر قلبه ، فأذعن للنهج الديني وأعلن أن الحقيقة الالهية لا يتكشف عنها عقل ولا ظن ، وإنما تصدر عن الوحي الذي يهدى العقل سواء السبيل ، فأنهم أيلارد بالهرطقة وانعقد محاكمته بجمع سواسون Soisson عام ١١٢١ ، وأدان الجمع رأيه ، وقرر إحراق كتابه — الذي تناول فيه عقيدة التثليث ، وأستدعى أيلارد

وأكره على إلقائه في النار بيده ، ثم سجن في دير St Médard في سواسون .
ولسكنه عاد إلى مواصلة بحثه في حدود منهجه العقلي ، ونجح القديس برنارد
في عقد مجلس محاكمته في Sens عام ١١٤١ ، فخف أيلارد إلى روما
مستنجداً بالبابا ، ولكن خصمه قد كشف عما تتضمنه آراؤه من بدع ،
وتمكن — في العام التالي — من استصدار قرار بأدائه ، ووافق البابا على
حرمه مع تعاليمه ، وإلزامه الصمت بعد ذلك .

لقي أيلارد عنتاً كثيراً ، ولسكنه لفت العالم الأوربي إلى نداء العقل ،
ومهد الطريق لسلطان أرسطو الذي علابعد بماته بنحو نصف قرن من الزمان ،
ولسكن قصة غرامه مع هيلويز قد فتنت العالم وصرفته عن فلسفته ، فلبث
مجهولاً حتى كشف عنه كوزان Cousin عام ١٨٣٦ حين نشر «Ouvrages
inédit d'Abelard» آثار غير معروفة لأيلارد .

هذا ما لقيه أول من دعا لتحكيم العقل في أوربا ، فجرت الفلسفة في عصرها
الحديث على دعوته ، وفي القرن التالي ، نهضت في أوربا دعوة جديدة لم تكن مألوفة
عند أهلها ، هي الالتجاء إلى التجربة ، واستقاء العلم من معينها ، وعدم الركون إلى
الكتب والمراجع^(١) وفي ضوء هذه الدعوة ، جرى العلم الطبيعي في عصرنا
الحديث ، أما صاحب هذا الاتجاه الجديد ، فهو روجر بيكون ١٢٩٢ وهو

(١) جدة الدعوة ملحوظ فيها الزمن الذي قيلت فيه ، وإلا فقد عرفت من قديم الزمان ،
فأرسطو على وجه أخص ، قد دعا إليها ومارسها ، قال في كتاب السياسة « لا ينبغي أن
يطلب الضبط من الاعتبارات النظرية المجردة بقدر ما يكون في مشاهدات الحوادث الواقعة
تحت الحس » وقال أيضا « وهناك في كل موطن آخر ، الصعود إلى مبدأ الأشياء والعناية
بتتبع تطورها هو آمن طريق للمشاهدة » ومن هنا اعتبره إمام الفلسفة الوضعية « أوجست
كونت » أول من بدأ بنقل التفكير الفلسفي من طوره اليتافيزيقي إلى طوره الوضعي . فيما
قرر في الجزء الأول من دروسه في الفلسفة الوضعية وفيما أشار أحد لاطي السيد باشا في تصديره
للأخلاق ص ١٧ بل لأنه لا يكتفى بإيثار الاعتماد على الحواس أكثر من الاعتماد على
الاستنتاج ، بل قرر عدم الثقة بالاستنتاجات إلا متى طابقت الحقائق الملاحظة ، لأنه أوجب
التحقق من صدق الفروض بالرجوع إلى هذه الحقائق ، وقيل إن في كتبه لفتات منثورة
جمعت مبادئ المنطق الاستقرائي الحديث كله . . .

راهب فرنسيسكاني صيغ عقله من روح عصره ، ولكن له لفتات سبقت زمانه، منها الثورة على الجهل والتمرد على تحكم السلطات والدعوة إلى التجربة العلية، وقد أفننت به دراسته للغة العربية ، إلى الإعجاب بتراث أهلها ، والنفور من طريقة الجدل الأرسطاطاليسية ومهاجمة الاعتماد على التأمل العقلي وحده، وبهذا أبطل المنهج النظري ونزع الى الاحتكام إلى التجربة في كل معرفة نستقيها من الطبيعة ، واهتدى إلى الكثير من المخترعات وعرف الروح العلي الصحيح ومال إلى الكشف عن مغالطات السحرة وأضاليلهم واشتد في حملاته على معاصريه من الفرنسيسكان والدومينكان والعلمانيين على السواء ، فأثمهم بمزاولة السحر ، وانعقد بجمع فرنسيسكاني وقرر « حرم » كتاباته مع حبسه في غرفته ، فلبث سجيناً من عام ١٢٧٧ إلى ١٢٩٢ م . وبماتته كادت تموت دعوته إلى التجربة ، حتى اذا أقبل عصر النهضة ، وأشرف العصر الحديث ، استيقظت حماسة الترويج لها في رواد الفكر الحديث ولا سيما خلفه وسميه في الاسم : فرنسيس على نحو ما سنعرف بعد .

على أن روجر — رغم هذه اللفتات الطيبة — لم يكن إلا نتاج عصره ، لا رائداً لحرية التفكير ، ولا نائراً على الروح المدرسي كله — فيما يقول D. A. Sharp — لا يتردد في الاعتقاد بحجر الفلاسفة والايان بعلم النجامة 1. ولهذا قال عنه فولتير : ذهب وقد رانت عليه جميع أقدار عصره . .

أما عن موقف الكنيسة من أرسطو ، إبان العصر المدرسي — فلا ينبغي أن نمر به ، دون أن نقف عنده ، وأن نطيل الوقوف قليلا ، لأن الكنيسة قد اعتنقت أرسطو — الذي بدا بعد مسيحياً — مذهباً رسمياً لها ، وأقامت على هذا ، منذ ذلك العصر حتى يومنا الراهن ، وترتبت على هذا آثار لها خطرها الملحوظ في تاريخ النزاع بين الدين والفلسفة .

أوربا بين الطابع الأرسطوني والأرسطاطاليسى :

منذ عصور المسيحية الأولى، والفلسفة موضع نفور عند بعض المسيحيين ،

تولوا منذ القرن الثاني مناهضة الاشتغال بها ، وإثارة الرأى العام ضد أهلها ، وآتت دعوتهم ثمراها حتى علت راية العقل حديثاً ، وطمست نفوذ هؤلاء الخصوم ، ولكن تاريخ الفكر قد سجل إلى جانب هذا التيار ، تياراً مضاداً بدأ عند آباء الكنيسة الذين كانوا يشتغلون بالفلسفة قبل اعتناقهم الدين الجديد ، فواصلوا الانتصار لها ، واستغلال أساليبها ومذاهبها فى تأييد العقيدة الدينية والتمكين لتعاليمها ، ومقاومة الوثنية وحملات رجالها ، وكانت الأفلاطونية القديمة والمحدثه - أكبر عون لهم فى هذا الجهاد الدينى ، وانتصر هذا الاتجاه فى العالم الأوروبى منذ عصور المسيحية الأولى ، وكان مردّ الانتصار إلى انطواء الأفلاطونية على نزعات روحية لا تبدو فى غيرها من المذاهب على هذا النحو من الوضوح ، وهى نزعات تُيسّر قبول المسيحية ، وتمهد للتوفيق بين الدين والفلسفة ، وقد كان علم هذا الاتجاه القديس أوغسطين + ٤٣٠ الذى طبع التفكير الأوروبى بطابعه الأفلاطونى حتى القرن الثانى عشر ، وهكذا جهل العالم الأوروبى تراث أرسطو منذ بداية المسيحية ، بل انصرف عن دراسته باعتباره طبيعياً ملحداً ، وإن سلم بما عرف من مباحثه فى المنطق منذ القرن الخامس والسادس لليلاد (١) . ولبت العالم الأوروبى على هذا حتى أقبل القرن الثانى عشر وانتقل إليه تراث أرسطو فى الطبيعة والأخلاق والميتافيزيقا وعلم النفس ، وذلك حين اجتاحت قوات ألفونس السادس - أمير قشتاله - مدينة طليطلة عام ١٠٨٥ م (٢) . وأنشأ المونسنيير ريموند

(١) يقول جيوم إن أحداً من أهل الغرب لم يخطر له أن أرسطو كان فيلسوفاً حتى جاء زمن جنديزاقس ، وكانت ترجمة Boethius للقولات والعبارة وأبحاثه فى المنطق كل ما بلغ أوروبا من علم أرسطو حتى عام ١١٥٠ تقريباً (تراث الإسلام ٢٣٩ فى ترجمتنا لفلسفة والاهليات) .
(٢) وسرعان ما اصطبغ بلاطه المسيحى اسماً بالثقافة الاسلامية ، فأعلن نفسه « امبراطور القديسين » وحج إلى طليطلة طلاب العلم من كل أنحاء أوروبا وأضحت طليطلة مدرسة لترجمة من اللغات الشرقية كما يقول J. B. Trand فى مقاله عن أسبانيا والبرتغال فى « تراث الإسلام » من ترجمة صديقنا الدكتور حسين مؤنس ص ٥٤ - ٥٦ وراحت مكتبة مسجد ما مثابة للعطاء فيما يقول ابرانت باركر E. Barker فى مقاله عن الحروب الصليبية فى الكتاب السالف من ترجمة صديقنا الأستاذ هلى أحمد عيسى ص ١٠٨ .

Raymund كبير أساقفة المدينة - بين سنتي ١١٣٠ - ١١٥٠م - ديوانا لترجمة الكتب العربية في الفلسفة ، على يد مترجمين من اليهود ، وأمر رئيس الشمامسة السالف الذكر دومنيك جنديزالفس D. Gundisalvus أرشيدوق سيجوفيا (١) ويوحنا أفنديث الأشبيلي Juan Avendeth بترجمة التراث الفلسفي الإسلامي ولا سيما ما خلفه ابن سينا ، ثم تكفل الديوان بعد هذا بترجمة الفارابي والسكندي ، وفي النصف الأول من القرن الثالث عشر ، تولى ميخائيل الإيقوصي Micheal the Scot ومن حذا حذوه ترجمة تراث الشارح الأعظم ابن رشد تحت رعاية الأمبراطور فردريك الثاني الذي اتصل بالعالم الإسلامي في حروبه الصليبية ، ومهر في العربية واستخفه الإعجاب بفلاسفتها ، ففاق لنقل تراثهم إلى اللاتينية والعبرية . وعلى هذا النحو عرفت أوروبا فلسفة أرسطو منقولة إلى اللاتينية عن كتب شراحه ومفسريه من المسلمين ، واستطاع مفكرو أسبانيا أن يقدموا للغرب تراثه قبل أن تنتعش فيه الدراسات الإغريقية بعدة قرون ، وأضحت ترجمتهم مرجعاً للعلم في القرن الثالث عشر . وقد انتقل أرسطو إلى أوروبا عن غير أسبانيا ، لأن الحروب الصليبية حين ربطت المسيحية اللاتينية بالدولة البيزنطية والمسيحية اليونانية - فوق ربطها بالشرق الإسلامي - قام وليم المورييكي W. of Moerbeke - بطريق كورنثة الفلمنكي وزميله هنري البربنوتي Henry of Brabant - بنقل كتابي الأخلاق والسياسة لأرسطو بمساعدة القديس توما - في القرن الثالث عشر - وفي نهاية القرن الرابع عشر ، وفي خلال القرن التالي له حمل علماء بيزنطة إلى إيطاليا التراث اليوناني كاملا وغذوا به النهضة الإيطالية ، فيما يقول ، إيرنست باركر .

وعلى هذا النحو استحوذت أوروبا على خلاصة الفلسفة الأرسطاطاليسية ، أي على دائرة المعارف القديمة ، وما اتصل تراثه بأوروبا حتى ضاق به رجال

الأكليروس ، لأن اسمه كان لا يزال موضوعاً بالإلحاد ، وإذا كان مذهبه في نظرهم لا يساير تعاليم الكتاب ، وعندئذ جد رجال الأكليروس في مقاومة آرائه الطبيعية والميتافيزيقية ، إذ لم يكن ثمة مسيحي مؤمن ، يرضى عن رأيه في الله وصفاته وموقفه من العالم وخلود النفس ونحو ذلك .

ولكن بعض المتفلسفة من المسيحيين قد جدوا في التوفيق بين مذهبه وتعاليم الكتاب ، ولم ينتصف القرن الثالث عشر حتى تكفل ألبر السكبير + Albertus Magnus ١٢٨٠ والقديس توما الأكويني St Thomas Aquinas + ١٢٧٤ بالانتصار لتراثه وإبدائه في صورة مسيحية عقلية ، ضاقت بها الكنيسة أول الأمر ثم رضيت عنها واعتمدت القديس توما مذهباً لها ، فانحصرت في أرسطو بعد هذا فلسفة المدرسين ، واعتنقه العالم الكاثوليكي ديداً إلى جانب دينه ، أو اعتبره صورة عقلية لدينه المنزل ، فاتهم بالإلحاد كل من خرج على ما اعتمدته الكنيسة من آرائه ، فكانت هذه هي السلطة العقلية ، التي يتحدث عنها مؤرخو الفلسفة كثيراً ، وأخص ما يميزها تقيد المفكرين بما قال أرسطو ، وسخط الكنيسة - والعالم الأوربي من ورائها - عنمن ينتهي إلى غير ما قرر من رأى ، ومطاردة الذين يبشرون بفسكرة لم ترد في تراثه ، أو لا تكون على اتفاق مع ما ارتأى من قبل ، وسوف نرى فيما يلي من بحثنا ، أهم الآثار الخطيرة التي ترتبت على هذه السلطة العقلية ، وكان لها أكبر الخطر في تاريخ النزاع بين الدين والفلسفة .

موقف الأكليروس اليهودي منه أرسطو :

حمل اليونان مشعل الفلسفة عدة قرون من الزمان ، ثم خبا النور في أوربا منذ عصور المسيحية الأولى ، فحمل المسلمون القبس في العصر الوسيط ، ثم ملهوه إلى بني إسرائيل ، وملهه هؤلاء بدورهم إلى المسيحيين في أوربا إبان العصر المدرسي ، فلنتحدث في إيجاز عن موقف الأكليروس اليهودي من أرسطو ، ثم نعقب عليه بالحديث عن موقف الأكليروس المسيحي :

مثل ابن ميمون في اليهودية دور القديس توما في المسيحية ، وابن رشد في الإسلام ، من حيث محاولة التوفيق بين الدين والفلسفة ، وانتهى إلى القول بأن العالم غير قديم ، وأول ما ورد في سفر التكوين بشأن الخلق ، فقال إن المراد ترتيب الكائنات بعد خلقها ، وصرح مع هذا بأن القول بقدم المادة لا يعتبر كفراً ومضى في هذا الاتجاه طويلاً ، فاتهم بالكفر والتعطيل - فيما يقول المقرئ - وأخذ الأكليروس اليهودي في مقاومة فلسفته واضطهاد أشياعها ، فاضطر الكثيرون منهم إلى مغادرة الأندلس والانصراف عن العربية ، ونقل ابن رشد ومن اليه إلى العبرية واللاتينية ، وتولى فردريك الثاني تشجيع هذه الحركة ورعاية رجالها ، ولكن هذه النهضة قد تكشفت عن آراء لا تسائر الشريعة اليهودية من استحالة الخلق من عدم ، وقدم المادة ونحوها مما حاول فلاسفة اليهود أن يؤسّروا الشريعة بحيث تسائر هذه المذاهب الفلسفية ، أي أنهم حاولوا - كفلاسفة ، وعلى عكس ما يفعل المتكلمون - إخضاع الدين للفلسفة في عملية التوفيق - وهو منهج ابن رشد ومن اليه من فلاسفة الإسلام . ثم أخذت الفلسفة اليهودية في الاضمحلال منذ القرن الخامس عشر وأخذ ساعد الأكليروس اليهودي يشتد ويقوى ، حتى إذا قبل القرن السادس عشر ، اشتدت حملته على الفلسفة ، واستعان في مقاومتها بالغزالي الذي اشتد في هجومه على الفلسفة في العالم الإسلامي على ما سنعرف في الفصل التالي ، فترجم اليهود كتابه ، تهافت الفلاسفة ، حول عام ١٥٣٨ م ليدحضوا به أتباع ابن رشد وأرسطو ، ولبثت الحال على هذا حتى احتلت الفلسفة الأوربية الميدان في العصور الحديثة .

موقف الأكليروس المسيحي من أرسطو وسراجه من المسلمين :

نقل اليهود أرسطو إلى أوروبا عن كتب المسلمين في القرن الثاني عشر ، على نحو ما أبنا منذ حين ، فنهض الأكليروس لمقاومته ، حتى ظهر أرسطو مسيحياً في القرن التالي ، فانشطرت أوروبا المسيحية إزاء التراث الأرسطاطاليسي

إلى معسكرين : معسكر ينتصر لأرسطو الذى بدأ مسيحياً عند توما وألبير ومن جرى مجراها ، وقد جدّ في تأييد هذا الاتجاه جامعة السوربون وإخوان الدومنيكان بوجه خاص . أما المعسكر الثانى فكان يناصر أرسطو الذى تكشفت عنه الكتب العربية ، وأرندى فى أوروبا ثوبا لاتينياً ، ولم يتمثل تراثه صدى وحي دينى سماوى ، بل بدأ نتاج عقل انسانى عبقرى ، لأن محاولة المسلمين التوفيق بينه وبين الاسلام كانت تقوم على اخضاع الدين للفلسفة وتأويل آياته حتى يسايرها ، وتولت رعاية هذا الاتجاه جامعة باريس على قلة علمائها منذ النصف الثانى من القرن الثالث عشر حتى القرن التالى ، حين فر علمائها — تحت ضغط الاضطهاد الى جامعة بادوا ومثلوا الأرسطاطاليسية أصدق تمثيل — إبان القرنين الخامس عشر والسادس عشر كما سنعرف عند الحديث على النزاع فى عصر النهضة .

كان للدومينيكان من أمثال ألبير الكبير + ١٢٨٠ والقديس توما الاكويى + ١٢٧٤ أكبر الأثر فى التمسك لتراث أرسطو ، والمظنون أن البير الكبير كان أول من ميز بين نور العقل (العلم الطبيعى) ونور الوحي (علم اللاهوت) ، فتكفل هذا بضمان شىء من الحرية للعلم والفلسفة اللذين كانا مسخرين فى العصور الوسطى لخدمة الدين — فيما يقول ولف — واذا كان ألبير قد روج للذهب الأرسطاطاليسى ، وأضاف اليه أقوال شراحه ، فقد كان يتحلى عن تأييده كلما بدا على غير اتفاق مع تعاليم الدين ، ولهذا أنكر على أرسطو قوله بقدم العالم ، وآمن بخلود النفس ، ورفض تعريف الله بال محرك الأول ، ، واعتبره موجوداً لامتناهياً . وقد أكد القديس توما نزعة ألبير ، فميز فى وضوح بين الفلسفة والإيمان فى الموضوع والمنهج معا ، وكفل الغلبة للإيمان الذى يستند الى الوحي ، على الفلسفة المكتسبة بالعقل — كما أشرنا من قبل — واعتبر الوحي محكاً للحقيقة إن خالفه العقل ضل سواء السبيل .

وقد ضاق الفرنسيسكان بموقف الدومنيكان ، فرفض أمثال دانزسكوت Dunz Scotus + ١٣٠٨ ووليام اوكام + ١٣٤٩ أية محاولة يراد بها التوفيق بين الايمان (اللاهوت) والعقل (الفلسفة أو العلم الطبيعي) ، وصرحوا بأن ما يسلم به العلم ، قد لا يذعن الايمان له ، وجأهروا بأن كلمة الدين هي العليا ورفضوا المذهب العقلي الذي روج له القديس توما ، وقرروا أن الخير مقدم على الحق ، والخير ما أمر به الله ، وأوامر الله ليست في ذاتها خيراً ، ولكنها خير لأن الله قد أمر بها ! ومن واجب الإنسان طاعة الله .

وقد اعتنقت الكنيسة — الكاثوليكية — الأرسطاطاليسية كما بدت في في فلسفة القديس توما مذهباً لها ، وأقامت على هذا حتى يومنا الراهن ، وقد كان لهذا الموقف خطره البين في تاريخ النزاع بين الدين والفلسفة ، ولهذا يحسن بنا أن نقف عنده قليلاً :

كان القديس توما أكبر أرسطاطاليسى في أوروبا المسيحية كلها ، وكان ابن رشد أعظم شراح أرسطو في العالم الإسلامى — شرقيه وغربيه على السواء ، ومع هذا فقد خصمه توما خصاماً شديداً ، وإن كان من الإنصاف أن نقول مع «رينان» ، إنه كان أكبر تلامذته ، وأن نقرر مع بيورى أن شيوع تأملاته كانت من الأسباب التي أدت الى ظهور فلسفة القديس توما ، وأن نسلم مع ألفرد جيوم بأن وجوه الاتفاق بين إلهيات توما وابن رشد في منتهى الكثرة ، بالإضافة الى أن محاولته التوفيق بين الدين والفلسفة تسير عندهما في طريق واحدة ، وتجرى على نسق واحد^(١) ، وكان

(١) كان لابن رشد نموذج واسع النطاق في العالم المسيحي ، رغم أنه سوء حظه في العالم الإسلامى ، لم يخلفه تلميذ واحد يواصل فلسفته — فيما لاحظ « رنان » Renan وكان أثر فلسفته وشروحه على أرسطو ضئيلاً جداً في العالم الإسلامى — فيما يقول « دى بوير » De Boer ، بل لقد كان ابن رشد آخر فيلسوف كبير في العالم الإسلامى كما ستعرف في الفصل التالى ، وقد واصل فلسفته ابن ميمون ومدرسته . ويبدو لنا أن مرد هذه الخصومة التي كان لها أبلغ الآثار في موقف الكنيسة من كل من توما وابن رشد الى الخلاف في لانهج الذمى اتبعه كلاماً في فلسفته ، فان رشد كان يوفق بين الدين والفلسفة بتأويل الآيات الدينية تأويلاً

توما إذن أقوى خصوم ابن رشد جميعا ، وقد تكفل بدحض ما لا يساير تعاليم المسيحية من مذاهب الفلسفة العربية عامة والرشدية بوجه خاص ، من قدم المادة وإنكار العناية الألهية ووحدة العقل واستحالة الخلق من العدم ونحوه ، واستطاع هذا القديس أن يستنبط من فلسفة أرسطو خلود النفس والقول بأن الله واجب الوجود ، ... الخ .

وخطأ أرسطو في القول بقدم الزمان والحركة ، كما خطأ ابن رشد في استنتاجه استحالة الخلق من ذلك ، وتكفل هذا كله بأن يدنى مذهبه من قلوب رجال الكنيسة ، بقدر ما باعد بين الكنيسة ومذهب ابن رشد بوجه خاص . ونهض الأكليروس لمقاومة الأرسطاطاليسية ، وبدأت المقاومة في عام ١٢٠٩ م ، حين انعقد مجمع الكيركي في باريس ، وقرر إيدانة المشتغلين بفلسفة أرسطو الطبيعية وشراحه ، ثم عاد الأكليروس فقرر منع تعليم أرسطو ، وخاصة كما بدا في تراث ابن سينا ، وقرر البابا جريجورى التاسع عام ١٢٣١ تحريم الاشتغال بدراسة الفلسفة الإسلامية ، وكان يكفى تبريراً لهذا التحريم ، إنكار أرسطو لخلود النفس ، وموقفه من قدم العالم وخلقه ، ونظرته الى الكون باعتباره خاضعاً لنواميس طبيعية - في وقت جهل فيه العلم الطبيعي هذه النواميس .

وقد كان ابن رشد هدف هذه الحملات فيما يلوح ، وهو الشارح الأعظم الذى اشترك في خصومته ألبير الكبير وتوما الأكويني معا ، فكان المعقول أن يكون محط السخط من رجال الكنيسة . وكان المظنون خطأ أنه يقول إن الفلسفة على حق ، وأن الأديان المنزلة على ضلال ، ومرد هذا الخطأ في فهم

== يؤدى الى اتفاق معناها مع مايقول أرسطو ، أما توما فكان في توفيقه بينهما يؤمن بالفكرة الدينية أولاً ثم يأخذ في تفسير المذهب الفلسفى وتوجيهه الى حيث يتفق مع النصوص الدينية ، أى أن ابن رشد أخضع الدين للفلسفة ، أما توما فقد أخضع الفلسفة للدين ، فكان الطبيعى بعد هذا أن تقوم المحسومة بينهما ، وان تختلف نتائج البحث الواحد عند كليهما ، وان تختصر الكنيسة للاندبس توما وتختصم مع ابن رشد وإن كان كلاهما شارحا لفلسفة ارسطو !

ابن رشد إلى سيجر Siger of Brabant لأنه كان لا يذكر نظرية تعارض وتعاليم المسيحية إلا استند إلى أرسطو ، وعزا الإبهام الذي يصادفه في شرحه ، إلى تعليقات ابن رشد ، وكان من رأى سيجر أن العقل والعقيدة متناقضان ، ولما كانت الكنيسة لا تجد في متناولها دراسة دقيقة لتعاليم ابن رشد وكتاباته ، فانها لم تَرَ بُدًا من أن تضم إلى سخطها على سيجر ، سخطها على المصدر الذي ادعى أنه استمد منه نظرياته (١) .

والواقع أن ابن رشد كان لا يقل عن القديس توما حماسة في تأييد المثل الأعلى القائل باتساق العقل مع العقيدة ، والثابت أن توما قد أفاد منه كثيراً في تأييد هذا الاتساق (٢) . ولكن توما - بوجه خاص - قد شوه سمعته ، فوضع رسالة « في وحدة العقل رداً على أتباع ابن رشد de unitate intellectus contra averroistas عارض فيها الرأى القائل بأن الاعتقاد في وحدة العقل - كونه واحداً لجميع الناس - ضروري من وجهة النظر العقلي ، بينما ينبغي رفض الاعتقاد بها رفضاً باتاً من وجهة العقيدة الدينية ، وناقش رأيه في وحدة العقل « مارتن » ، في كتابه الدفاع عن الايمان ، وكتب « استيفن » أسقف باريس رسالة قدم بها للنسع عشرة ومائتي مسألة ، المنسوبة لأتباع ابن رشد ، الذين أدانتهم الكنيسة ، وعرض مارتن لمناقشة وحدة العقل

(١) كنت اثناء ترحلي للفلسفة والالهيات في كتاب « تراث الاسلام » على اتصال بواضع هذا الجزء الموقر « الفرد جيوم » بالمثلثاء ، وقد جاء في رسالة منه إلى : « ينبغي ان نتكلم عن ابن رشد حذرين ، وأنا لا أرى في تعاليمه ما يناقض عقائد الاسلام . . الخ انظر ص ٣٦٥ - ٦٦ ج ١ تراث الاسلام .

(٢) انظر كتابه : فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال وكتابه : مناهج الأدلة في عقائد الملة ، وقد تناول الأول بالدرس المستشرق الفرنسي ليون جوتيسيه L. Gauthier ونشر الثاني بالأسبانية المستشرق ميغيل بين M, Bain مع مقارنته بكتاب توما « الخلاصة الفلسفية » وقام بنشرهما مولر Müller وترجمهما إلى الألمانية ونشرت الرسالتان بالقاهرة تحت عنوان فلسفة ابن رشد ١٣١٣ ، ١٣٢٨ - وانظر ما كتبه الفرد جيوم في مجته من « الفلسفة والالهيات » المنشور في كتاب تراث الاسلام The Legacy of Islam الذي ترجمناه إلى العربية ونشرته لجنة الجامعيين لنشر العلم في عام ١٩٣٦ .

عند ابن رشد في كتابه «الدفاع عن الايمان»، واعتبرها شبيهة «بهذيان عنيف»، فتكفل هذا وأمثاله بتصوير ابن رشد في صورة رب الزندقة وأبي الفكر الحر.

ولكن جامعة باريس قد نهضت بتعليم ابن رشد، وتمثل فيها التراث الأرسطاطاليسي مستقلاً عن الروح الديني، وكان أظهر ما في برنامجها — من الفلسفة الرشدية — القول بقدم العالم وإنكار خلود النفس وإقرار فناؤها بفناء الجسم^(١)، والنظر إلى الحوادث باعتبارها متعاقبة تعاقباً لا مجال فيه للعناية الإلهية . . . ونحو هذا مما لا يرتضيه مسيحي مؤمن، فنشأت عن هذه الجامعة مدرسة من أحرار الفكر الذين ذهبوا إلى أن قصة التكوين وبعث الأجسام ونحوه من العقائد الرئيسية، ربما كان صحيحاً من وجهة النظر الدينية، ولكنه باطل من وجهة النظر العقلية! ولم يُسَخ هذا الاتجاه رجال اللاهوت الذين كانوا يرون الاتفاق معقوداً بين العقل والوحي، وخيّل إلى الرجل العادي وكأن أصحاب هذا الاتجاه يقولون إن نظرية خلود النفس صادقة أيام الآحاد، باطلة في سائر أيام الأسبوع، وأن عقيدة الحوارين تبطل في نظرك متى كنت في حجرة الجلوس، وتصدق إن كنت في قاعة الطعام . . . ١١٠

واشتد حنق الدومنيكيين على أرسطو المستقل عن المسيحية، وتمكنوا في مدى ست أو سبع سنوات من استصدار أربعين أمراً من البابا بحظر الفلسفة الإسلامية «وحرّم» المشتغلين بها، وقرر مجمع باريس المنعقد في عام ١٢٦٩ تحريم مبادئه كانت معروفة عند ابن رشد، منها وحدة العقل الانساني في الناس جميعاً، وقدم العالم وفناء النفس بفناء الجسم، وإنكار علم الله

(١) انظر في تناقض ابن رشد في رأيه في خلود النفس وتأويله هذا التناقض في كتاب «ابن رشد وفلسفته» للمرحوم فرح أنطون ص ٤٧ وما بعدها، وخير ما فيه استفادته فيما يقول الى نصوص ابن رشد نفسه .

للجزئيات ، وعدم تأثير العناية الإلهية في أفعال البشر . . . الخ . وأدان البابا جون الحادى والعشرون^(١) مذهب ابن رشد فى ازدواج الحقيقة ، ونكلت الكنيسة بالمتفلسفة فى جامعة باريس حرقاً وإعداماً ، حتى اضطروا إلى الفرار إلى بادوا ، حيث كانت البندقية بمجلس شيوخها كفيلة بتوفير الحرية لأهل الفكر الحر ، وعندئذ انتصر ابن رشد وعاش أتباعه طوال القرنين الخامس عشر والسادس عشر آمنين فى هذه الجامعة التى لم يكن فى أوروبا كلها مكان أكثر منها أمناً . وهذا ما نعرفه فى الفصل الذى عقدناه على عصر النهضة .

ويسجل تاريخ الاضطهاد أن جامعة باريس التى اضطهد فيها أتباع ابن رشد قد طلبت من خريجيها بعد مضى قرن من الزمان ، أن يقسموا غير حائثين ، ألا يعلموا إلا الأشياء التى تتفق مع تعاليم أرسطو كما فسرها ابن رشد^(٢) . . . ومن وجوه الطرافة أن المسيحيين الذين خاصموا الفلسفة إجمالاً ، قد استعانوا بخصوم الفلسفة من المسلمين ، فوقف الغزالي العقلى والدينى قد راق علماء المسيحيين منذ اللحظة التى تيسر لهم فيها الاطلاع على كتبه ، ولا يزالون مهتمين بدراسة أبحاثه والعناية بها ، والمعروف أن الغزالي قد هاجم الفلسفة ، وذهب فى هجومها إلى تكفير أهلها من أفلاطون وأرسطو ، إلى الفارابى وابن سينا ، مهد لدراستها بكتابه « مقاصد الفلاسفة » ثم حل عليها فى كتابه « تهافت الفلاسفة » ، وسرعان ما راج كتابه الثانى عند خصوم الفلسفة من المسيحيين ، فنلاحظ أن ريموند مارتن R. Martin - الذى يحتمل ألا يكون لعلبه بمؤلفى العرب نظير فى أوروبا بأسرها حتى العصور الحديثة - فيما يقول جيوم - قد نهض بعد مئات القديس توما بمقاومة فلاسفة الإسلام وعلمائه ، واستجاب لمطلب ريموند بنافورت Raymund Pinnaforte رئيس هيئة

(١) تولى عرش البابوية من سبتمبر ١٢٧٦ إلى مايو ١٢٧٧ م .

(٢) Rashdall, universities, 1. 368.

الدومنيكيين ، في وضع كتابه « الدفاع عن الإيمان » Pugio fidei وأدخل فيه الكثير من آراء الغزالي ، ومنذ ذلك الحين أفاد الكثيرون من علماء المسيحية من آراء الغزالي في إثبات الخلق يعد العدم Creatis ex nihilo وبراهينه في التدليل على أن علم الله شامل للجزئيات ، وعقيدة البعث بعد المات . وانتفع القديس توما - الذي عاصر مارتن - برسالة الغزالي في « الاقتصاد في علم الاعتقاد ، في وضع كتابه المعروف « الخلاصة الفلسفية في الرد على الأمم غير المسيحية » الذي وضعه استجابة لطلب رئيس هيئة الدومنيكيين السالف الذكر ، وأوجه الشبه بين آراء توما والغزالي كثيرة (١) .

وهكذا نلاحظ أن الغزالي كان ويلا على الفلسفة عند اليهود والمسيحيين على السواء . . . ! وسنعرف أثره الهدام في فلسفة العالم الإسلامي في الفصل التالي ، وكان أثر كتابه « تهافت الفلاسفة » عند هؤلاء جميعاً ، أعمق - فيما يلوح - من أثر « تهافت التهافت » الذي فند فيه ابن رشد موقف الغزالي من الفلسفة .

وعند ابن رشد كان يلتقي إعجاب أتباعه وسخط خصومه من المسيحيين (٢) امتد نفوذه وعلا ذكره منذ القرن الرابع عشر ، حتى غلب ابن سينا في أوروبا كلها ، ولبث عاملاً حياً في التفكير الأوربي حتى مطلع العصر الحديث في القرن السابع عشر ، وكان هذا يزيد من حقد خصومه وسورة غضبهم ، على نحو ما أبنا من قبل .

بل لقد سرت عند بعض المسيحيين موجة من السخط الشديد ، أتت على التراث العلمي للسليين جميعاً ، وتجلت هذه الظاهرة عند أمثال بترارك وريموند لل R. Lull + ١٣١٥ ، وقد وقف الأخير جهوده على

(١) تراث الاسلام في ترجمتنا لفلاسفة والالهيات من ٣٠١ وما بعدها

(٢) كان بين المعجبين به رجال دين ا يقول كارا دي فو Carra de Vaux في مقاله

عن ابن رشد بدائرة المعارف الاسلامية : « كان الاعجاب بشروح ابن رشد عظيماً ، حتى بين رجال الدين الذين كانوا يرون في مذهبه خطراً يهدد العقيدة »

الطواف بالبلاد الأوربية من باريس إلى فينا إلى مونبلييه إلى جنوه وناپلى وبيزا ، وإثارة الناس ضد المسلمين وفلسفتهم ، وعندما انعقد مجمع فينا عام ١٣١١ م أرسل عريضة إلى البابا يطلب فيها حرمان ، كل مسيحي ينتصر لابن رشد ، وحظر تدريسه في مدارس أوروبا ، وتضمنت العريضة غير هذا بما يدخل في محاربة الإسلام ، ولكن المجمع لم ياق إليها بالا ، (١) .

هذا هو موقف المسيحيين عامة ، والأكايروس المسيحي بوجه خاص ، من أرسطو وشراحه من فلاسفة الإسلام ، ولعل للكنيسة بعض العذر في موقفها من أحرار الفكر ، ومقاومتها للذاهب التي بدت على خلاف مع تعاليم الدين ، فقد تسكفت حرية التفكير - منذ بدأت يقظة العقل الأوربي - عن موجة من الإلحاد المروّع ، كادت تأتى على الحياة الروحية ، التي تقوم الكنيسة على حراستها بحكم وظيفتها ، وقد ثارت في القرن الثالث عشر شكوى دينية نسب بعضها إلى المفكر الحر ، فردريك الثاني ، + ١٢٥٠ الذى شجع حركة النقل عن فلاسفة الإسلام واعتبره أول رجل حديث ، (٢) ، وامتدت هذه الموجات من الشك حتى شملت الأديان المنزلة جميعها ، وتجاوزتها إلى الرسل عليهم السلام ، وهذا بالإضافة إلى ما حملته فلسفة أرسطو المنقولة عن شراحه من آراء لا تسليح أبسط العقائد المسيحية ، ولا تتمشى مع أظهر المبادئ المعروفة في التقاليد الدينية .

كلمة أفييرة :

وعلى هذا انقضت العصور الوسطى ، خلا عصر الآباء وبعض العصر المدرسى من مظاهر النزاع ، الذى يرتفع إلى مرتبة التضيق والاضطهاد ، لخلو هذه المرحلة الطويلة من وجود عقل يقظ جرىء ، ولكن بعض آباء

(١) لم يكن هذا غريبا على «ال» الذى جعل مثله الأعلى تقديم العقيدة المسيحية لشرفيين على أسس عقلية ، والذى استشهد فيها يقال أثناء تبشيرة لعرب تونس ، وقصد إلى تحويل آسيا إلى المسيحية ، وطالب باستبدال الحملات الصليبية ببعثة تبشيرية . تراث الاسلام (٢) أورد بيورى مثالا لهذا (ص ٧٠) أكثرنا لإغفاله لجرأته على الرسل والديانات الثلاث المنزلة .

الكنيسة قد اضطلع - منذ العصور الأولى - بوضع السنن والشرائع التي مهدت - فيما بعد - لاضطهاد العقل ، ومكنت من مطاردة أهله ، وهيمنت الكنيسة على عقول الناس وقلوبهم معاً ، واستسلم العالم الأوربي لتعاليمها ، وسارت الفلسفة في ركابها ، وتكفلت بتأييد عقائدها ووجهات نظرها ، فصفاً الجو بينهما قروناً طوالاً ، حتى إذا دبت اليقظة إلى العقل ، وتكشفت أمامه دائرة المعارف القديمة - ممثلة في التراث الارسطاطاليسى المنقول عن فلاسفة الإسلام - ضاق العقل باستكاثته لاستعباد السلطات ، وأعلن في منتصف العصر المدرسي تمرده ، فنهض الأكايروس لمقاومته ، حتى إذا ضاق بأهله ، زج بهم إلى السجون ، اتقاءً لشرهم ، ولكن بعض دعاة العقل قد أسرفوا في الالتجاء إلى منطقته وتغلبه على كل شريعة ، فأفضى هذا إلى إنكار العقائد الدينية ، وامتهان التقاليد المقدسة ، فأندر هذا باكفهرار الجو واشتداد النزاع ، وعندئذ تآهب الأكايروس لحشد قواته وتعبئة جنوده وتنظيم محاكمه ، والاستعداد للانقضاض على خصومه ، فلم تقض العصور الوسطى ، حتى أشرف العالم الأوربي على عهد إرهابي ، ملوث بالدم الآثم ، وهذا ما سنعرفه عند الحديث على النزاع بين اللاهوت والفكر الجديد في عصر النهضة :

(مصادر الفصل)

ما ذكر في هوامش الفصل مع كتب تاريخ الفلسفة التي تناوت العصور الوسطى ثم :

W. E. H. Lecky, Hist of the Rise & Influence of Rationalism in Europe vol. 2 ch. I.

A. D. White; A Hist. of the Warfare of Science with Theology in Christendom vol. I.

J. B. Bury, Hist. of Freedom of thought.

J. Robertson, A Short Hist. of Freethought vol. 1.

Ch. Watts, Freethought: Its rise, Progress & Triumph.

J. W. Draper, Hist. of the conflict between Religion and Science.

Encyclopaedia Britannica, art., Inquisition, Persecution, Toleration, St Augustine... etc.

E. Renan, Averroes et l'Averroïsme ed. 1925.

Charles de Rémusat, Abelard 1845.

فصرح انطون : ابن رشد وفلسفته ١٩٠٣

تراث الاسلام ترجمة لجنة الجامعيين لنشر العلم - ولا سيما الجزء الذي ترجمناه عن

« ١٠ . جيوم في الفلسفة والأهليات .

وفي تصوير التقاليد الممهدة للاضطهاد ، يقرأ كتابنا « قصة الاضطهاد الديني » وسيطبع قريباً

الفصل الرابع

موقف الاسلام وفقهائه

من التفكير الفلسفي

موقف فلاسفة الاسلام من الدين — موقف رجال الدين من العلوم الفاسفية — عداة الفزالي للفلسفة وأثره — موقف ابن رشد من الدين والفلسفة — محنة ابن رشد — منشور الخليفة بتحريم الاشتغال بالفلسفة — فتوى ابن الصلاح بتحريم الاشتغال بالفلسفة والمنطق — أثر فتوى ابن الصلاح فيمن تلاه — عداة ابن تيمية وابن قيم الجوزية للفلسفة — قيام الفلسفة في الاسلام رغم حملات خصومها المتزمتين — موقف القرآن من حرية النظر العقلي — تفسير الاضطهاد في الاسلام — الاضطهاد في المسيحية والاسلام .

عرف العالم الاسلامي من رجال الدين أحراراً يسايرون التطور ويسبقون الزمن ، وينتصرون للعقل ويحاربون الجمود والجهل والتعصب ؛ وعرف إلى جانب هؤلاء ، متزمتين يجمدون والدنيا من حولهم في حركة دائمة ونشاط متصل ، فيطمعون في أن يوقفوا الركب ويعرقلوا حركته ، لأنهم لا يطبقون في الرأي جدّة ولا خلافاً ، ولا يهتمون من أحد أن يخرج على مألوف ، أو يصيب عند الناس شهرة أو عند الحكام عطفاً ورعاية ، فان وقع شيء من هذا فهم المناعون للخير المشاؤون بالسوء ! فلنعرض لبيان موقفهم من العلوم الفلسفية الغربية عنهم ، وبيان رأيهم في أهلها إن بدا في تفكيرهم جدّة أو خلاف لما عرف ، فاذا فرغنا من عرض المحن التي نزلت بهؤلاء ، عقبنا ببيان موقف القرآن الكريم من حرية النظر العقلي ، ورأيه في هؤلاء المتزمتين وخصومهم من المفكرين على السواء .

موقف فلاسفة الاسلام منه الديني :

ذهب جمهرة فلاسفة الإسلام إلى القول بأن غاية الدين تتشابه مع غاية الفلسفة ، من حيث إن كليهما يرمي إلى تحقيق السعادة عن طريق الاعتقاد

الحق وعمل الخير ، ويقولون إن موضوعات الدين والفلسفة واحدة ، لأن كليهما يعطى المبادئ القصوى للوجودات ، ويفيض عن واجب الوجود على عقول البشر بواسطة العقل الفعال ، لأن المعارف كلها - ما كان منها بوحى أو عن غير وحى - تصدر عن واجب الوجود بواسطة العقل الفعال . وقد حاول فلاسفة الإسلام التوفيق بين الدين والفلسفة « في أسلوب ليس فيه - في الغالب - عنف ولا نزوع إلى كبرياء ، وإن كان بعضهم تنسّم أساليبه عن العنف أو مهاجمة الدينين^(١) . وكانت هذه المحاولة مناط الابتكار أو معقد الطرافة في الفلسفة الإسلامية فيما يقول ليون جوتييه ، وإن أفضت في رأى غيره إلى انقلاب هؤلاء الفلاسفة مبشرين بالدين ودعاة له .

موقف رجال الدين من الفلسفة الإسلامية :

هذا موقف الفلاسفة إجمالاً ، أما علماء الدين فقد نزعوا غير ذلك المنزع ، فهم « في أكثر الأمر خصوم للفلسفة في غير هوادة ولا رفق ، وإن لم نجد عند بعضهم من تأثروا بالفلسفة تلك الجفوة التي نجدها في أساليب المتأخرين من أمثال ابن الصلاح - كما سنعرف بعد قليل .

وقد كان مفكرو الإسلام - فيما يقول جولدتسيهر - يطلقون على دائرة معارف اليونان من رياضيات وطبيعات وإلهيات اسم « علوم الأوائل أو علوم القدماء أو العلوم القديمة ، وهي تقابل عندهم علوم العرب والعلوم الشرعية بوجه خاص ، وقد كانت علوم الأوائل مشار الشكوك والريب عند المتطرفين من أهل السنة ، حتى حين كانت موضع عناية في البيئات الدينية الإسلامية . منذ القرن الثاني للهجرة ، ومن هنا كان من السهل اتهام الرجل بالزندقة متى نحا في كتبه نحو أفسافياً ، كما حدث مع علي بن عبيدة الريحاني وأبي زيد البلخي وغيرهما . وقد بالغ هؤلاء المتطرفون في هذا النزوع ، حتى

(١) انظر تفصيل هذا في الفصل الرابع من كتاب أستاذنا الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق « شيخ الجامع الأزهر » تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية .

كانوا ينفرون من كل علم ينسب إلى الفلسفة أو يتصل بها ! وليس أدل على هذا التطرف من أن يشكو منه الغزالي في منقذه ، وهو أكبر خصوم الفلسفة وأصلبهم قناة ، ويقول أصحاب هذا الاتجاه إن النبي حين سأل ربه أن يعينه « من علم لا ينفع » ، إنما قصد علوم الأوائل . بل يرى ابن تيمية الحنبلي في الجزء الأول من مجموعة رسائله الكبرى أن العلم ما كان موروثاً عن نبي ، وكل ما سواه فهو علم لا ينفع ، أو ليس بعلم وإن سُمي به . . . ١٠٠

ويصف جمهرة المتكلمين من السنيين علوم الأوائل بأنها «حكمة مشوبة بكفر» لأنها تؤدي إلى التعطيل « أى تجريد ذات الله من كل حسنة إيجابية » ، وبدا الاشتغال بها مسيراً للاستخفاف بالدين ، وكل من عنى بهذه العلوم ، دل بعنايته على أنه مغموز في عقيدته متهم في دينه ، وليس ينجيه من هذا الاتهام أن يكون ثقة في العلوم الشرعية ، مزاولاً للتعاليم الدينية ، بل إن مجرد الاتصال بهذه العلوم ، كفيل بأن يجنح بصاحبه إلى طريق الدين القويم ، وهذا هو السبب الذى جرّ المأمون إلى القول بخلق القرآن - فيما يرى تاج الدين السبكي .

ومن أجل هذا كان أهل السنة ينصحون طلاب العلم بتجنب الاتصال بالمشتغلين بعلوم الأوائل ، ما استطاعوا إلى ذلك سديلاً ، وكان هؤلاء بدورهم يخفون اشتغالهم بالدراسات الفلسفية متى كانوا حريصين على سمعتهم أن يمسها سوء ، ومن هؤلاء ابن الطيب + ٤٣٦ الذى روى عنه القفطى أنه كان يتقى أهل زمانه فى التظاهر بعلم الأوائل ، فيخرج ما عنده فى صورة متكلمى الملة الإسلامية . . . فإذا قيل إن أحد الفلاسفة قد تاب إلى رشده وعدل ساعة موته عن ضلالات الفلسفة وأكاذيبها ، أثار هذا الغبطة والرضا فى نفوس الناس ، وقد قيل هذا عن ابن نجاء الأربلى + ٦٦٠ وهو فيلسوف رافضى يختلف الكثيرون إلى داره بدمشق ليأخذوا عنه ، « قيل عنه فى لهجة يمازجها سرور المنتصر الظافر ، إن آخر كلمة صدرت عنه وهو على فراش موته : « صدق الله العظيم وكذب ابن سينا . . . ١٠٠ »

وكان طبيعياً أن تشبع الدعوة إلى تجنب الاطلاع على الكتب الفلسفية ، وقد سوسى الجاحظ في بخلاته بين الكتاب المتهم والشراب المسكروه - عند حديثه على الأشياء التي تخفى عن عيون الناس بعناية ، . وطولب المحترفون من نساخي الكتب في بغداد (عام ٢٧٧ هـ) بأن يقسموا صادقين بالآل ينسخوا كتابا في الفلسفة ١ - فيما يروى ابن الأثير .

والمعروف أن الزندقة قد فشت في العصر العباسي لأسباب منها أن الزندقة بمعنى الشك أو الإلحاد ، تقترن عادة بالبحث العلمي وهو في العصر العباسي أبين وأظهر ، ، إذ انتشرت فيه ، مذاهب الكلام والجدال الديني حول المسائل الأساسية في الأديان ، والبحث الفلسفي على النحو الذي يبحثه أرسطو وأفلاطون وغيرهما في المادة والصورة والجزء الذي لا يتجزء والجوهر والعرض وما إلى ذلك ، وانساق الخلفاء إلى مطاردة الزنادقة استجابة لنزعاتهم الدينية أو مجازاة للرأى العام ، وكان المهدي ، أول من أمر الجدلين من أهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب في الرد على الملحدين ، وإقامة البراهين على المعاندين وإزالة شبه الملحدين مع إنشائه إدارة للبحث عن الزنادقة ومحاکمتهم ؛ وقد نصح ابنه الهادي في مطاردة أصحاب ماني واستجاب ابنه لنصحه ، وكذلك فعل هارون الرشيد والمأمون والمعتمد ، فقتل الكثيرون أو صلبوا وأحرقوا بالنار ، وكان من هؤلاء الزنادقة من كان يدعو إلى الشعوبية والمذاهب الدينية ويعلن شكه في الأديان ويقول ، بسلطان العقل إلى أقصى حدوده ، فهم لا يريدون أن يؤمنوا إلا بما يرون بأعينهم ويحكمون العقل حتى فيما ليس للعقل فيه مجال ، فنبذوا الأديان جملة ودعوا إلى الإلحاد ، (١) .

وكان من اليسير أن تحرق كتب الأوائل متى عثر عليها عند المشتغلين

(١) أحمد بك أمين في ضحى الاسلام ج ١ في الفصل السادس من الباب الأول عن حياة

الزندقة وحياة الايمان .

بها ، وقد حدث هذا مع حفيد عبد القادر الجيلاني الصوفي المعروف ، وهو ركن الدين (محمد بن عبد السلام + ٦١١ هـ) ولما وجهوا الاتهام إليه ، زعم اتقاء لشرم أنه نسخ هذه الكتب توطئة لتفنيدها والرد عليها ، ولكن دفاعه لم يُجِدِ قبِلا ، فأوقدوا أمام مسجد مجاور لمسجد الخليفة ناراً عظيمة ، واعتلى السطح العلماء والقضاة وجمهور غفير من الناس ، ثم ألقيت الكتب من فوق سطح المسجد في النار ، ونهض أحدهم بتعريف الحاضرين بهذه الكتب كتاباً كتاباً ، وهو يقول — وعبد السلام حاضر معهم — : العنوا من كتب هذه الكتب ومن آمن بما فيها ، والعامّة يهتفون باللعنة التي تجاوزت عبد السلام إلى الشيخ عبد القادر نفسه ، ونهض الشعراء بهجو الملحد والسخرية من أمثاله . أما عبد السلام فقد أدين بالفسق ، وجرد من طيلسان العلماء ، وزج به في السجن ، وانتزعت منه مدرسة عبد القادر . . . ومثل هذا كان كثيراً ما يقع ، وسنعرف بعد قليل محنة ابن رشد وإحراق كتبه وصدور منشور بتحريم الاشتغال بالفلسفة .

وقد كانت إلهيات أرسطو — أولاً وبالذات — محط السخط عند أهل السنة ، إذ اعتبروا مقدماتها ونتائجها متعارضة كل التعارض مع مقتضيات عقائد الإسلام ، وتجاوز سخطهم ذلك إلى العلوم الرياضية لأنها تمهد للدراسات الفلسفية ؛ لانت نظرتهم إلى الحساب ، لأن الاشتغال به من مستلزمات علم الفرائض ، فوق أنه يعين الخبراء في أحوال التورث . أما الهندسة فقد كانت مثالا للشك عند أهل السنة ، وكانت الأشكال الهندسية تثير قلقهم ، وتدين صاحبها بالزندقة ، وقد وقع هذا زمن أبي نواس وتجاوزته إلى العصور المتأخرة ، وقد تحدث أبو الحسين بن فارس في كتابه « الصاحب في فقه اللغة وسند العرب في كلامها » عن خطر الهندسة على الدين مع قلة نفعها . وانتهى إلى أن الخوض في الرياضيات يؤدي إلى الانخلاع عن الدين . ولما كان الاشتغال بعلوم الأوائل قد ارتبط بالتقاليد الأفلاطونية

المحدثة ، فقد دخل في جملة هذه العلوم مزاولة السحر والطلسمات والنارنجيات إلى جانب علم التنجيم ، ومن هنا كان محط السخط عند أهل السنة ، فاتفق المعتزلة والأشاعرة على إنكار علم النجوم ، بل تجاوز الإنكار ذلك إلى علم الهيئة (الفلك) رغم منفعته في تحديد مواعيد الصلاة والقبلة وسمتها ، وحسبنا في الدلالة على هذا الاتجاه أن يكون مفسر متكلم معروف كالفخر الرازي ، ضعيف الثقة في هذا العلم - رغم اعترافه بعلم النجامة ، فيصرح في الجزء السادس من مفاتيح غيبه بأنه « لا سبيل إلى معرفة السموات إلا بالخبر » . وكان يبرر شك السنيين في هذا العلم تأييده للقول بأن الشمس تطلع في بعض البلاد في منتصف الليل ، وأنها تشرق من المغرب ، مع أن الحديث يقول إن هذا من علامات الساعة . . الخ .

وإذا كان أهل السنة قد حذروا من خطر العلوم اليونانية على الدين ، فقد حاربوا المنطق اليوناني في غير رفق ولا هوادة ، لأن طرق البرهان الارسطاطاليسية كانت خطراً على صحة العقائد الإيمانية ، ومن هنا ذهب غير المثقفين إلى القول بأن « من تمنطق تزندق » .

ومن معسكرات المتكلمين - معتزلة كانوا أو أشاعرة - صدرت كتب كثيرة تهاجم الفلسفة والمنطق بوجه خاص - منها كتاب « الرد على أهل المنطق للنوذجي وغيره ، وقد اتهم إخوان الصفا - في الجزء الرابع من رسائلهم - المعتزلة - وفي اتهامهم بعض الغلو - بأنهم يعتبرون المنطق والطبيعات ككفرًا وزندقة . وإن كان هذا كله لا يبنى القول بأن بعض أئمة رجال الدين قد حسن ظنهم بالاستغلال بالمنطق ، وأنهم قد انتفعوا به في خدمة الكلام والدراسات الدينية .

فاذا نزلنا بالغرب الإسلامي ، لاحظنا أثر هذا التعصب بعد موت الخليفة الحكم عام ٣٦٦ هـ فالمنصور بن أبي عامر يأمر باحراق الكتب المؤلفة في العلوم القديمة ولاسيما ما كان منها في المنطق والنجوم ، وقد أيد حكمه

في هذا الصدد رجال الدين ، وقد فصل صاعد في « طبقات الأمم ، في وصف إحراق هذه الكتب . وليس ينبغي هذا أن يؤيد المنطق — بعد هذا التعصب — ابن حزم ، وهو من أشد المتحمسين لنصرة السنة بمعناها الضيق ، ويذود عن رأيه في مله ونحله ، وفي غيره من كتب . وقد كان المنطق مثار الضيق عند بعض رجال الدين في عصر الازدهار الذي كان أيام دولة الموحدين ، فالمتزمتون من فقهاء المالكية يهاجمون الفلسفة في عنف وغضب ملحوظ ، وفي القرن الثاني عشر يهجو ابن جبير الفلسفة بقوله :

قد ظهرت في عصرنا فرقة ظهورها شؤم على العصر
لا تقتدى في الدين إلا بما سن ابن سينا وأبو نصر

ولعل الغزالي قد قصد إلى إخفاء اسم المنطق من عناوين كتبه اتقاء لضيق أهل السنة والجماعة ، ومن هنا جعل كتبه « معيار العلم ، و « محك النظر ، و « القسطاس ، وقد عرض له في مقدمة « المستصفي ، و مقدمة « المناصد ، . . وقد أبان — كما فعل ابن حزم — عن منفعة هذا العلم للباحث الدينية ، وإن لم يمنع هذا من إبداء سآمته وضجره من هذا العلم في « محك النظر ، وتحذيره في « المنقذ ، من التسرع في الوقوع في الكفر استناداً إلى زندقة أهل المنطق (١) .

وفي العصر الذي تلا الغزالي وصلت معارضة المنطق أوج شدتها ، فلنقف هنا وقفة قصيرة ، نكشف خلالها عن موقف الغزالي من الفلسفة إجمالاً ، عسى أن يلقى هذا ضوءاً على تزمّت العصور التي تلته .

عمراء الغزالي للفلسفة وأثره :

يعرض الغزالي « في المنقذ من الضلال ، إلى بيان موقفه من الفلسفة ، ويقول إن من لا يقف على منتهى علم لا يقف على فساد ، وأنه لم ير « أحداً

(١) اقرأ تفصيل ما سبق في الفصل الذي عقده جولدمسيهر من « موقف أهل السنة

القدماء بازاء علوم الأوائل ، في كتاب « التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية »

من علماء الإسلام صرف همته وعنايته إلى ذلك (الرد على الفلاسفة) وليس في كتب المتكلمين الذين اشتغلوا بالرد عليهم إلا كلمات معقدة ظاهرة التناقض والفساد ، وعلم الغزالي أن رد المذهب قبل فهمه والاطلاع على كنهه ، رمى في عمائة ، ومن أجل هذا جدد في تحصيل الفلسفة من كتبها دون استعانة بمعلم ، حتى انتهى بعد ثلاث سنوات إلى الكشف عما فيها من خداع وتلبيس وتحقيق وتخيل ، ورأى أن الفلاسفة « على كثرة أصنافهم تلزمهم سمة الكفر والإلحاد ، وإن كان بين القدماء منهم والأقدمين ، وبين الأواخر منهم والأوائل ، تفاوت عظيم في البعد عن الحق والقرب منه . »

وتمشياً مع منهجه السالف في دحض ما يبدو في الفلسفة منافياً للدين ، وضع كتابه « مقاصد الفلاسفة » للإبانة عن مذاهبهم وكأنه واحد منهم ، ثم اضطلع في « تهافت الفلاسفة » بتفنيد مزاعمهم وإبطال دعاويهم وإثبات ضعف عقيدتهم في مذاهبهم التي قرروها متأثرين بفلاسفة اليونان ، وقد قصد من وراء هذا كله أن يبين عن عدم وفاق الفلسفة للدين ، وأن يصرف الناس عن أهلها ويزجر من يخوض في علومها ، إذ قلّ « من يخوض فيها إلا وينخلع من الدين » ، فاذا انتهى من هذا ، قرر أن التصوف يلي الوحي طريقاً إلى اكتشاف الحقيقة ، وأنه يفوق العقل الذي يتشبث به الفلاسفة مع قصوره عن إدراكها .

وقد قسم الفلاسفة في المنقذ إلى ثلاثة أصناف : دُهريون وهم الزنادقة لأنهم جحدوا الصانع المدبر العالم القادر وزعموا أن العالم لم يزل موجوداً بنفسه ولم يزل الحيوان من نطفة ، والنطفة من حيوان كذلك . . . ثم طبعيون وهم الذين سلبوا بوجود قادر حكيم مطلع على غايات الأمور ومقاصدها ولكنهم أنكروا معاد النفس وجحدوا الآخرة والحساب فلم يبق عندهم للطاعة ثواب ولا للبعصية عقاب ، وهؤلاء أيضاً زنادقة . ثم إلهيون :

وهم المتأخرون منهم كسقراط وأفلاطون وأرسطو ، وقد هاجموا الدهرية والطبيين ولكنهم استبقوا من ردائل كفرهم بقايا فوجب تكفيرهم وتكفير متبعيهم من متفلسفة الإسلاميين كابن سينا والفارابي وأمثالهم . ويرى أن مجموع ما صح من فلسفة أرسطو بحسب ما نقله هذان الفيلسوفان ينحصر في ثلاثة أقسام : قسم يجب التكفير به ، وقسم يجب التبديع به ، وقسم لا يجب إنكاره أصلاً .

وقد قسم الغزالي علومهم إلى رياضية ومنطقية وطبيعية وإلهية وسياسية وخلقية ، وبجمل رأيه في الأولى والثانية أنها لا تتعلق بالدين نفيًا أو اثباتًا .. ، ويمضى في حديثه حتى يصل إلى الإلهيات ، وهي بيت القصيد ، لأن فيها « أكثر أغاليطهم » ، و « مجموع ما غلطوا فيه يرجع إلى عشرين أصلاً يجب تكفيرهم في ثلاثة منها ، وتبديعهم في سبعة عشر ، وقد صنف تهافته لإبطال هذه المسائل العشرين . فأما المسائل الثلاث التي خالف فيها الفلاسفة كافة الإسلاميين ففكرها من أجلها فهي :

(١) إنكار بعث الأجساد فهي في رأيهم لا تحشر ، والمثاب والمعاقب هي الأرواح المجردة ، والعقوبات روحانية لا جسمانية .

(٢) قصر علم الله على الكلبيات دون الجزئيات ، وهو كفر صريح ، إذ « لا يغرب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء » .

(٣) قولهم بقديم العالم وأزليته .

وليس بين المسلمين من ذهب إلى شيء من هذه المسائل - وأما ما وراء ذلك من نفي الصفات وقولهم أنه عالم بالذات - وما يجري مجراه ، فذهبهم فيه قريب من مذهب المعتزلة ، ولا يجب تكفير المعتزلة بمثل ذلك . ومن رأى تكفير أهل البدع من فرق الإسلام ، كفرهم من أجل هذه المسائل السبع عشرة .

وقد ندد الغزالي في تهافته بالفلاسفة ، ورماهم بالغباوة والحقم والزيغ وسوء الظن بالله ، والغرور والادعاء والاعتداد بالعقل ونحوه ، ولكن

تكفيرهم كان أقصى ما في حملته التي أماتت الفلسفة في الشرق الاسلامي - فيما لاحظ المستشرق مونك - وضععت التفكير الفلسفي في العالم الاسلامي وسخرت الدراسات الفلسفية لخدمة الدين باقتباسات من أرسطو أو ابن سينا أو غيرهما ، وانصرف المفكرون في المغرب الاسلامي عن الطبيعة وما بعد الطبيعة ، واتجهوا إلى العلوم العملية من أخلاق وسياسة - فيما لاحظ المستشرق دي بوير .

وليس بدعاً منه هذا الهجوم ، فان علماء الكلام - فيما يقول البارون كارادى ثو في كتابه عن الغزالي ، قد زاولوا محاربة الفلاسفة منذ ظهرت مدارس الفلسفة ، لأن مذاهبهم - بالغاً ما بلغ إخلاصهم في إيمانهم - خطر يهدد الدين في رأى حماته ، لأنهم يعتزون بالعقل أكثر مما ينبغى .

ولكن من الإنصاف لهذا الرجل أن تقول إنه مع عدائه للعقل ومحاولته دحض الفلسفة ، لم يحرّم الفلسفة جملة من غير تفصيل ، لأن الخلاف بينهم وبين غيرهم من الفرق ثلاثة أقسام : قسم يرجع النزاع فيه إلى اللفظ ، وقسم لا يصدم مذهبهم فيه أصلاً من أصول الدين ، والقسم الثالث ما يتعلق بالنزاع فيه بأصل من أصول الدين ، كالقول في حدوث العالم وصفات الصانع وبيان حشر الأجساد والأبدان ، ثم يعقب قائلاً في تهافته « فهذا الغش ونظائره هو الذى ينبغى أن يظهر فساد مذهبهم فيه دون ما عداه . » ثم هو - على ما أشرنا من قبل - يشكو في « معيار العلم » وفي « المنقذ » من نفرة رجال الدين من الحساب والمنطق لمجرد أنهما من علوم الفلاسفة الملحدتين ، وهو يقرر أن الرياضيات مفيدة في ذاتها ، وأنها في أصلها لا تتعلق بالدين نفيّاً أو إثباتاً ، وإن عاد فحذر مما ينجم عنها من آفات ، ينص عليها في المنقذ وفتحة العلوم معاً .

ولم يكن الغزالي أول من اضطلع بالتصدي لمهاجمة الفلاسفة وتبيان باطلهم ، فقد سبقه الى ذلك ابن حزم في فصله ، والجويني في برهانه في

أصول الدين وإرشاده في قواعد الاعتقاد، وغير هذين من أسلافه،
ولسكن الغزالي كان في مجال الهجوم على الفلاسفة وتفنيد مزاعمهم، أقواهم حملة
وأغزرهم مادة وأصلبهم قناة وأطولهم باعاً، فطبع هذه الحملة بطابعه القوى
الغلاب، وبهذا مكّن لها وهياً أذهان الناس لقبولها، ومهتد الطريق للتكامل
بالفلسفة على يد ابن الصلاح وأمثاله. وإذا كان بين من تقدموا الغزالي من حارب
الفلسفة في غير رفق ولا هوادة، فقد كان هذا الصنف ممن لم يتذوقوا طعم
الفلسفة، ومن هنا بدا الخلط في كلامهم، ومن أمثلة هذا قول الخوارزمي + ٣٨٣هـ
(٩٩٣ م) في «الباب الثالث في الرد على الفلاسفة»، من كتابه «مفيد العلوم
ومبيد الهموم»: «وهم قوم من اليونانيين تحذلقوا في المقالات حتى وقعوا
في وادى الخيرة والخُباط—وهو كالجنون وليس به—وتحيروا في الإلهيات،
وبنوا مقالاتهم على التشبهى المحض والدعاوى الصرف ويزعمون أنهم أكيس
خلق الله، وسياق مذهبهم يدل على أنهم أجهل خلق الله وأحق الناس،
وأساس الإلحاد والزندقة مبنى على مذهبهم، والكفر كله شعبة من شعبهم...»
ويمضى بعد هذا إلى ذكر شيء من مذاهب سقراط وأفلاطون وأرسطو عن
جهل بهذه المذاهب:

موقف ابنه رشدهم المبرح والفلاسفة:

قضت حملة الغزالي على الفلاسفة في الشرق الإسلامي بل امتد طيها إلى
الغرب الإسلامي وأتى على التفكير الفلسفي عند أهله، ولما مات الحكيم الذي
بعث الحركة العلمية وأجزل لأهلها العطاء، خلفه ابنه هشام الذي اغتصب
ملكه الحاجب المنصور، وناهض العلم واضطهد العلماء والفلاسفة، وحاصر
قرطبة وأسقط قصر الخلفاء، وأمر بإحراق ما فيه من كتب الفلسفة والمنطق
والفلك، فأحرقت في ساحات قرطبة أو طرحت في آبارها، وبيع سائر
الكتب في الأسواق بأبخس الأثمان، وقد فعل هذا كله رغبة منه في استمالة

رجال الدين ويُرضى الشعب بعد اغتصابه الملك من هشام ، وليكون بهذا بطل الدفاع عن شريعة الناس ودينهم . ثم خلفه الخليفة عبد المؤمن الذي اجتمع في بلاطه أعظم فلاسفة العصر ، وفي طليعتهم ابن رشد ، فشجعه الخليفة على شرح كتب أرسطو ، فاستجاب له وكان الشارح الأعظم . . .

وكان علي ابن رشد أن ينتصف للفلسفة من هجمات الغزالي ، فوضع كتابه « تهافت التهافت » ليدحض به حملة الغزالي ، وليثبت إمكان التوفيق بين الدين والفلسفة ، فهد إلى هذا « بالاستدلال بالقرآن على وجوب النظر العقلي ، ومتى صح هذا وجب الانتفاع بتراث اليونان ، ومحاولة التوفيق بين حرفية النص وتراث العقل القديم ، بتأويل ظاهر النصوص وجعلها متمشية مع منطوق العقل السليم ، وقد وقف على هذه الغاية كتابيه : « فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال » و « الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الأمة » ومردّ الأمر في هذا إلى أن للآيات ظاهراً وباطناً ، ولا ينبغي أن نقف عند الظاهر حتى لا تتكشف العلاقة بين الدين والعقل عن تناقض وتنافر ، وإن كان من الخير للعامة أن يقفوا عند ظاهر النص ، لأن التأويل يضرهم ولا يجدى معهم قليلاً .

وقد حاول ابن رشد أن يوفق بين الوحي والعقل ، فصرح بأن للعقل ميداناً يحسن التفكير فيه ، فإن تجاوزه ضل سبيلاً ، ومن هنا مست الحاجة إلى الوحي الذي جاء متمماً للعقل ، فمن ذلك معرفة الله تعالى ، والسعادة والشقاء في الدنيا والآخرة ، وأسبابها ووسائلها . . . واتصال الإنسان بالعقل الفعال يسلم إلى هذه السعادة ، ويلهم العقل الحقائق ، وقد فصل ابن رشد في بيان طرق الاتصال وكيفيته ، فليرجع إلى كتاباته من شاء مزيداً .

وحاول ابن رشد أن يرد على الغزالي ، معنياً بالمسائل الثلاث التي كفر الفلاسفة من أجلها ، وهي إنكار بعث الأجساد ، وقدم العالم ، وقصر علم الله

على الكليات ، ولكن التوفيق قد أخطأه في ذلك ، وإن كانت المحاولة ذاتها كفيلة بتقدير صاحبها ، وإثابته على ما قدم من جهود طيبة^(١) .

محنة ابره رشر :

وقد خلف يعقوب الملقب بالمنصور أباه يوسف أبا يعقوب + ٥٨٠ هـ ، ورغم ما صادفه ابن رشد في رحاب هذا الخليفة من عطف وتقدير ، فقد ثارت الريب والظنون بعقيدته ، ومهد هذا لمحنته بعد ، وذلك أن المنصور قد أضمر له الشر ، فجمع كبار الفقهاء في قرطبة ، وعرض عليهم كتب ابن رشد ، توطئة لتعليقها أو تحريمها ، ويقول الأنصارى في وصف هذا المجلس :

« لما قرئت (فلسفة ابن رشد) بالمجلس ، وتداولت أغراضها ومعانيها ، وقواعدها ومبانيها ، خرجت بما دلت عليه أسوأ مخرج ، وربما ذيلها مكر الطالبين ، فلم يمكن عند اجتماع الملأ ، إلا المدافعة عن شريعة الإسلام ، ثم آثر الخليفة فضيلة الإبقاء ، وأغمد السيف التماس جميل العزاء ، وأمر طلبة مجلسه وفقهاء دولته بالحضور بجامع المسلمين ، وتعريف الملأ بأنه (ابن رشد) مرق من الدين ، وأنه استوجب لعنة الضالين . وأضيف إليه القاضى أبو عبد الله ابن ابراهيم الأصولى فى هذا الازدحام ، ولُفّ معه فى فريق هذا الملام . . . ثم أمر أبو الوليد (ابن رشد) بسكنى اليسانة (بقرب قرطبة وسكانها من اليهود) لقول من قال إنه ينسب فى بنى اسرائيل وأنه لا يعرف له نسبة فى قبائل الأندلس ، وتفرق تلاميذه أيدى سباً .

وفى المجلس السالف الذكر ، مثل القاضى أبو عبد الله ابن مروان المدعى العام ، إذ نهض برفع الدعوى على ابن رشد ، ثم نهض بتعريف الناس بالاتهام الخطيب أبو على بن حجاج ، ولم يدافع ابن رشد عن نفسه ، ولم ينهض لهذا الدفاع أحد من أصدقائه ؛ وبعد هذا صدر الحكم بنفيه على

(١) انظر تعليقتنا المنشور فى هامش س ٣١٠ و ٣١٣ فى ترجمتنا لفلسفة والاهليات

ما عرفنا ، ثم نشر الخليفة في الأندلس والمغرب منشوراً كتبه كاتبه أبو عبد الله ابن عياش لتحريم الفلسفة وإعدام كتبها واضطهاد رجالها ، وتحذير الناس من شرها كأنما كان قيام الفلسفة واشتغال المفكرين بها ، ونهوض العقل بأداء وظيفته الطبيعية في النظر العقلي ، مرهوناً بقرار يدعو إليه خصومها ، ويصدره من يستجيب اليهم من الحكام . . . !! وهذا هو نص المنشور :

منشور بتحريم الفلسفة :

« قد كان في سالف الدهر قوم خاضوا في بحور الأوهام ، وأقر لهم عوامهم بتفوق عليهم في الأفهام ، حيث لا داعي يدعو إلى الحى القيوم ، ولا حاكم يفصل بين المشكوك فيه والمعلوم ، فخلدوا في العالم صحفاً ما لها من خلاق ، مسودة المعاني والأوراق ، بُعدها من الشريعة بُعد المشرقين ، وتباينها تباين الثقلين ، يوهمون أن العقل ميزانها ، والحق برهانها ، وهم يتشعبون في القضية الواحدة فرّقا ، ويسيرون فيها شواكل وطرقا ، ذلك بأن الله خلقهم للنار ، ويعمل أهل النار يعملون ، ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ، ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ، ألا ساء ما يزرّون ! .
« ونشأ منهم في هذه السمحة البيضاء شياطين أنس يخادعون الله والذين آمنوا ، وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ، يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ، ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون ، فكانوا عليها أضر من أهل الكتاب ، وأبعد عن الرجعة إلى الله والمآب ، لأن الكتابي يجتهد في ضلال ، ويجد في كلال ، وهؤلاء جهدهم التعطيل ، وقصاراهم التمويه والتخييل ، دبت عقاربهم في الآفاق برهة من الزمان ، إلى أن أطلعنا الله سبحانه منهم على رجال ، كان الدهر قد أملى لهم على شدة حروبهم ، وأعنى عنهم سنين على كثرة ذنوبهم ، وما أملى لهم إلا ليزدادوا إثما ، وما أمهلوا إلا لياخذهم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علما .
« وما زلنا - وصل الله كرامتكم - نذكركم على مقدار ظننا فيهم ،

وندعوهم على بصيرة إلى ما يقربهم إلى الله سبحانه وتعالى ويدنيهم ، فلما أراد الله فضيحة عمائهم ، وكشف غوايتهم ، وقف بعضهم على كتب مسطورة في الضلال ، موجبة أخذ صاحبها بالشمال ، ظاهرها موشح بكتاب الله ، وباطنها مصرح بالإعراض عن الله ، ليس منها الإيمان بالظلم ، وجرىء منها بالحرب الزبون في صورة السلم ، مزلة للأقدام ، وهضم يدهم في باطن الإسلام ، أسياف أهل الصليب دونها مفلولة ، وأيديهم عما يناله هؤلاء مغلولة ، فانهم يوافقون الأمة في ظاهرهم وزبيهم ولسانهم ، ويخالفونهم بباطنهم وغيرهم وبهتانهم .

« فلما وقفنا منهم على ما هو قذى في جفن الدين ، ونكثة سوداء في صفحة النور المبين ، نبذناهم في الله نبذ النواة ، وأبغضناهم في الله كما أتانا نجب المؤمنين في الله ، وقلنا اللهم إن دينك هو الحق اليقين ، وعبادك هم الموصوفون بالمتقين ، وهؤلاء قد صدفوا عن آياتك ، وعمت أبصارهم وبصائرهم عن بيناتك ، فباعد أسفارهم ، وألحق بهم أشياعهم حيث كانوا وأنصارهم ، ولم يكن بينهم إلا قليل وبين الالجام بالسيف في مجال ألسنتهم ، والإيقاظ بحدة من غفلتهم وسنتهم ، ولكنهم وقفوا موقف الخزي والهون ، ثم طردوا من رحمة الله ، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون .

« فاحذروا — وفقكم الله — هذه الشرذمة على الإيمان ، حذرکم من السموم السارية في الأبدان ، ومن عُثر له على كتاب من كتبهم ، فجزاؤه النار التي بها يعذب أربابه ، وإليها يكون مآل مؤلفه وقارئه ومآبه ، ومتى عثر منهم على مُجدد في غلوائه ، سم عن سبيل استقامته واهتدائه ، فليعاجل بالتشقيف والتعريف .

« ولا تركزوا إلى الذين ظللوا فتمسك النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون — أولئك الذين حبطت أعمالهم — أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون .

« والله تعالى يطهر من دنس الملحدين أصقاعكم ، ويكتب في صحائف الأبرار تضافركم على الحق واجتماعكم ، إنه منعم كريم ، .

هذا هو المنشور الذي ظن مصدره والمروجون له أنهم بهذا قد قضوا على الفلسفة وأعدموها كتبها وأزالوا من الوجود المشتغلين بها ، فكتب للفلسفة الخلود ولخصومها الفناء . وقد نكب مع ابن مرشد أبو جعفر الذهبي والقاضي عبد الله بن ابراهيم الأصولي ، وأبو الربيع السكيف وأبو العباس الشاعر . . . وقد نفاهم المنصور إلى غير المنفى الذي استقر فيه ابن رشد .

يقول الذهبي إن المنصور قد كتب إلى البلاد يأمر بإحراق الكتب ، إلا ما كان منها في الطب والحساب والمواقيت ، وقد استيقظ الشعر وأيد نار الفتنة ، فسار أهله في ركاب هذه الحملات ، ومن ذلك قول ابن جبير :

لم تلزم الرشديا بن رشد لما علا في الزمان جدك
وكنت في الدين ذا رياء ما هكذا كان فيه جدك

ويقول :

نقد القضاء بأخذ كل مؤه متفلسف في دينه متزندق
بالمنطق اشتغلوا فقبل حقيقة إن البلاء موكل بالمنطق

ويقول :

خليفة الله أنت حقا فارق من السعد خير مرق
حميتم الدين من عداه وكل من رام فينا فتقا
أطلعك الله سر قوم شقوا العما بالنفاق شقا
تفلسفوا وادعوا علوما صاحبها في المعاد يشقى
واحتقروا الشرع وازدروه سفاهة منهم وحمقا
أوسعتهم لعنا وخزيا وقلت بعداً لهم وسحقا
فابق لدين الإله كهفا فإنه ما بقيت يبق

ويقول :

بلغت أمير المؤمنين مدى المنى لأنك قد بلغتنا ما تؤمل
قصدت إلى الإسلام تعلى مناره ومقصداً الأسنى لدى الله يقبل
إلى أن يقول :

وأوعزت في الأقطار بالبحث عنهم وعن كتبهم والسعى في ذلك أجمل
وقد كان للسيف اشتياق إليهم ولكن مقام الخزي للنفس أقتل
كانت هذه المحنة انتصاراً لرجال الدين على أهل الفلسفة في هذه الفترة
من الزمن كما لاحظ رينان من قبل ، وإن كان انتصاراً لم يكن في حكم العقل
أن يكتب له الدوام ! وقد طال الأمد الذي ركبت فيه ربح الفلسفة في العالم
الإسلامي ، ولكن قد آن لها أن تبعث من جديد .

ويقول ابن رشد إن أعظم ما آلمه في محتته أنه دخل مع ابنه مسجداً
في قرطبة وقد حانت صلاة العصر ، فثار بعض سفلة العامة وأخرجوهما من
المسجد . . ! فإن صح هذا استبعد ما قيل من أنه فر من منفاه إلى فاس ،
وأن أهلها أمسكوه ونصبوه أمام باب المسجد ، للبصق عليه عند الدخول
والخروج .

على أن محتته لم يطل أمرها ، فقد استجاب الخليفة لمسعى الوسطاء ، فعفى
عنه وعن أصحابه ورضى عن الفلسفة وألغى منشور تحريمها والتنكيل برجالها .
وقد رد رينان Renan هذه المحنة وأمثالها من وجوه الاضطهاد الذي
عاناه أحرار الممكر ، إلى تعصب الموحدين ، وصرح بأنهم يتصلون بمدرسة
الغزالي اتصالاً مباشراً ، وأن المهدي مؤسس دولتهم في أفريقيا كان يتلذذ على
حجة الإسلام .

وقد لاحظ المستشرقون من قبل أن الفلسفة قد تلاشت في العالم الإسلامي
بعد ممات ابن رشد (٧٩٥ هـ - ١١٩٨ م) فلم يعرف تاريخ الفلسفة واحداً
من تلامذته ، قد واصل فلسفته فيما يقول « دى بوير » ، ولم يعرف العالم
الإسلامي منذ مطلع القرن الثالث عشر فيلسوفاً مشائياً خالصاً ، بل عرف

مفكرين دينيين كالإيجي صاحب المواقف فيما يقول « مونك » . وفقدت الفلسفة الإسلامية بموت ابن رشد آخر ممثليها في الإسلام كما يقول « رينان » ، وقد مكنت مكانة الغزالي لحملة على الفلاسفة ، وكان لها خطرهما المروّع على العقل في نفوس الناس ، وكان العالم الإسلامي مهيناً لقبولها ، فأسلس لها قياده زمناً طويلاً ، حتى أفاق وزايله النعاس .

فتوى ابنه الصريح بتحريم الفلسفة والمنطق :

وقد ظهرت مبالغة المتأخرين من رجال الدين في النفور من الفلسفة ، وكرهية الاشتغال بعلومها ، والتبرم برجالها من القرن السابع للهجرة ، واتصل العنف في معارضة المنطق باسم محدث معروف منذ بدء الانحلال ، هو كمال الدين بن يونس الموصلى الذى عاصر ابن خلكان وكان واسع العلم بالأديان والرياضيات والطبيعات والعلوم الفلسفية والأديان ونحوها ، وكان ممن يختلفون إليه ويتلقون عنه : ابن الصلاح الشهرزورى + ٦٤٣ هـ الذى أصبح من أكبر أئمة الحديث بعد ذلك ، فقد رحل إلى الموصل ليتعلم عليه المنطق سراً ، وعلى غير جدوى كان تحصيله ، فقال الشيخ لتلميذه : « يافقيه ، المصلحة عندى أن تترك الاشتغال بهذا الفن ، فقال له « ولم ذلك يا مولانا ؟ قال « لأن الناس يعتقدون فيك الخير وهم ينسبون كل من اشتغل بهذا الفن إلى فساد الاعتقاد ، فكأنك تفسد عقائدهم فيك ، ولا يُحَصِّل لك من هذا الفن ، واستجاب ابن الصلاح لرأيه ، فترك الاشتغال بالمنطق وخاصمه باسم الدين خصاماً عنيفاً ، وبدا هذا في فتواه المعروفة التى أجاب بها عن سؤال هذا ملخصه : هل الشارع قد أباح الاشتغال بالمنطق تعليماً أو تعليمياً ، وهل يجوز أن تستعمل الاصطلاحات المنطقية فى إثبات الأحكام الشرعية ؟ وماذا يجب على ولى الأمر فعله بإزاء شخص من أهل الفلسفة معروف بتعليمها والتصنيف فيها وهو مدرس فى مدرسة من المدارس العامة . . ؟ فأجاب ابن الصلاح قائلاً : الفلسفة أس السّفه والانحلال ، ومادة الحيرة

والضلال ، ومثار الزينغ والزندقة ، ومن تفلسف عميت بصيرته عن محاسن الشريعة المطهرة ، المؤيدة بالحجج الظاهرة والبراهين الباهرة ، ومن تلبس بها تلعماً قارنه الخذلان والحرمان ، واستحوذ عليه الشيطان ، وأى فن أخزى من فن يعمى صاحبه ويظلم قلبه عن نبوة نبينا

وأما المنطق فهو مدخل الفلسفة ، ومدخل الشر شر ، وليس الاشتغال بتعليمه وتعلمه مما أباحه الشرع ، ولا استباحه أحد من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين والسلف الصالحين ، وسائر من يُقتدى بهم من أعلام الأمة وساداتها ، وأركان الأمة وقاداتها ، قد برأ الله الجميع من ذلك وأدناسه فظهرهم من أوصابه . وأما استعمال الاصطلاحات المنطقية في الأحكام الشرعية فمن المنكرات المستبشعة والرقاعات المستحدثة ، وليس بالأحكام الشرعية - والحمد لله - افتقار إلى المنطق أصلاً . وما يزعمه المنطق للهنطق من أمر الحد والبرهان فقعا ، قد أغنى الله عنها كل صحيح الذهن لاسيما من خدم نظريات العلوم الشرعية . ولقد تمت الشريعة وعلومها ، وخاض في بحر الحقائق والدقائق علماؤها ، حيث لا منطق ولا فلسفة ولا فلاسفة . ومن زعم أنه يشتغل مع نفسه بالمنطق والفلسفة لفائدة يزعمها ، فقد خدعه الشيطان ومكر به ، فالواجب على السلطان أن يدفع عن المسلمين شر هؤلاء المياشيم (لعلها المشائيم) ويخرجهم عن المدارس ويبعدهم ، ويعاقب على الاشتغال بفهمهم ، ويعرض من ظهر منه اعتقاد عقائد الفلاسفة على السيف أو الإسلام ، لتخمد نارهم وتمتجى آثارها وآثارهم ، يسر الله ذلك وعجله ومن أوجب هذا الواجب ، عزل من كان مدرس مدرسة من أهل الفلسفة والتصنيف فيها والإقراء لها ، ثم سجنه وإلزامه منزله ، وإن زعم أنه غير معتقد لعقائدهم ، فإن حاله يكذبه ، والطريق في قلع الشر قلع أصوله ، وانتصاب مثله مدرسا من العظام جملة ، والله تعالى ولي التوفيق والعصمة وهو أعلم .

وقد سئل ابن الصلاح يوماً عن حكم الشرع فيمن يدرس ابن سينا ومصنفاته ، فقال : إن من فعل ذلك فقد غدر دينه وتعرض للفتنة العظمى . .

لأن ابن سينا لم يكن من العلماء ، بل كان من شياطين الإنس ا .

أثر فتوى ابنه الصراح فبهمه نراه :

هذه هي الفتوى التي وضعها صاحبها ليُنسَهِنِه من جموح الفلسفة ويطامن من شرها ، فأضحت وثيقة عند أهل السنة ، يستندون إليها كلما هموا بمهاجمة الفلسفة والمنطق ، ومالوا إلى اضطهاد المشتغلين بهما ، وفي الحق لقد ناءت الفلسفة بعبء هذه الحملات ، التي أنقضت ظهرها ، وأخرجت صدرها ، وشتتت أتباعها ، وملأت قلوب الناس ضيقاً بها وسخطاً على أهلها . ولعلنا لاحظنا من خلال هذه الفتوى ، عند الحديث عن استخدام المنطق في الأحكام الشرعية ، أن ابن الصلاح يعرض بالغزالي الذي أدخل في هذه الأحكام مناهج المنطق .

والنغمة التي نلاحظها في هذه الفتوى قد ترددت في أقوال من خاصموا الفلسفة بعد ذلك ، ومن هؤلاء طاش كبرى زاده + ٩٦٢ هـ (١٥٥٤-٥٥) الذي يقول في «مفتاح السعادة ومصباح السيادة» : « وإياك أن تظن من كلامنا هذا أو تعتقد أن كل ما أطلق عليه اسم العلم ، حتى الحكمة المموهة التي اخترعها الفارابي وابن سينا ، ونقحه نصير الدين الطوسي ، ومدوحا ، هيئات هيئات ، إن ما خالف الشرع فهو مذموم ، سيما طائفة سموا أنفسهم حكماء الإسلام ، عكفوا على دراسة ترهات أهل الضلال ، وسموها الحكمة ، وربما استهجنوا من عرى عنها ، وهم أعداء الله وأعداء أنبيائه ورسله ، والمحرفون كالم الشريعة عن مواضعه قيل (فيهم) :

وما انتسبوا إلى الإسلام إلا لصون دماهم عن أن تسالا

فيأتون المناكر في نشاط ويأتون الصلاة وهم كسالى

فالحذر الحذر منهم ! وإنما الاشتغال بحكمتهم حرام في شريعتنا ، وهم أضر

على عوام المسلمين من اليهود والنصارى ، لأنهم متسترون بزى الإسلام ... الخ

ومن آثار فتوى ابن الصلاح ، ما أصاب الأمدى + ٦٣١ من جراء

اتهامه بالاشتغال بالفلسفة والمنطق ، فقد كان واسع الاطلاع في العلوم الدينية والعلوم القديمة على السواء ، وقد نزل في القاهرة وتولى تدريس العلوم الشرعية فيها ، ولكن شهرته بالاشتغال بالفلسفة (المنطق بوجه خاص) قد آذته كثيرا ، رغم أنه كان لا يدخل شيئا من العلوم الفلسفية في دروسه ! حين اتهم بأنه فاسد العقيدة يقول بالتعطيل ويذهب مذهب الفلاسفة . وقد كتب بهذا محضر وقع عليه الكثيرون ، وأعلنوا فيه استباحة دمه ، فيما يروى ابن خلكان . . . ولكنه فر إلى الشام ، وقام بالتدريس في مدرسته بدمشق ، فاتهم بمثل ما اتهم به في القاهرة ، وعزل من منصبه . . !

حرم المنطق على المؤمنين بعد فتوى ابن الصلاح ، ولكن اشتغال الغزالي به ، قد ألان من أحكام خصومه على المشتغلين به ، فمن ذلك أن تاج الدين السبكي الشافعي + ٧٧١ هـ كان خصيماً عنيداً للفلسفة حتى جره هذا إلى معاداة المتأخرين من المتكلمين الذين مزجوا كلامهم بكلام الفلاسفة ، ! وحمله على أن يوافق من غير قيد ولا شرط فيما يقول في « مفيد النعم ومبيد النقم » ، على ما أفتى به جماعة من أئمتنا ومشايخنا ومشيخة مشيختنا بتحريم الاشتغال بالفلسفة ، ومع هذا يرى إمكان الاشتغال بالمنطق متى اطمأن المشتغل به على قواعد الشريعة في قلبه .

علاء ابن تيمية وابنه قسيم الجوزية للفلسفة :

ولا يملك الباحث في هذا الموضوع أن يغفل عن ذكر ابن تيمية الحنبلي الكبير + ٧٢٩ هـ في عدائه المرير للفلسفة ، وقد بدا هذا في مؤلفاته ، ولا سيما « الرد على عقائد الفلاسفة » ، و « نصيحة أهل الإيمان في الرد على منطق اليونان » ، وهو الذي لخصه السيوطي بعد ذلك وسماه « جهد القريجة في تجديد النصيحة » ، وزاد فألّف « صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام » ، واتجه في هذه المباحث كلها إلى تحريم الاشتغال بالمنطق .

وقد جرى ابن قيم الجوزية + ٥٧١ هـ مجرى أستاذه ابن تيمية في عدائه للفلسفة ، ولكنهما كانا - فيما يقول أستاذنا الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق - « من اتصل بها - بالفلسفة - وألمَّ بعلومها فيما ألما به من مختلف العلوم ، وأسلوبهما في النقد والجدل عنيف ، غير أن نفحات النظر العميق والاطلاع الواسع تخفف من لدغ أسلوبها » .

وقد عرض ابن قيم في « مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والارادة ، لنقد العلوم الفلسفية والإبانة عن تهافت المنطق وقلة جدواه ، وأشار في حديثه إلى صلته بالدين وحكم الشرع في تعلمه ، وما قاله في ذلك :

واعجباً لمنطق اليونان	كم فيه من إفك ومن بهتان
مخبط لجيد الأذهان	ومفسد لفطرة الإنسان
مضطرب الأصول والمباني	على شفا هارٍ بناه الباني
أحوج ما كان إليه العاني	يخونه في السر والإعلان
يمشى به اللسان في الميدان	مشى مقيد على صفوان
متصل العثار والتواني	كأنه السراب بالقيعان
بدا لعين الظمىء الحيران	فأمته بالظن والحسبان
يرجو شفاء غلة الظمان	فلم يجد ثم سوى الحرمان
فعاد بالحية والحسران	يقرع من نادم حيران
قد ضاع منه العمر في الأمانى	وعاين الخفة في الميزان

ثم يعود إلى مهاجمته للمنطق نثراً حتى يقول « وما دخل المنطق على علم إلا أفسده وغير أوضاعه وشوش قواعده » .

قيام الفلسفة في الإسلام رعم سموات فصوصها :

ولكن من الإنصاف أن نقول بعد هذا كله ، ما قاله « جولدتسيهر » ، من قبل « من أن رأى المتعصب الذى قضى بتحريم المنطق ، لم يقدر له التوفيق فى السيطرة على الدراسات الدينية الإسلامية ، فقد احتلت متون

المنطق - للأبهري والكاتبى والأخضرى وغيرهما - مكاناً فى التدريس إلى جانب العلوم الإسلامية ، ويشهد هذا بأن معارضة المتعصبين فى مهاجمة المنطق قد ذهب هباء ، بل استند علم الكلام فى إقامة قواعده ومقدماته وتطوره إلى الفلسفة الأرسطاطالية - ولا سيما منذ أيام الفخر الرازى + ٦٠٦ هـ . وما أكثر ما وضع فى المنطق حديثاً من فنون وشروح وتعليقات ومنظومات ؛ ومثل هذا يقال فى غير المنطق من علوم الأوائل ، وهذا هو الشاهد العدل على أن تزمت غلاة المتعصبين من رجال الدين لم يقض على الدراسات الفلسفية ، وإن كان قد مكّن لإيذاء بعض المشتغلين بها ، ثم إن رجال السنة فى أيامنا الحاضرة لا يقاومون العلوم الفلسفية فى وضعها الراهن ، ولا يميلون إلى معارضتها والسخط عليها - فيما يقول جولدتسيهر .

ولم يمنع تزمت المتطرفين من ظهور أمثال زكريا الرازى الذى هاجم الأديان والكتب المقدسة ، وتناول على القرآن الكريم ، وصرح بإبطال النبوة ، بل لم يحل هذا التزمت دون ظهور ابن الراوندى - فى القرن الثالث للهجرة - بإلحاده المفجع ، كما بدا فى كتابه الزمرد الذى كشفه پاول كراوس ، وغير هذا من آثاره التى هاجم فيها النبوة والقرآن ، واعتز بالعقل وجعله أداة للمعرفة الوحيدة ، والحكمم الثقة حتى فى شئون الدين (١) .

لم تؤثر الحملات التى شنّها على التفكير الفلسفى المتزمتون من أهل السنة ، لأن الدين الإسلامى فى أصله لا يعوق طلاقة النظر العقلى ، ولا يعرقل حريته ، ولو كانت تقاليد الإسلام تميل أصلاً إلى التنكيل بأحرار الفكر ، لحالت دون هذا حاجة المتعصبين إلى « سلطة » تمكنهم من اجتياح خصومهم ، والسير على جثثهم ؛ وقد خلت الآيات القرآنية والمعتمد من الأحاديث

(١) انظر فى تفصيل موقف هذين الملاحدين كتاب زميلنا الدكتور عبد الرحمن بدوى

النبوية من نص يشجع على عرقلة الفكر الحر والتسكيل بأهله ، وسنعرف بعد قليل علة الاضطهاد في بعض ما عرفنا من حالات .

على أن تيار الحركات العقلية في العالم الإسلامي قد اشتد في عهده الأخير ، فأخذ المستنيرون من رجال الدين يسرون في اتجاهه ، ويتمشون مع مقتضياته ، وقد استلزم هذا النوع منهم ، أن يعملوا على التوفيق بين المبادئ الجديدة وتعاليم الدين ، وإلى مثل هذا ذهب محمد عبده والسكواكي ، محمد بن حيت ومحمد فريد وجدى والغلايينى وغيرهم . . . وطريقتهم في التوفيق تبدو في أكثر الأحيان في تأويل الآيات القرآنية تأويلاً يرهق ألفاظها بمعان يبدو أنها لا تطبقها ، فمن ذلك قول السكواكي (١) إن الآية « ألم تر إلى ربك كيف مدّ الظل ولو شاء لجعله ساكناً وجعل الشمس عليه دليلاً ، تتضمن — هذه الآية — اختراع آلة التصوير — الفوتوغرافيا ، ! وقوله تعالى : « وخلقنا لهم من مثله ما يركبون ، فيه إشارة إلى اختراع البخار والكهرباء ! وقوله « كل شيء عنده بمقدار ، إشارة إلى أن التغيير في التركيب الكيماوى والمعنوى ينشأ عن اختلاف نسبة المقادير ! وإلى مثل هذا ذهب الغلايينى (٢) ، حين قال : إن قوله تعالى « صنّع الله الذى أتقن كل شيء ، إقرار لقانون السببية ! ! وقوله تعالى « يكور الليل على النهار ، دليل على كروية الأرض ! وقوله « وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمرّ مرّ السحاب ، دليل على دوران الأرض ! . . . الخ وقد ردّدنا على هذا النزوع ، فى كتاب لنا (٣)

موقف القرآنة الكبريم منه مربية النظر العقلى :

تحدثنا فى الفصل الأول من هذا الكتاب عن موقف المفكرين من الأناجيل ، ورأينا كيف يتهم أمثال « درابر » W. Draper و « بيورى » Bury الكتاب المقدس بأنه أمد رجال الدين فى إعاقه النظر العقلى الحر

(١) السكواكي : طبائع الاستبداد ومصادر الاستعباد ص ٣٥

(٢) الغلايينى : الاسلام روح المدنية ص ١٩ وما بعدها

(٣) النفوذ بالغيب عند مفكرى الاسلام ص ٣٥ — ٣٦

والحيلولة دون انطلاقه ، وعرفنا مدى ما في اتهامهم من باطل ؛ وقد وجه بعض المفكرين مثل هذا الاتهام للقرآن الكريم ، ومن هؤلاء « تمان » ،
G. Th. Tennemann خليفة بروكر الألماني J. Brücher أبي تاريخ الفلسفة
V. Cousin فيما يقول فكتور كوزان

عرض تمان لبيان العقبات التي عاقت العقل العربي (الإسلامى) عن التفكير الفلسفى ، وردّها إلى أسباب دينية وقومية ، وفسر الأولى بأنها :
القرآن « الذى يعوق النظر العقلى الحر ، وحزب أهل السنة الذى يستمسك بحرفية النصوص .

ويعلق على هذا رأى أستاذنا الشيخ الأكبر فيقول : « وقد لا يخلو حديث تمان من العوامل المثبطة لرقى الفلسفة عند العرب من نغمة العاطفة الدينية ، وتلك كانت يومئذ روح العصر ، حتى عند الفلاسفة المشتغلين بتاريخ الفلسفة . . . » ، ويعضف إلى هذا عنصر تعصب جنسى على العرب تبدو بوادره فى كلام تمان ، وهو التعصب الذى زخرف له « ارنست رنان E. Renan ثوباً علمياً من أبحاثه فى تاريخ اللغات السامية ، . . . ويعرض الأستاذ رأى غيره من مؤرخى الفلسفة ، ومن بينها رأى « منك » S. Munk الذى يرى أن الفلسفة العربية قد « تقلبت فى جميع الأدوار التى مرت بها فى العالم المسيحى ، وفى هذا مخالفة لقول تمان إن الكتاب المقدس يعوق النظر العقلى الحر ، إذ يثبت « منك » ، « أن الإسلام ليس دون المسيحية اتساعاً لنمو الفلسفة وتطورها ، .

وإذا كان تمان قد رأى فى القرن الغابر رأى السالف بصدد القرآن ، فقد وجد فى مطلع القرن الحاضر أمثال جوتيه L. Gauthier الذى « يقرر الحدود بين العقل السامى والعقل الآرى حتى لا تتلاقى منازعهما ، ثم بين أن الإسلام دين قوى فى ساميته جداً ، فلا يمكن تصور نظام أشد منه معارضة للفلسفة اليونانية القوية فى آريتها جداً ، وأنه كان أول واجب على الفلاسفة المسلمين أن يوقفوا بين هذين التيارين . . . » ، ولكن أكثرية العلماء فى القرن

الحاضر لا يؤيدون مثل هذا الاتجاه بصدد الإسلام ، فقد « تلاشى القول بأن الإسلام وكتابه المقدس كانا بطبيعتهما سجناً لحرية العقل وعقبة في سبيل نهوض الفلسفة أو كاد يتلاشى » ، ويدلل على هذا بنصوص لعلماء آخرين .
لم يكن عند العرب عند نزول القرآن للفلسفة معناها الدقيق ، فلنعرض موقف القرآن من حرية الجدل والبحث مجملاً فيما يلي (١) :

كان العرب عند ظهور الإسلام « يتشبثون بأنواع من النظر العقلي تشبه أن تكون من أبحاث الفلسفة العلمية لاتصالها بما وراء الطبيعية من الألوهية بوقدم العالم أو حدوثه ، والأرواح والملائكة والجن والبعث ونحو ذلك ، وكانوا حين نزول القرآن في منازعة وجدل في العقائد الدينية ، وكان البحث في إرسال الرسل والحياة الآخرة وبعث الأحياء من الموت موضع الأخذ والرد على الخصوص بين النحل المتباينة ، وقد جاء القرآن يقرر أن الدين الحق واحد ، وحى الله إلى جميع أنبيائه وهو عبارة عن الأصول التي لا تتبدل بالنسخ ولا يختلف فيها الرسل ، وهي هدى أبداً ، أما الشرائع العملية فهي متفاوتة بين الأنبياء وهي هدى ما لم تنسخ ، فاذا نسخت لم تبق هدى
والإسلام يجمع بين الدين والشريعة ، أما الدين فقد استوفاه الله كله في كتابه الكريم ، ولم يكمل الناس إلى عقولهم في شيء منه ، وأما الشريعة فقد استوفى أصولها ثم ترك للنظر الاجتهادي تفصيلها ، جاء في القرآن المجيد : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً » ، وهذا هو تفسير الطبري والشاطبي والشافعي للآية ، وبهذا وُجد الاجتهاد بالرأى أصلاً من أصول الإسلام .

وقد كان « على القرآن أن يجادل مخالفيه من أرباب الأديان والملل في العرب رداً للشبهات التي كانوا يثيرونها حول عقائد الدين الجديد ، على

(١) وتفصيل ما سبقته مجملاً مع تأييده بالآيات القرآنية في الفصل الأول من القسم الثاني من كتاب الأستاذ الأكبر « تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية » .

أنه كان لا يمد في حبل الجدل حرصاً على الألفة ، وكثيراً ما تختم آيات الجدل بمثل قوله (إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه مختلفون) وقوله (وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون ، الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون) وقوله (ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) وهذا الجدل في العقائد عرض له القرآن للحاجة وعلى مقدارها ، من غير أن يشجع المسلمين على المضى فيه ، بل هو قد نفرهم منه . . . ودعا القرآن إلى الأخذ في هذا الجدل برفق عند الحاجة إلى الجدل . . . وإذا كان القرآن قد نفر المسلمين من الجدل في أمور العقائد ، فإن القرآن قد ذكر الحكمة التي كانت معروفة عند العرب ، وكانت شرفاً لأهلها وجاهاً ، وأثنى عليها وشجع على حياتها ونموها ، وقد كان لهذه المعاني الدينية التي قررها الإسلام منذ نشأته ، أثرها العظيم في توجيه النظر العقلي عند المسلمين في عهدهم الأول ، فسكروها البحث والجدل في أمور الدين دون أمور الأحكام الفقهية .

وقد كان المسلمون في الصدر الأول ، يرون الأسيل لتقرير العقائد إلا الوحي ، أما العقل فعزول عن الشرع وأنظاره ، كما يقول ابن خلدون في مقدمته وابن تيمية في النبوات ، وكانوا يرون أن التناظر والتجادل في الاعتقاد يؤدي إلى الانسلاخ من الدين ، من أجل ذلك كان المسلمون عند وفاة النبي صلى الله عليه وسلم على عقيدة واحدة إلا من كان يبطن النفاق ، ولم يظهر البحث والجدل في مسائل العقائد أو في أيام الصحابة ، حين ظهرت بدع وشبه اضطروا المسلمون إلى مدافعتها . . . ومن ثم تفرقت الفرق ونشأ علم الكلام حجاجاً للبتدعة الحائدين عن طريق السلف والمخالفين للدين ، ونشأ على أنه ضرورة تقدر بقدرها .

د أما النظر العقلي في المسائل الشرعية فقد نشأ في الإسلام مؤيداً من الدين ، وقد ورد في الكتاب والسنة الثناء على الحكمة والحكم والتنويه بفضلهما ، فهد ذلك لاتعاش النظر العقلي في الشئون العملية ، وهو نوع من التفكير

كانت العرب مستعدة لنموه بينها . . . وحدث الاجتهاد في التشريع الإسلامي منذ عهد الإسلام الأول في كنف القرآن بترخيص من الرسول عليه السلام . . . وهذا الاجتهاد بالرأى في الأحكام الشرعية هو أول ما نبت من النظر العقلي عند المسلمين ، وقد نما وترعرع في رعاية القرآن وبسبب من الدين ، ونشأت منه المذاهب الفقهية ، وأينع في جنباته علم فلسفي هو علم « أصول الفقه » ونبت في تربته التصوف أيضاً ، وذلك من قبل أن تفعل الفلسفة اليونانية فعلها في توجيه النظر العقلي عند المسلمين ، إلى البحث فيما وراء الطبيعة والإلهيات على أنحاء خاصة . . وكان التشريع في عهد النبي « يقوم على الوحي من الكتاب والسنة ، وعلى الرأى من النبي ومن أهل النظر ، والاجتهاد من أصحابه بدون تدقيق في تحديد معنى الرأى وتفصيل وجوهه ، وبدون تنازع ولا شقاق بينهم ، حسبنا الآن هذا تصويراً لموقف القرآن من البحث والجدل نقلاً عن مصدر موثوق لا يرتقى إليه إتهام .

نرى مما أسلفناه أن القرآن قد بغض المؤمنين في البحث والجدل في أمور الدين ، دون أمور الأحكام الفقهية ، ومن هنا نشأ في الإسلام القياس والاجتهاد بالرأى .

وقد كان طبيعياً بعد هذا — فيما يبدو لنا — أن يضيق رجال الدين بالنظر العقلي الحر متى امتد إلى العقائد الدينية وأخذ في بحثها ، أو تناول بالدراسة العقلية موضوعاتها ، وانتهى في أمرها إلى غير ما يألف رجال الدين ، ولعل هذا قد شجع على ضيقهم بالفلسفة وسخطهم على أهلها .

والحق « أن ليس في طبيعة الإسلام — ولا في طبيعة المسيحية — ما يدعو إلى الاضطهاد ولا إلى محاربة الجديد ولا إلى مناهضة حرية الرأى ، ولك أن تقرأ القرآن — والأنجيل — وتمعن في القراءة ، ولك أن تبحث وتمعن في البحث فلن تجد نصاً أو شبه نص ينكر التجديد ويدعو إلى مناهضته

أو يأخذ العقول بالجمود أو يحظر عليها حرية الرأي قليلاً أو كثيراً ، فيما يقول طه حسين (١) .

بل لقد روى بعض أئمة ورجاله ، أن من أصول الإسلام : النظر العقلي لتحصيل الإيمان ، وتقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض ، والبعد عن التفكير (فإذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مئة وجه ، ويحتمل الإيمان من وجه واحد ، حمل على الإيمان ، ولا يجوز حمله على الكفر !) ثم إلغاء السلطة الدينية (٢) (فليس لأحد بعد الله سلطان ، والخليفة ليس موضع عصمة ولا مهبط وحى) .

وقد هيأت هذه الأصول السبيل لحرية العقل في أكثر عصور الإسلام ، حتى عاش غير المسلمين من العلماء والعالم الإسلامي وهم موضع رعاية وإكبار ، وليس بنا من حاجة إلى تفصيل القول في هذا الذي ذاع وانتشر ، فإن صح هذا فلماذا عرف المسلمون الإسلامى اضطهاد المفكرين في بعض مراحل تاريخه . . ؟

وأجمل ما في موقف القرآن المجيد بصدد الحرية العقلية ، قوله تعالى في سورة البقرة : « لا إكراه في الدين ، قد تبين الرشد من الغي » ، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله ، فقد استمسك بالعروة الوثقى ، لا انفصام لها والله سميع عليم ، وقوله في سورة الكهف : « وقل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ، وبهذا أطلق القرآن الكريم حرية النظر ، وسجل على المتزمتين اثم ما يفعلون وجعل رسول الله مبلغاً ومذكراً ، لا مسيطراً ومهيمناً » فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر ، وبهذا

(١) طه حسين : من بعيد ص ٢٢٠ وفي القرآن الكريم عشرات الآيات التي تحض على التأمل والفكر والنظر .

(٢) الاستاذ الامام محمد عبده : الاسلام والنصرانية (جعل الاصول ثمانية ، وجعلها الاستاذ محمد فريد وجدى في الطبعة الخامسة من كتابه : المدنية والاسلام اثني عشر أصلاً وأيدها بفيض من الاحاديث النبوية والآيات القرآنية فليرجع إليها من شاء .

كله خلا الإسلام من شيء اسمه السلطة الدينية ، والخليفة لا يحتكر تأويل الكتاب والسنة ولا يعتبر معصوما من الخطأ ، فإن زل وجب تقويمه « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، فيما يقول الحديث النبوي .

تفسير الاضطهاد في الاسلام :

مردّ هذا الاضطهاد فيما نعلم ، إلى أسباب سياسية أو شخصية ، ونعني بالأخيرة حسد العلباء للمتفوقين منهم ، وضيقهم بشهرة غيرهم وذيوخ اسمهم ، وقلقهم من ظهور رأى جديد لم يألفوه ، وحرصهم على رأى قديم ثبتوا عليه وآمنوا بصحته ، فحب القديم لقدمه ، وكرهه الجديد لجدته ، فطرة فطر الناس عليها من قديم الزمن ، ثم طبيعة المعتقد الديني في نفوس أهله — على ما عرفنا في الفصل الأول — لأن الإيمان كثيراً ما يسلم إلى التزمت ، والتزمت لا يستقيم مع إطلاق الحرية للعقل ، وتقبّل كل رأى يتكشف عنه البحث والنظر . وهذا بالإضافة إلى ضيق الأفق وضآلة التفكير عند هؤلاء المتزمتين . أما الأسباب السياسية فنعني بها انسياق الحكام في ركب الرأى العام ، ومسايرتهم لشعور الجماعات ، وتمشيهم مع عقلية الجماهير — وقد يفعل هذا نفسه رجال الدين — اكتساباً للسمعة الطيبة بين الناس — وهذا بالإضافة الى جهل الجماهير وسرعة تأثرها وانسياقها إلى حيث تتوهم الجهاد في سبيل الله ، يضاف الى هذا كله ما يبدو في كتابات بعض الفلاسفة من جموح لا يستقيم مع قواعد الدين ، وما أشيع عن سلوكهم وأقوالهم — إن حقاً وإن باطلاً — مما لا يتفق مع احترام الدين وتوقير مبادئه .

فلنعرض نماذج من أسباب هذا الاضطهاد فيما عرفنا من حالاته :

كثيراً ما كان المضطهد من الفلاسفة تترجح حياته بين عطف الحاكم وسخطه ، يخضع في هذا المدى استجابة الحاكم لوشاية خصومه وحساده ، ووساطة أصدقائه وأتباعه ، ويفسر هذا محنة محمد بن عبد السلام الملقب بركن الدين ، ، ونكبة أبي الوليد بن رشد ، وقد عرفنا أثرهما من قبل ، فأما

الأول فردّ محاكمته - فيما يروى جولدتسيهر نقلا عن ابن رجب في مخطوطه عن طبقات الحنابلة - إلى انتقام الوزير بن يونس ، من حفيد عبد القادر الجيلاني الذي آذاه أولاده إيذاء شديداً ، وهذا بالإضافة إلى مؤامرات أبي الفرج بن الجوزي خصم عبد السلام العنيد . وقد أشرنا إلى أن مدرسة عبد القادر قد انتزعت من يد حفيده عبد السلام أثناء محتته ، ولكنها ردت إليه بعد ممات الوزير ابن يونس ، وأمضى عبد السلام « بقية حياته في رضى من الخليفة تارة ، وسخط تارة أخرى » .

ومثل هذا يقال في تفسير التكبّة التي أصابت ابن رشد ، فإن مردها على اختلاف أقوال الرواة لا يكاد يخرج عما أسلفناه ، فمن ذلك ما يقال من أنه كان يؤثر أبا يحيى على أخيه الخليفة المنصور ، ومنها أنه عرض بالمنصور فكتب بخطه يقول « رأيت الزرافة عند ملك البربر ، وهمّ المنصور بسفك دمه لولا وساطة أبي عبد الله الأصولي الذي أوهمه أنهم « ملك البرين » (أى الأندلس والمغرب) . ومنها أنه استفاض بين الناس في الشرق والأندلس أن ربحاً عاتية - فيما تقول إحدى المنجمات - ينتظر أن تهب في يوم كذا ، فيهلك الناس ، وأثار هذا النبأ جزع الجماهير حتى اتخذوا الكهوف والأنفاق والمغاور اتقاءً لشرها ، فاستدعى والى قرطبة أهل الرأي فيها ليعرف حقيقة هذه الرياح ، فقال أبو محمد عبد الكبير : إن صح أمر هذه الرياح فهي ثانية الريح التي أهلك الله تعالى بها قوم عاد ، فقال ابن رشد على الفور : والله وجود قوم عاد ما كان حقاً ، فكيف سبب هلاكهم ؟ فذهل الحاضرون وأكبروا هذه الزلة التي لا تصدر إلا عن صريح الكفر والتكذيب لما جاءت به آيات الكتاب المجيد - فيما يروى الأنصارى - ولكن الذهبي يروى ما يفيد أن الذي أثار غضب المنصور عليه ، إنما هو وشاية حساده وخصومه ، ومنها أنهم أخذوا بعض ملخصاته في الفلسفة وأطلعوا عليها المنصور فاذا فيها بخطه حاكياً عن بعض الفلاسفة « قد ظهر أن الزهرة أحد الآلهة » فاستدعاه

بمحضر من الكبار بقرطبة وسأله : أخطك هذا ؟ فأنكر ابن رشد ، فقال له : لعن الله كاتبه ، وأمر الحاضرين بلعنه ، ثم أمر بإخراجه مهانا .
وليس ينفي هذا ، ما فلاحظه في فلسفة ابن رشد ، من عدم اتساقها في بعض نواحيها مع المعروف من أمور الدين ، والواقع أنه لم ينجح في دفاعه عن الفلاسفة في الاتهام الذي وجهه الغزالي اليهم بصدد إنهاء بعث الأجساد ، وقصر علم الله على الكليات وقدم العالم وأزليته ، وهي المسائل الثلاث الذي كَفَّرَ الغزالي الفلاسفة من أجلها . وهذا بالإضافة إلى أن الفلسفة في ذاتها كانت بغیضة الى سواد الناس والمترمتين من رجال الدين .

ولكن محنة ابن رشد لم تطل ، ونجح مسعى أصدقائه عند الخليفة في تزوير عقيدته ، فعفا عنه وعن صحبه وأولاه العطف حتى مات في العام التالي .
وحملة ابن الصلاح — وأمثاله — في فتواه التي هاجم بها الفلسفة والمنطق ، لها ما يبررها من اتجاهات عقله وتيارات قلبه ، وقد عرفنا أنها كانت دينية محضة ، وأنه أخفق في تعليم المنطق حتى قال له أستاذه « يا فقيه ، المصلحة عندي أن تترك الاشتغال بهذا الفن ، ومن هنا كانت خصومته العنيدة للمنطق والفلسفة باسم الدين ، ولعل السؤال الذي أفتى فيه فتواه كان من وضعه ، لأن فيه إشباعاً لنزعات نفسه ، وإرواء لظمأ قلبه في مهاجمة ما لا يجب ، وقد كانت روح العصر تلامم هذه الفتوى وتتفق مع ما تنطوى عليه من تزمت وضييق نظر .

الاضطهاد بين المسيحية والاسلام :

من الإنصاف أن نقول إن فتواه تذكرنا بشيء له خطره المروع في تاريخ النزاع بين الإيمان والعقل ، إن فيها نصاً يشهد بأن أمثاله من المترمتين من رجال الدين لو تهيأت لهم السلطة ، لقيدوا العقل وحجروا على حريته ونكلوا برواد الفكر الحديث ، وقضوا على التفكير الفلسفي في غير رفق ولا هوادة . أليس يقول في فتواه « فالواجب على السلطان ، أن يدفع عن

المسلمين شر هؤلاء (المشائيم) ويخرجهم من المدارس ويبعدهم ، ويعاقب على الاشتغال بفنهم ، ويعرض من ظهر منه اعتقاد عقائد الفلاسفة على السيف أو الإسلام ، لتخمد نارهم ، وتمحى آثارها وآثارهم ، يسر الله ذلك وعجله .. ! ومن أوجب هذا الواجب عزل من كان مدرس مدرسة من أهل الفلسفة والتصنيف فيها والاعراء لها ، ثم سجنه وإلزامه منزله ، وإن زعم أنه غير معتقد لعقائدهم (الفلاسفة) فإن حاله يكذبه ، والطريق في قلع الشر قلع أصوله .. الخ ، !

قد يذكرنا هذا بمحاكم التفتيش في العالم الأوربي الكاثوليكي ! وقد عرفنا شيئاً عن أنبائها المروعة ، وموقف رجالها من إعاقة النظر العقلي الحر والتنكيل بأهله . ويلوح لنا أن أول فارق ملحوظ بين الحالين ؛ استحواد الهيئات الكنسية على « سلطة زمنية » لم تهباً لهؤلاء المتزمتين من رجال الدين الإسلامي ، ويشهد بصحة هذا الرأي ، أن المعتزلة وهم الذين اعتصموا بالعقل في دفاعهم عن الدين ، نكلوا بخصومهم في القول بخلق القرآن حين تهيأت لهم الساطة في عهد المأمون والمعتصم ، فلم يقنعوا بالحاجة والتزام المنطق العقلي ، بل حكّموا السيف في رقاب مخالفيهم ! ناهيك بغيرهم من رجال الدين الذين لا يقرون للعقل بسلطان ! على أن مثل هذه السلطة كانت تعوز المتزمتين من المسلمين ، وقد يُرد إلى هذا السبب ، القول بأن تبعات هؤلاء المتزمتين في اضطهاد الفكر الحر ، وإعاقة النظر العقلي ، أخف بكثير جداً من تبعات السلطات الكنسية في أوربا ، وإذا كان من الإنصاف أن يقال إن حكام المسلمين قد جمعوا بين الحكم الدنيوي والديني في الصدر الأول من الإسلام ، فلم يحدث من المحن بعض ما عرفنا في العالم الأوربي ، وأن بعض حكام المسلمين في غير هذه الفترة قد انساقوا إلى حيث أراد المتزمتون من رجال الدين . فحجروا على الفكر الحر واضطهدوا أهله ، ولسكنهم لم ينشئوا محاكم تفتيش تطارد هؤلاء الأحرار أنى كانوا ، ولم يضعوا سجلاً يثبتون فيه أسماء

الكتب التي حرمت قراءتها على المؤمنين ، ويقضون بحرمان مؤلفيها وقراءتها على السواء ، ولم يلجأوا إلى الإعدام والإحراق والتنكيل ونحوه إلا في حالات نادرة ، إذا كان من الحق أن يقال ذلك ، فمن الإنصاف أن نقول إن كثيرين من رجال اللاهوت في أوروبا وأمريكا قد أوتوا من سعة العقل ورحابة الصدر وصدق الإدراك ، ما مكنهم من مسaire الركب والتطور مع الزمن ، فباركوا حركات التجديد وأدنوا من حضرتهم رواد الفكر الحديث ، وتولواهم بالرعاية والتقدير ، وإذا كانت ساحة الإسلام قد برئت من آثام غلاة المتعصبين من رجاله ، فإن المسيحية — فيما يلوح لنا — غير مسئولة عن تاريخها الملطخ بالدم (١) .

(١) كانت أم مصادرنا في هذا الفصل : الفصل القيم الذي وضعه المستشرق الألماني جولدتسيهر عن « موقف أهل السنة القدماء بأزاء علوم الأوائل » وظهر في نصره مباحث الأكاديمية الملكية البروسية للعلوم عام ٩١٥ وقد نقله إلى العربية زميلنا الدكتور عبد الرحمن بدوي ثم نشره في « التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية » ١٩٤٠ وكتاب أستاذنا الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخ الجامع الأزهر « تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية » وكتاب فرح أنطون « ابن رشد وفلسفته » ١٩٠٣ والأستاذ الامام « محمد عبده » في « الإسلام والنصرانية » ومحمد يوسف موسى في « ابن رشد الفيلسوف » ٩٤٥ .

الفصل الخامس

النزاع بين اللاهوت والفكر الجديد

في عصر النهضة

التنافر الملحوظ بين روح النهضة وروح العصر الوسيط — مظاهر النضج في عصر النهضة — موقف العقل الجديد من المسيحية — بواعث النزاع في هذا العصر — مقاومة الروح الملى الجديد في العالم الكاثوليكي — مقاومته في العالم البروتستانتي — مقاومة الاكليروس لنشأة علم الفلك الحديث (نظرية دوران الارض — موقف الكنيسة من مهران السكرة الارضية) — فهرست الكتب المحرمة على المؤمنين — كلمة أخيرة .

التنافر بين روح النهضة والعصر الحديث :

تمكنت المسيحية من قلوب الناس منذ عصورها الأولى ، فاكتمح وحيها العقل الذي كان قد شاخ ، وسيّره في ركابه ، وأكرهه على الدعوة لتعاليمه ، وانفرد الوحي بالنفوذ قرونا طوالا ، حتى نزع أوربا — في أواخر العصر الوسيط — إلى إحياء ما اندثر من تراث الفكر القديم ، واسترد العقل سلطانه ، وتمكن من إحداث انقلاب شمل مرافق الحياة كلها ، وامتد من إيطاليا إلى أوربا الشمالية ، فكان هذا عصر النهضة ، الذي شغل القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، وبدأ بها على تنافر ملحوظ مع روح العصر الوسيط ، فلما أقبل العصر الحديث ، كان العقل قد استبد بهوى مفكره ، فالتسوا عنده الخلاص من هذا التنافر ، واجمع بين الضدين في وحدة عقلية متسقة ، لم تلبث حتى اعترها التفكك ، وخضع الوحي المسيحي لنقد العقل وسخريته — كما سنعرف في الفصل التالي .

فأما هذا الانقلاب الذي حمل اسم النهضة ، فرده إلى يقظة العقل بعد

طول رقاد، ونشاطه بعد وفرة الاستجمام، وتاريخ العقل في الجماعات البشرية يشهد بأنه لا يقيم على حال واحدة من ركود أو نشاط، وكأنه يلتمس الراحة بعد السكد، ويميل إلى الجدم متى استوفى حظه من الراحة، وقد أدركت إيطاليا منذ القرن الثالث عشر تطورات غيرت من أحوالها الاجتماعية وظروفها السياسية، ومهدت لنشأة حركة عقلية واجتماعية تكفلت بتبديد الظلام، ومهدت الطريق لتقويض السلطة الدينية، وتحرير العقل من قيود الأسر، وسأقت المفكرين إلى إحياء الروح القديم، ومكنتهم من التحرر من سذاجة العصر السالف، وإدراك أنفسهم وفهم العالم من حولهم، وأحس الإنسان بإنسانيته وفرديته، مستقلة عن قومه ووطنه، وشعر في هذا العالم الجديد بأنه محتاج إلى مرشد يهديه سواء السبيل، فالتمس الإرشاد في آداب اليونان والرومان، فكان هذا هو المذهب الإنساني، الذي أنشأ جواً عقلياً مكن الفكر من الانطلاق، ويسر للمعرفة أن تتقدم إلى الأمام، تقدماً أيدته اختراع المطبعة، ومكن له اكتشاف أقطار جديدة زادت من معارف الناس، وصححت الكثير من أخطائهم، وشجع على هذا اضمحلال نفوذ البابوات في العالم الأوربي، وانحلال الامبراطورية الرومانية المقدسة، وغير هذا من عوامل يسرت قيام الإصلاح الديني، ومهدت لقيام النزعة العقلية واشتداد بأسها.

فأما التنافر الملحوظ بين روح العصر الوسيط وروح النهضة، فما أكثر شواهدة...! كان العصر الأول يستجيب للوحي الإلهي ويميل إلى الزهد ويتجه نحو الروحية التي تتضمن التوجس من الجسم والتخوف من ميوله وشهواته، وتتهيب التمتع بالجمال، ويرضى عن الجهل الذي يجعل صاحبه أكثر استجابة لأوامر الدين! ويقصر البحث على نمو الحياة الروحية، والتماس الخلاص، وينزع إلى التجرد من الحياة، وتعذيب الجسم، ونحو هذا مما أدى إلى إدانة الفنون المتجسدة والعلوم التجريبية، وحصر المعرفة في اللاهوت

وما بعد الطبيعة ، لأنها الطريق الوحيد إلى الخلاص . أما عصر النهضة فقد عكس الآفة ، إذ احتوته الثقة بالعقل ، واستغرقه حب الاستطلاع الحر ، واشتد كلفه بالعلم واحترامه لرجاله ، وأحب الجمال وشغف بالطبيعة وولع بالاستمتاع بملاذ الحياة ، ومن ثم توافر الفن على محاكاة الأوضاع الجسمانية ، وتمكن العلم من ملاحظة الظواهر الطبيعية ، وقوى النزوع إلى تبرير الشهوات ، ونبت العقائد التحكيمية المتسفة والخروج على التقاليد المألوفة والمبادئ المرعية ، واتسعت هوة الخلاف بين النزعة الصوفية في العصر الأول ، والاتجاه العقلي في العصر الثاني - فيما يقول مؤرخو العصرين .

مظاهر النضج في عصر النهضة :

كان الإنسان في العصر الوسيط فرداً في جماعة يسير في ركابها ويعمل بوحياها ، فاسترد في عصر النهضة استقلال شخصيتها ، واستكمل نزعة الفردية التي كانت قد انطمت منذ أواخر عهد اليونان والرومان ، وكان من أثر هذا التطور اشتداد حركة الإصلاح الديني ، التي تولت بالنقد أكبر هيئة دينية مقدسة ، وأتاحت لغير الكنيسة تفسير الأناجيل - وبهذا نادى زعماءها - وأفغنت - عن غير قصد - إلى تحرير العقل من قيود العقيدة الدينية ، وتمثل هذا الانقلاب في اتجاه العقل الجديد في طريقين : أولها إحياء الروح القديم الذي بدا على ما عرفنا قبل ذلك ، ولكنه اشتد في عصر النهضة ، فانطلق دعاة المذهب الإنساني - منذ القرن الرابع عشر حتى السادس عشر - إلى بعث ما عرف من آداب اليونان والرومان ، مسترشدين بها في إخضاع الدنيا لصالح هذا الإنسان الجديد ، وجدّ المشتغلون بالفلسفة في إحياء التراث الفلسفي القديم ، فانبعثت الأفلاطونية في أكاديمية فلورنسا^(١) ، ومنها انتشرت

(١) أنشأها كوزيمو دي مدينسي + ١٤٦٤ وتولى رياستها « مارسيل فيسان » Marsile Ficini ١٤٩٩ وهو الذي نقل آثار أفلاطون وأفلاطين إلى اللاتينية مع تعليقات عليها ، واستدعت فلورنسا كرسولوراس وغيره ليعاشر فيها باليونانية .

في سائر أوربا ، واستقامت الأرسطاطاليسية - كما بدت في تراث ابن رشد وغيره من فلاسفة الإسلام - في بادوا ، وامتدت حركة الإحياء إلى مذاهب الرواقية والشكاك وغيرهم من مدارس الفلسفة في العصر القديم ، ونشطت هذه الحركة بعد سقوط القسطنطينية^(١) وفرار العلماء منها إلى إيطاليا . وثاني الطريقين اللذين سلكهما العقل الجديد يتجلى في اهتمامه بالطبيعة الحافلة بالحقائق ، ونزوعه إلى ارتياد المجهول من آفاق العلم الطبيعي ، إذ انبعثت صحيحة روجر بيكون في الدعوة إلى التجربة والاختبار ، واستجاب لها العلماء والفنانون ونشأت الجمعيات العلمية صدى لهذه الدعوة^(٢) ومهد هذا لنشأة العلوم الطبيعية مؤيدة بالمخترعات الحديثة ، وانساق الناس إلى الكشف الجغرافي التماساً لحقيقة تسفر عنها مشاهداتهم^(٣) ، واتفق رواد الفكر الجديد على استهجان الكتب القديمة والسلطة الدينية مصدرراً لعلنا بالطبيعة الكونية^(٤) ومضى العقل في محاولة اكتشاف الجديد في شتى صورته ، وأمعن في تحطيم القيم المعتمدة في عصره ، حتى إذا أتى عليها جميعاً ، ارتد إلى نفسه ،

-
- (١) استولى الترك على القسطنطينية عام ١٤٥٣ فسقطت بسقوطها الدولة الرومانية الشرقية ، ونصر الترك العرب في قلوب الناس ، ففادرها علماء الأوغريقي بمخطوطاتهم إلى إيطاليا ، فأكرمت وفادتهم . وتولوا نصر العلم في جامعاتها حتى انتقلت النهضة إلى أوروبا الشمالية .
- (٢) فأنشأ Telesio + ١٥٨٨ أكاديمية البحث الطبيعي في نابلي عام ١٥٦٠ وقامت جماعة لينديوس في إيطاليا عام ١٦٠٣ وقوى هذا النزوع بعد فرنسيس بيكون + ١٦٢٦ فنشأت مدرسة الفلورنسيين عام ١٦٥٧ وقامت في لندن الجمعية الملكية عام ١٦٤٥ ونلتها أكاديمية العلوم الملكية في فرنسا عام ١٦٦٦ ثم الأكاديمية دل شيمنتو عام ١٦٥٧ م . الخ
- (٣) فظهر في القرن الخامس عشر هنري الملاح + ١٤٦٢ ورتليدودياز + ١٦٧٩ وفاسكودي جاما + ١٥٢٤ وكولب + ١٥٠٦ وماجلان + ١٥٢١ وغيرهم .
- (٤) واتفق في هذا النزوع أ.شال Vesale + ١٥٦٤ منشىء علم تشريح الأعضاء وهارفي + ١٦٥٨ كاشف الدورة الدموية وكوبرنيكوس + ١٥٤٣ رائد علم الفلك الحديث وليوناردى الفنى + ١٥١٩ الذى نمتت فيه روح النهضة ، وكاهبانيلامن اليه ، وقوى التبشير بهذا المنهج الجديد عند Paracelsus + ١٥٤١ و Edward Wotton في إنجلترا وكفراجستر في القارة لإبان القرن السادس عشر .

وأعمل فيها معاولة . . . ! أطاح بكل شيء ، ثم عاد إلى نفسه ، وأعلن شكه في قدرته على أداء وظيفته في التفكير بغية اكتشاف الحقيقة ، إذ هاله ما انتهى إليه رواد الفكر الحديث من كشف ما طواه التراث القديم من أخطاء ، وراعه الخلاف الملحوظ بين مذاهب الفلسفة ، وتعصب الطوائف لكل منها ، فكان الشك الهدام الذي أطاح بوحدة أوروبا العلية والدينية والسياسية في القرن السادس عشر — فيما يقول كواريه (١) .

فما موقف الدين المسيحي من هذا الانقلاب كله . . ؟

تمرد هذا العصر على تقييد الحرية في مجال الأخلاق والآداب ، وميادين العلم والفن والفلسفة جميعاً ، فتلاشت قيود الآداب والنظام ، وانطلقت الشهوات من عقابها ، وفشى الفساد حتى استغرق العصر كله ، وأصبح البرء منه شذوذاً لا يستقيم مع أوضاع العرف (٢) ، وكان أفدح خسران لحق بهذا العصر فقدان الإيمان والتحرر من قيود الأخلاق ، ومشاركة رجال الدين في هذا الفساد ، مما أدى إلى التهجم عليهم والنشهر بآثامهم ، وساهم في هذا التجريح رجال الإصلاح الديني ، وأسرفوا فيه حتى تحول مبدؤهم في إقرار حق الفرد في إصدار ما يرى من أحكام ، إلى عصيان روما في كل ما ترى . . ! واستخف الناس بالروح المسيحي ودعاتها ، حتى انطمس ذكر دانتى — شاعر المسيحية العظيم ، في روما وفلورنسا ، في نفس الوقت الذي أقبل فيه طلاب العلم على أفلاطون وشيشرون ، وهومير وفرجيل ، فكان العصر بحق ثورة على المسيحية وتقالدها .

(١) أنظر كواريه A. Koyrè في محاضراته الثلاث بالجمعية الجغرافية نشرت في الجامعة المصرية تحت عنوان Trois Leçons sur Descartes مع ترجمتها إلى العربية للأستاذ يوسف كرم « ثلاثة دروس في ديكارت »

(٢) امتنع التمييز بين القديس والعاشر في مجال التبجيل والاحترام . وإذا كان الفساد خروجاً على مألوف المبادئ الخلقية ، تجرد القرن الخامس عشر من مثل هذا الفساد . وإن كان بحق عصر الأباحية والفساد فيما يرويه سدنى دارك .

موقف العقل الجربيد منه المسيحية :

على أن هذه الثورة لم تنته في كثير من الحالات بإخضاع الديانة المسيحية لنقد العقل ، واختبار عقائدها في ضوء منطقها ، وشتان بين الاستخفاف بتعاليمها والسخرية بتقاليدها ، والعمل بما لا يسير روحها ، وبين دحض معتقداتها وتفنيد قواعدها وأصولها ، ومن أجل هذا قيل إن الثورة العقلية التي استغرقت عصر النهضة ، لم تعصف بالعقيدة الدينية عصفاً مباشراً ، فأما المصلحون فإنهم كانوا على اتفاق في مقاومة انحطاط الكنيسة وفساد رجالها ، مع الإبقاء على الدين المسيحي كما ورد في الأناجيل ، وإن أبقى بعضهم - إرزمس - على العقائد الأساسية للذهب الكاثوليكي ، وعصف البعض الآخر - ويكلف وچون هس ولوثر - بهذه العقائد ، ودعا إلى المسيحية كما تصورها . أما غير المصلحين من رواد الفكر الحديث ، فقد أشفق جمهورهم من التهجم على الدين ، في نفس الوقت الذي استجابوا فيه لنداء العقل ، فكان الجمع بين الإيمان الصادق قولاً والفساد الطليق وموت الضمير فعلاً ، من مميزات النهضة في إيطاليا ، التي كانت تعبد الإله « بان » - يامعناها في اللذات - ولا تجرؤ على أن تنسى المسيح كل النسيان ، فيما يقول سدنى دارك ، ومثل هذا يقال في سائر أوربا ، فلم تُفرض ثقافة هذا العصر - فيما يقول بيورى - إلى ثورة عقلية صريحة أو عامة ترمى إلى اجتياح المعتقدات الدينية ، بل اتخذ العالم بالتدريج مظهراً معادياً - من غير شك - لتعاليم الدين التي ذاعت في العصر الوسيط ، ولكنه لم يتفجر سخطاً عليها وعداء لها ، ولم يكن أتباع المذهب الإنساني أعداء للسلطة اللاهوتية ، ولا خصوماً للعقيدة الدينية ، ولكنهم اكتشفوا ميلاً إنسانياً محضاً إلى تأمل هذا العالم ، واستغرق هذا الاكتشاف اهتمامهم ، فكلفوا بالأدب الوثني ، وشغفوا بالتعليم الدنيوي ، وكان هذا موضع اهتمامهم ، وعزلوا الدين واللاهوت في جناح مستقل عن العلم الدنيوي ، وكان بعض أصحاب النظر

العقلي ممن أدركوا التنافر بين هذين العالمين ، يحاولون التوفيق بين الدين القديم والفكر الجديد ، ولكن مفكرى عصر النهضة ، قد تحروا التمييز الكامل بين العالمين ، وممارسة الجرى على طقوس العقيدة الظاهرية ، دون إخضاع العقل لها إخضاعاً حقيقياً ، فكفلوا بهذا استقلال العقل في تفكيره وتحرره من السلطة الكهنسية ، مع الإبقاء على العقيدة الدينية ، ويوضح هذا الاتجاه « مونتاني Moutaigne في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، إذ كان - مع ضيقه بالتقاليد وبغضه لكل سلطة تقيد العقل - كاثوليكياً وفاقاً لدينه القديم ، غير ميال إلى اضطهاد الدين الجديد ، و « مقالاته ، وإن بشرت بالمذهب العقلي ، قد جهرت بالكاثوليكية الأرثوذكسية التي كان في الواقع مخلصاً لعقائدها ، ولم يحاول التوفيق بين هاتين الوجهتين من النظر ، بل إنه لزم الموقف الشكى الذي لا يرى إمكان التوفيق بين العقل والدين ، لأن العقل الإنسانى قاصر فى ميدان اللاهوت ، ومن أجل هذا وجب إبعاد الدين عن تدخل هذا العقل الذى يقصر دون بلوغه ، لكى يقبل الناس على اعتناقه من غير جدل ، وقد اعتنق « مونتاني ، المسيحية لأسباب شكية ، كانت خليفة بأن تغريه باعتناق الإسلام ، لو قدر له أن يولد فى القاهرة مثلاً ، والذين شككوا عقليته واستبدوا بهواه ، هم الفلاسفة القدامى من أمثال شيشرون وسنكا وپلوتارك ، وإليهم - لا إلى المسيحية - كان يرجع إذا عرض للبحث فى مشكلة الموت وغيرها ، وتصور موقفه من الاضطهاد الدينى هذه العبارة : من المفيد أن يُشوى الناس لمصلحتهم الشخصية (١) .

(١) فى تصوير النهضة إجمالاً كتب كثيرة فصلات فى تحليل مظاهرها أهمها : بركاردت الألمانى ترجمه إلى الانجليزية S. G. C. Middlemere تحت عنوان .

Burckhardt, Jacob., The Civilization of the Renaissance in Italy

ونشرت الترجمة الانجليزية فى طبعين

والى الفرنسية والاطالية .

وكذلك J. A. Symonds (فى سبعة أجزاء) : Renaissance in Italy

أما عن تصوير التنافر بين روح النهضة وروح العصر الوسيط فانظر : استهلال المحاضرة =

بواعث النزاع في هذا العصر :

على أن التهجم على قدسية الكنيسة ، والجهر بنقد رجالها والتشهير بأثامهم ، والتصريح بحق الفرد في إصدار الأحكام التي يملها عقله ، والخروج على المؤلف من سلطة الدين وسلطة العقل معاً ، وإحياء المذاهب الفلسفية القديمة ، وتعصب المفكرين لها من غير اكتراث بأرسطو الذي اعتمده الكنيسة وانفرد بالنفوذ قبل هذا العصر ، ومجرد قيام المذهب الإنساني ، والشغف بالعلم الطبيعي وما تسفر عنه المشاهدة والاختبار من حقائق ، ولو خالفت ما قدرته الكنيسة من قبل ، كل هذا كان ينذر بإضعاف السلطة الدينية ، وإثارة الشك في قدسية رجالها ، وكان هذا وحده كفيلاً بإغضاب الأكليروس ودفعه إلى مقاومة الروح الجديد ، وهذا لا يمنع من وجود بابوات ورجال دين سايروا روح النهضة إلى أقصاها ، لم يكتفوا باطلاق العنان لشهواتهم ، بل كفوا بالعلم وسعوا إلى احترام رجاله ، كما كان يفعل غيرهم من الأمراء والحكام ومن إليهم من العلمانيين في هذا العصر ، ولكن جمهرة رجال الدين كانوا يقاومون الروح الجديد ، وينزعون إلى التثكيل بالمتحمسين من رجاله ، ويسرفون في الاضطهاد إسرافاً يتمشى طردياً مع عناد خصومهم من رواد الفكر الجديد ، وكان هؤلاء قد وطدوا العزم على الدفاع عن مبادئهم والاستشهاد في سبيلها ، فكان هذا إنذاراً بما وقع من مأس لطنخت بالدم هذا العصر الآثم .

ولقد كان الأكليروس على حق في الجزع من مظاهر الروح الجديد ،

== الأولى من محاضرات « دانييل باروري » الثلاث التي نشرت في كتاب من الحسكيم القديم إلى المواطن الحديث . وقد نقله إلى العربية زميلنا الدكتور محمد مندور (١٩٤٤) وفي تفسير النهضة ولا سيما الفساد الذي نشأ فيها كتاب سدني دارك عن النهضة الأوروبية وقد نقله إلى العربية الأستاذ محمد بدران (١٩٤١) وفي نجاة العقائد المسيحية من نقد العقل إبان النهضة يقرأ مع المصدر السالف : Bury, J. B., A Hist. of Freedom of Thought الفصل الرابع في تهرور العقل من أسره .

وحسبنا شاهداً على صحة ما نقول ، ما انتهى إليه شك « مونتاني ، الذي أسلفنا الإشارة إلى إخلاصه لدينه ووفائه لتعاليمه ، فإن نتيجة شكه الهدام قد وضحت في تفكير صديقه Charron ، فقد نشر عام ١٦٠١ كتاباً « في الحكمة ، صرح فيه بأن الأخلاق لا تقوم على الدين ، واستعرض تاريخ المسيحية ليكشف عن السوءات التي نجمت عنها ، وصرح بأن خلود النفس أدنى النظريات إلى معتقدات الناس وأكثرها نفعاً لهم ، ولكنه أقلها صدقاً في نظر العقل الإنساني ، وإن كان قد عدل عن هذا الرأي في طبعة أخرى ، ومن أجل هذا وضعه يسوعى معاصر في ثبت أعظم الملحدين الأشرار خطراً ، ولكنه كان في الواقع من أتباع المذهب الطبيعي الإلهي Deism ، الذي يقر بوجود الله ولكن الناس في عصر النهضة وما بعده ، كانوا يعتبرون غير المسيحيين ملحدين زنادقة ولو آمنوا بالله .. ! ولقد كان كتابه خليقاً بأن يصادر ، وكان هو جديراً بأن يضطهد ، ولكن الملك هنري وقاه شر هذا الاضطهاد - وحسناً فعل ، فإن كتاب « شارون » ينقلنا من جو النهضة الذي يتمثل في مقالات « مونتاني » ، إلى عصر جديد يعلو فيه نداء المذهب العقلي .

على أن الأكليروس وإن أصاب في التوجس من هذه الحركة الجديدة ، - رغم إبقاء جمهرة دعايتها على العقائد الدينية نفسها - فقد أخطأه التوفيق في طرق العمل على اتقائها ، لأنه اعتصم بالشدة ونكثل باتباعها وسار على جث المتحمسين منهم ، ولكن تيارها الغلاب قد كتب لها النصر ، لأن الاضطهاد في شتى صوره لا يوقف التقدم ولا يغير مجرى التاريخ ، وإن تكفل بإثارة الفرع في النفوس . بل إن استشهاد هؤلاء الرواد قد مكّن لقضيتهم ، وأشاع بين الناس إيمانهم ، فكان النصر حليفهم .. فلنعرض في إيجاز بعض مظاهر النزاع الذي ثار بين أحرار الفكر ومعسكر خصومهم من رجال الدين .

مقاومة الروح العلمى الجديد فى العالم الكاثوليكى :

اندفع رواد الفكر الحديث جماعات وأفراداً ، لارتياح المجهول من آفاق الحقيقة، والتبشير بالآراء الجديدة ، ومجاهدة السلطات الكهنوتية بأضاليل العلم القديم الذى اعتمدته وأقرت حقائقه ، وكان البحث العلمى الحديث على خلاف ملحوظ مع أساليب التفكير القديم ، علا صوت المشاهدة والتجربة عند العلماء ، وأخذ مكان الوحى الذى انفرد بالنفوذ قبل ذلك ، فأزعجت هذه الحركة الجديدة رجال الأكليروس ، ووطدوا العزم على تطهير الجو من آثارها ، وتضافر الكاثوليك والبروتستانت على مطاردة أهلها ، وبدت المقاومة رفيقة مع من يستجيب لمطالب الكنيسة ويذعن لأوامرها ، فيوقف مواصلة أبحاثه ، ويكفّ عن التبشير بالجديد من آرائه ، ثم كانت المقاومة عنيفة دامية مع كل من ركب رأسه وجهر بالعناد من رواد الفكر الحديث ، واستمرت حركة المقاومة قائمة حتى بعد أن قوض عصر النهضة آثار الروح القديم ، وأخذ العصر الحديث يمكن لنفسه على حسابها .

ومن آثار هذه الظاهرة أن John Baptist Porta كان فى النصف الثانى من القرن السادس عشر ، يقوم بأبحاث علمية قيمة - رغم ما صحبها من بدع العهد القديم ، لم يكن يمارس السحر الأسود ، على ما كان معروفاً ، ولكنه كان يزاول السحر الأبيض الذى كان يرمى إلى الكشف عن قوانين الطبيعة ، لتسخيرها لصالح الإنسان ، فكان السباق فى مجال العلم الطبيعى الحديث ، وكان كتابه الذى وضعه عن علم الظواهر الجوية أول بحث علمى فى هذا الموضوع ، ومن المحتمل أن تكون ذات فضل فى اكتشاف المرقب . أما فى الكيمياء فقد كان - فيما يلوح - أول من اهتدى إلى طريقة تحويل الأكاسيد المعدنية ، فوضع بهذا أساس الكثير من الصناعات التى درت على الإنسانية الخير الوفير ، وهذا بالإضافة إلى أنه بذل جهوداً محمودة فى تحويل الفلسفة الطبيعية من سحر إلى علم واضح ممكن ، فضاقت به السياسة الأكليركية ،

وسرعان ما انحلت جمعيته التي أنشأها لخدمة البحث الطبيعي ، واستدعاه البابا بولص الثالث إلى روما ، وحرّم عليه مواصلة أبحاثه .

ومثل هذا يقال في فرنسا ، إذ عرفت باريس عام ١٦٢٤ طائفة من شبان العلماء المشتغلين بمنهج البحث التجريبي ، الذين انسلخوا عن أرسطو ، ولكن برلمان باريس قد قرر مسوقاً بمساعي رجال الكهنوت تحريم هذه المباحث الكيميائية الجديدة ، وأنذر من لا يذعن لقراره بعقوبات صارمة — فيما يقول هوايت White ، وإن كانت فرنسا — فيما رأى بيورى وروبرتسون — قد عرفت لونهاً من الحرية أعوز غيرها من البلاد إذ بدا فيها تسامح نسبي في عهد هنرى الرابع والسكردينال ريشيليو ومازران إلى نحو عام ١٦٦٠ م .

وفي إيطاليا نهض الأكليروس لمقاومة الروح العلي ومطاردة رجاله ، فأكاديمية البحث الطبيعي Academy for the Study of Nature التي أنشأها تليزيو Telesio في نابلي عام ١٥٦٠ أثارت فزع الأكليروس ، فسارع إلى العمل على قمعها ، وأدت حركة المقاومة إلى القضاء على الجهود العلمية المشتركة ، فلم تظهر الجمعيات العلمية في أوروبا إلا بعد مضي ما يقرب من مائة عام ، حين عقدت في لندن اجتماعات أفضت إلى قيام ماسمي بعد ذلك بالجمعية الملكية Royal Society ثم تلتها أكاديمية العلوم في فرنسا وغيرها ، فأثار هذا جزع رجال اللاهوت ، وتملكهم الروع منذ عهد اربان الثامن حتى عصر بيوس التاسع — (أواخر القرن التاسع عشر) — وسنرى موقف رجال الكهنوت من الجمعية الملكية عندما نعرض للحديث على موقف العالم البروتستانتى — وقد استمرت مقاومة العلم الجديد في إيطاليا حتى بعد أن ضعف الاعتقاد في السحر ضعفا ملحوظاً ، وليس أدل على هذا من العنت الذى لقيته في فلورنسا أكاديمية « دل شيمنتو » التي عقدت أولى جلساتها في فلورنسا عام ١٦٥٧ تحت رئاسة الأمير ليوبولد دى مدتشى ، وكانت تضم الممتازين من أهل البحث العلي الذين اتخذوا شعارهم « دحض كل مذهب

فلسفي وإن كان حبيباً إلى النفس ، وضرورة البحث في ظواهر الطبيعة في ضوء التجربة وحدها ، واستغرقتهم الحماسة في التزام هذا الشعار ، وكان لأبحاثهم أطيب الثمرات ، وحسبنا أن نشير إلى « بوريلي ، Borelli في الرياضيات و « ريدى ، Redi في التاريخ الطبيعي ، وكثيرين ممن ساهموا في البحث العلمي الصحيح ، ووسعوا من نطاق المعرفة الصادقة فعرضوا لدراسة الحرارة والضوء والمغناطيسية والسكرهباة وعلاقة المقدوفات بالجاذبية وعمليات الهضم وعدم إمكانية انضغاط الماء والتزموا في بحثهم المنهج العلمي الصحيح ، فكانت الأكاديمية على يدهم حصناً منيعاً للعلم الجديد . ولكن رجال اللاهوت قد ضاقوا بها فضربوا عليها حصارهم ، وأعلنوا اتهام الأعضاء بالهرطقة والادينية ، وقدموا لرئيسها قبعة السكردينالفة ثمنا لخذلانها وخيانة مبادئها ، واستدعى هذا الرئيس إلى روما ، ولكن القلعة قد قاومت خصومها عشر سنوات طوال ، سقطت بعدها ، وخر أعضاءها صرعى من عناء الجهاد ، فاضطهد Borelli « بوريلي ، وهورب في رزقه حتى اضطر إلى التسول ، وأكره « أوليفا ، Oliva على أن ينتحر فراراً من عذاب محكمة التفتيش (١) .

ومثل هذا يقال فيما لقيته أكاديمية Lincei من ألوان الاضطهاد ، كان البابا إربان الثامن يتولى رعايتها ، وكانت تضم طائفة من أهل البحث العلمي الجديد ، فتحرى البابا شل حركتها وإعاقة أعمالها ، وواصل سياسة التضيق عليها البابا جريجورى السادس عشر - فيما يقول Carutti .

ولم تكن أساليب الوحشية التي اتخذتها السلطات الكنسية في التنكيل بأعضاء أكاديمية دل شيمنتو ، مثار الدهشة ، فقد سجل التاريخ قبل ذلك مثل

(١) أنظر في أكاديمية دل شيمنتو هوابت ص ٣٩٣ ، ٤١ ج ١ ثم Florentine Hist. vol. v. p. 495 وكذلك Henri Martin, Histoire de France ثم Jevous Principles of Science vol. II p. 36-40 . وعن أهمية أبحاث Borelli في نظر نيوتن و Huggens أنظر Brewster, Life of Sir Isaac Newton لندن ٨٧٥ ص ١٢٨ - ١٣٩ ويقول Libri في Essai sur Galilée ص ٣٧ إن أوليفا قد استدعى إلى روما وتوات محكمة التفتيش تعذيبه حتى اضطر إلى الانتحار لسكى يتخلص من هذا العذاب ، بإلقاء نفسه من النافذة !

هذه الوحشية في مأساة De Dominis ومصرع جيوردانو برونو ، فأما الأول فكان رئيساً لأساقفة Spaltra ، وقد ألفت محكمة التفتيش القبض عليه متهماً بهرطقة العلم وغيره ، وألقت به في غياهب السجن ، حيث وافته منيته ، فأحرقت جثته مع كتاباته التي خلفها على مرأى من الجماهير .

وبعد ثمانية أعوام من مأساته كان مصرع برونو عام ١٦٠٠م ، الذي نادى بمذهب كوبرنيكوس الذي اشترك في إنكاره الكاثوليك والبروتستانت على السواء ، ومضى إلى أبعد من هذا فاعتبر النجوم الثوابت شمساً لكل منها أقماره التي تدور حولها ولا تراها العيون ، وسائر رأى القائلين بالنشوء المعرضين عن ثبات الأنواع ، وإن تحرى الإبهام في حديثه ، وكان أول من مهد للرأى السديمي الحديث ، وقد حاول أن يوفق بين آرائه وتعاليم الإنجيل ، ولكن لم يكن من الميسور لمن اعتنق هذه الآراء وأذاعها في الناس أن يطيب له مقام ، فغادر إيطاليا حين حامت حوله شبهات الهرطقة ، وحط رحاله في سويسرة ثم لم يلبث أن غادرها إلى فرنسا ، فأنجلترا فألمانيا ، شريداً طريداً لا يحط رحاله في بلد حتى يغادره إلى غيره ، وفي عام ١٥٩٢ أغراه صديق خداع بالعودة إلى البندقية ، فلما استقر بها أمرت محكمة التفتيش بإلقاء القبض عليه ، واسكنه عاند وكابر ، فزجت به إلى السجن في روما ستة أعوام أقام فيها على عناده ، فقضت المحكمة بقتله دون أن تراق قطرة من دمه ، فأحرقت جثته عام ١٦٠٠ م على الكامبو دي فيورى Campo dé Fiori ، وذرروا في الريح ما تخلف عنها من رماد ، وبعد مضي ثلاثة قرون من الزمان ، انعقد الرأى عند جمهرة من المفكرين على أن يكفروا عن هذه الجريمة ، بإقامة تمثال له ينصب في نفس المكان الذي شهد إحراق جثته (١) .

كان هذا في روما ، أما في فلورنسا ، فقد أعدم ساقونارولا بقرار من

(١) أنظر لتوسع في ذلك Vie de Jordano Bruno باريس ١٨٩٦ ج ١ ص ١٢١

البابا امكندر الخامس ، مع إخلاص هذا الشهيد للعقيدة الكاثوليكية ، وتوقيره للركز البابوي وحرصه على حرفية النصوص المقدسة ، ولكن تهجمه على أشخاص البابوات ، وقيامه بدور سياسي ، مكن خصومه من التضافر عليه والنجاح في شفه ، ولو عاش في العصر الحديث لارتفع إلى مصاف القديسين^(١) .

وفي تولوز حوكم العالم الطلياني Lucilio Vanini عام ١٦١٩ ؛ وأدين من جراء آرائه الجديدة ، كقوله بالتطور من أدنى الكائنات إلى أعلاها ، فزق لسانه ، وأعدم حرقةً ، أما في بادوا فقد أشرنا في الفصل السالف إلى أن الفلسفة الأرسطاطاليسية - الرشدية - قد هاجرت إليها من باريس حين اضطهد الداعون إليها ، وعاشت في بادوا في ظل الحرية التي كفلها مجلس الشيوخ في البندقية ، ومنها شاعت في كلية بولونيا بوجه خاص ، وفي البندقية وغيرها ، وبلغ من شيوع هذه الفلسفة أن أصبح الناس يتغامزون بتشييعهم لها ، وغلب صاحبها - ابن رشد - فيلسوف الإسلام ابن سينا في القرن الرابع عشر ، وأصبح صاحب النفوذ المطلق في منتصف القرن الخامس عشر ، ثم أضحي عاملاً حياً في التفكير الأوربي حتى القرن السابع عشر ، وتكفلت الحرية بإظهار طائفة من المشتغلين بالفلسفة اعتنقت اللادينية ، وفاخرت بالمروق من العقيدة ، فنشأت حملات بترارك + ١٣٧٤ ومن جرى مجراه في مهاجمة الفلسفة الإسلامية والدعوة إلى الرجوع إلى فلسفة اليونان والرومان ، وتحققت هذه الدعوة إبان هذا العصر فبدأت بادوا بتدريس النص اليوناني لفلسفة أرسطو في الرابع من شهر ابريل ١٤٩٧ م وبدأ عهد جديد في بادوا والبندقية وشمالى إيطاليا ، ودعت فلورنسا إلى نص أفلاطون اليوناني ، حتى

(١) أنظر Villuri, Life of Savonarola وإشارة Bury ص ٤٣ و White ج ٢

إذا ظهر البروتستانت شاركوأ خصوم ابن رشد إلى أن أقبّل القرن السابع عشر وبدأت فلسفة حديثة لاهي يونانية ولاهي إسلامية ، وخفت النزاع بصدد هذه المشكلة .

ولسكن مشكلة البحث في خلود النفس وفنائها ، كانت مثار الجدل في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن التالي ، إذ نهض بومبنازى Pomponazzi ١٤٦٩ - ١٥٢٥ في يادوا وصرح بأننا لانجد دليلاً عقلياً يشهد بخلود النفس ، ورأى أن الخلود المسلم به هو خلود النوع الإنساني ، ومضى إلى أبعد من هذا فأعلن أن المعجزات والخوارق لاتتمشى مع المؤلف من الظواهر الطبيعية ، وأسرف في هذه النزعة حتى انتهى إلى إنكار أصول الدين ، ولسكن هذه الدعوة قد ناهضها أشيليني الذي كان من زعماء المذهب الرشدي ، واستطار الجدل بينهما حتى أصبح يتداعى ذكره مع ذكر يادوا ، ولما استفحل أمر الجدل وفشا شره ، انعقد مجمع لاتران عام ١٥١٣ وقرر حرم القول بفناء النفس ، وبأنها واحدة في الناس ، وأنذر بمعاقة من يبشر بذلك . (١)

هذا بعض ما كان في العالم الكاثوليكي ، فما موقف العالم البروتستانتى من الروح العلى الجديد :

مقاومة العالم البروتستانتى :

عداء البروتستانتية للعلم الجديد ، يشبه عداء الكاثوليكية في نوعه ، وإن كان أقل في درجته ، وقد كانت السلطة إذا تهيأت للمصلحين الذين انشقوا على الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، لوئت أيديهم بالدماء ، وخضبت تاريخهم

(١) افرا Topnard, Elements d'Anthropologie من ٥٢ وانظر إشارة هوابت

ج ١ ص ٢٨٨ ويورى من ٨٥ أما عن الجزء الخامس بابن رشد في يادوا فنقرأ فرح انطون في ابن رشد وفلسفته ولاسياس ٧٦ - ٨١ ثم تراث الإسلام في ترجقى لفصل الفلسفة والإلهيات من ٣٠٥ ج ١ وكتاب روبرتسون J. M. Robertson في تاريخ حرية التفكير .

بأفزع الجرائم وأبشعها ، وليس أدل على هذا من مصرع « سرفيتوس ، على يد كلفن الذى تمكن من إقامة حكومة فى جنيف ، جمع فيها السلطة الزمنية مع الروحية — على نحو ما ذكرنا عند الكلام على الحركة البروتستانتية فى الفصل الذى عقدهناه على « حرية النظر العقلى » .

وبنفس هذه الروح قاومت إنجلترا البروتستانتية الحركة العلمية الجديدة ، وتجلت المقاومة فى عدائها للجمعية الملكية ، والمجمع البريطانى لتقدم العلم Association for the Advancement of Science ، وكثيراً اتخذت المقاومة صورة التهجم وتوجيه الحملات إلى العلماء ، وقد شهر الدكتور « ساويث ، South العظيم بالجمعية الملكية واتهم أعضاها بالهرطقة . ولم تسمح حكومة اليبابات وجيمس الأول بأن تفوقها فى الاضطهاد محاكم التفتيش — فيما يقول بيورى — وقد أدانت إنجلترا مفكراً يعدل برونو فى سعة شهرته ، هو الشاعر « مارليو ، Marlowe الذى عاصر شكسبير ، فطمس هذا ذكر عبقريته ، وبفضله قام الشعر المرسل ، فاتهمته بالإلحاد ، وقدمته للمحاكمة ، فمات أثناء ذلك فى شجار دنىء فى حانة عام ١٥٩٣ ، ونال العذاب أحد زملائه فى التهمة هو الروائى الدراماتست كيد Keyd ، فى وقت كانت تقاضى فيه السير « والترالى ، من جراء إلحاده ، ولكنه برىء على غير ما كان الحال عند المتهمين من أصحاب الحظ العاثر ، فى النزوح أحرق فى عهد اليبابات من جراء القول بنظريات لا تسار المسيحية — ثلاثة أو أربعة كان من بينهم فرنسيس كت الذى كان زميلاً فى جماعة الاحتفال بضيافة المسيح Corpus Christi ، وفى عهد جيمس الأول ، اتهم « ليجيت ، B. Legate باعتراف آراء هدامة مثيرة للفساد ، فاستدعاه الملك وكان حريصاً على تحقيق هذه الأمور بنفسه ، واستفسر منه عما إذا كان يقيم الصلاة ليسوع المسيح كل يوم ، فقال المتهم إنه كان يقيمها أيام جهله ، ومنذ سبع سنين تحرر من قيود هذه الجهالة والغفلة ، ولهذا كف منذ ذلك الحين عن إقامة الصلاة !

فركاه الملك بقدمه ، وقال له : « أغرب عنى أيها الخسيس ، لن أسمح بان يقال إن امرءاً قطع الصلاة للمسيح سبع سنوات ، وأتيح له دخول قصرى ، وزج بالمتهم إلى السجن فترة من الزمن ، أعلن بعدها زنديقاً لا يقبل صلاحاً ، وصدر الأمر بإحراقه ، ونفذ هذا عام ١٦١١ م . وبعد شهر واحد التهمت النار جسم زميله Lichfield بأمر من أسقف Coventry لاعتناقه آراء ملحدة لا تتماشى مع تعاليم الدين ، ولكن الرأى العام — فيما يظن — قد ضاق بمصرع هذين الرجلين ، إذ لا يعرف تاريخ الاضطهاد من أجل الالحاد فى انجلترا بعدها شهيداً ، وإن كان البيوريتان قد أصدروا — مدفوعين بتعصبهم — أمراً فى عام ١٦٤٨ يقول إن من أنكر التثليث ورفض القول بألوهية المسيح وتنزيل الكتاب المقدس ، فقد عرض نفسه للإعدام ، وأن من اتهم بغير هذا من آراء إلحادية كان السجن مصيره ، ولكن هذا الأمر لم ينفذ بعد .^(١)

هذا بعض ما نرى من مظاهر النزاع فى العالمين الكاثوليكى والبروتستانتى ، والراجح أن اختراع الطباعة فى القرن الرابع عشر قد يسر انتشار الآراء ، فنشط الأكليروس لمراقبة المطبوعات ، وأصدر البابا اسكندر الخامس أمراً بابويأ عام ١٥٠١ ينذر فيه بعقاب من يقدم على طبع شىء لم يصرح بطبعه ، وقرر الملك هنرى الثامن فى فرنسا عقوبة الإعدام جزاء الطبع من غير اذن رسمى ، وأدخلت ألمانيا الرقابة على المطبوعات منذ عام ١٥٢٩ وكانت الكتب لا تطبع فى انجلترا — فى عهد اليبابات . من غير ترخيص ، ولا يرخص بوجود مطابع إلا فى لندن وأكسفورد وكبرج ، وتتولى الإشراف على شئون المطبوعات محكمة النجمة Star Chamber ، ولم تتخلص الطباعة من هذه القيود إلا فى القرن الماضى .

وقد وضع ملتون Milton عام ١٦٤٤ رسالة عن حرية المطبوعات هى «أريو باجنيتكا»

(١) بشأن مقاومة الجمعية المالكية فى انجلترا تقرأ White ج ١ ص ٤١ ، ٤٠ ، ٣٩ وما ذكر بعدهذا ملخص عن Bury ص ٨٥ — ٨٦ وقد أخذنا عنه وعن White فى الجزء الأول ولا سيما ص ٤١ ، ٣٩٣ أكثر ما كتبناه عن مقاومة الروح العلمى فى هذا العصر .

عن حرية المطبوعات غير المرخص بها - دافع فيها عن حرية الصحافة دفاعاً حاراً ، يصلح لتأييد حرية التفكير بوجه عام ، وفي هذه الرسالة يقول : إن الرقابة تفضي ، إلى خنق التقدم العلمي ، وتعرقل نشاط العقل في إقرار الحق ، وهي تخمد مواهبنا وتقتصر نشاطها على معرفة ماسبق لنا أن عرفناه من قبل ، وتدفعها إلى الركود والتبلد - وهذا بالإضافة إلى أنها تعرقل وتعوق ما يحتمل أن نكتشف عنه من حكمة الدين والدنيا ، لأن المعرفة تتقدم بالتعبير عن الآراء الجديدة ، والحق يتكشف من خلال البحث الحر من كل قيد ، وإذا قدر لنهر الحقيقة أن يتوقف عن التدفق المستمر ، فسرعان ما يتحول إلى بركة آسنة موحلة بالأفكار القديمة المتواترة ، إن الكتب التي يجيزها الرقباء تصلح - فيما يقول باكون - أن تكون مجرد تعبير عن المناسبات ، وهي لا تساهم في تقدم العلم بنصيب ، إن مانعرفه من أمر الأمم ذات الرقابة الصارمة ، لا يشهد بأن الرقابة تهذب الأخلاق ، أنظر إلى إيطاليا أو أسبانيا هل أصابت إحداها شيئاً من الأمانة والعفة والحكمة منذ عرفت رقابة محاكم التفتيش على الكتب . ؟ وقد شاد ، ملتون ، بحرية الفكر ورفعها فوق الحرية المدنية فقال ، أعطني حرية العلم والتعبير والمناقشة وفقاً للضمير ، ذلك أسمي الحريات جميعاً .

مقارنة الكوبرنيكوس انفساً الفلك الحديث (نظرية دوران الارض)

كانت الثورة العقلية التي استغرقت عصر النهضة ، بشيراً بمقدم العلم الحديث ونذيراً باضمحلال اللاهوت القديم ،^(١) وقد سجل تاريخ الفكر مولد علم الفلك الحديث ، في نفس العام الذي مات فيه أول رواده - كوبرنيكوس + ١٥٤٣

(١) أنظر في الفصلين السادس والسابع « كيف كان النزاع بين اللاهوت والعلم ، بصدد طبيعة العالم - في حجم الأرض وشكلها وعمرها وتكوينها وموضوعها وعلاقتها بغيرها من الكواكب ، وأثر رحلات كولمب وماجلان ودي جاما . . . فقد أهملنا الحديث عن هذا الموضوع ، واكتفينا بما عرضناه هنا نموذجاً للنزاع الذي نفي بتصويره .

وذلك أن الكنيسة كانت في نظرتها إلى مكان الأرض من سائر الكواكب ،
قد اعتنقت رأى أرسطو - رب العلم في العصر المدرسي ، اذ اعتمدت
الكنيسة مذهبه منذ القرن الثالث عشر - وبطليموس - رب الفلك طوال
العصور الوسطى ، إذ قرر الأول - منذ القرن الرابع قبل الميلاد أن الأرض
من تراب ، وأن هذا الاعتبار يستلزم سكنها في مركز الكون ، ثم جاء
بطليموس في القرن الثاني لميلاد المسيح ، ووضع كتابه المعروف « بالمجسطى ،
ودوّن فيه فروع علم الفلك فبقى المرجع الأساسى إلى القرن السادس عشر ،
وقرر سكن الأرض باعتبارها مركز الكون ، ودوران الشمس وسائر
الكواكب حولها ، واعتنقت الكنيسة هذا الرأى ، وأهملت الرأى المضاد
الذى عرف عند قدماء الفيثاغورية ، إذ افترض هؤلاء أن مركز الكون
يتحتم أن يكون مضيئاً بذاته ، لأن النور يفضل الظلام ، وساكنالآن السكون
يسمو على الحركة ، وبهذا أبعادوا الأرض عن مركز الكون ، الذى اعتبروه
ناراً غير مرئية حتى جاء أرسطارخوس في القرن الثالث قبل الميلاد وأحل
الشمس مكان النار ، فأقر بهذا الاقتراض الرأى المعتمد في العصر الحديث ،
ولكن صوت أرسطو وبطليموس قد خنق رأيه ، فانطمس حتى انبعث في
القرن السادس عشر على يد كوبرنيكوس ، الذى يقال إنه اطلع على الرأى
القديم فى مؤلفات شيشرون .

أما رأى بطليموس فقد كان المذهب الذى اعتنقته الكنيسة طوال العصر
الوسيط ، إذ أثبت كليمان الإسكندرى أنه يتفق مع ظاهر التوراة ويساير
روحها ، وسرعان ما اتصلت الفكرة بتعاليم الإنجيل وقواها أمثال توما
الأكوينى فى مؤلفه العظيم « الخلاصة اللاهوتية ، وروج له شاعر المسيحية
« داتى ، وغيره بمن استغلوا الفكرة فى تبيان العلاقة بين الله والبشر ، وسابرت
النظرية موقف الكنيسة من الإنسان الذى كان تاج الخليقة وبطل الرواية
الكونية - فيما يقول ولف - خلق لخدمة الله والاستجابة لأوامره ، كما

خلق الكون لصالح هذا الانسان ، فلا مناص من أن يكون مكانه من الكون مركزه ، لأن هذا يمكنه من خدمة الله وتسخير الكون كله لمصلحته ، كما يقول بطرس لمبارد الأستاذ في جامعة باريس في القرن الثاني عشر . وهذا بالإضافة إلى أن الفداء المسيحي قد تم على هذه الأرض التي يقيم الإنسان على أديمها ، وهكذا توطلدت النظرية « الجيوسنترية » التي نسبت إلى بطلميوس ، وخفت صوت النظرية الهليوسنترية التي بدأ متأخرو الفيثاغورية التبشير بها منذ القرن الثالث قبل الميلاد ، ولبثت مهمة حتى نزع إلى تأييدها « برونو » الذي استشهد محروقاً ، ومكن لها رب الفلك الحديث « كوبرنيكوس » الذي أقر الأرض في مكانها من الكون ، وأثبت بتجاربه الفجة وأدواته الفلكية الأولية أن الأرض تدور دورة مزدوجة ، حول نفسها ، وحول الشمس ، وأن الشمس - لا الأرض - هي مركز الكون ، والسيارات إنما تدور حولها على أبعاد متفاوتة ، فلها همٌّ باذاعة رأيه تردد طويلاً ، إذ كان من أساقفة الكنيسة التي اعتنقت مذهب بطلميوس ، واستعانت به على تأييد النصوص المقدسة ، فأعلن الفكرة الجديدة باعتبارها فرضاً متناقضاً في ظاهره ، أكثر منه مذهباً علمياً في الطبيعة . وبعد ثلاثين عاماً تولى أحد تلامذته - Widmenstadt - تفسيرها أمام كليمان السابع باعتبارها مجرد فرض يدفع إليه حب الاستطلاع ، ثم توارت بعد ذلك ، ولكن كوبرنيكوس قد واصل دراستها ، حتى تأيدت عنده حقيقة لا تقبل شكاً ، ولكن إعلانها على هذا النحو في روما يندربسوء المصير ، ولهذا ارتد إلى وطنه في بولنده يائساً ، ولكنه أتم بعد ثلاثين عاماً وضع كتابه « حركات الأجرام السماوية » *Revolutions of the heavenly bodies* الذي كان حداً فاصلاً بين العلم والانجيل ، وأهداه إلى قداسة البابا ، ولكنه تردد في نشر الكتاب ثلاثة عشر عاماً ، نجحت بعدها مساعي أصحابه ومريديه ، فاعتزم طبعه وهو واجف القلب قلق النفس ، ثم تردد في مكان طبعه ، لأن روما مقر

الكثلكة ، و « وتبرج » مهد البروتستانتية ، فهما معقل الرجعيين من أعداء كل جديد ، فلجأ إلى نورمبرج وعهد بكتابه إلى أوزياندر Osiander ، ولم يجرؤ هذا الناشر على إذاعة الكتاب من غير مقدمة ، كان وجه الطرافة فيها أنها تنكر على صاحب الكتاب اكتشافه العلمي ، فتزعم أنه فرض خيالي لا مذهب علمي ، وأن من حق عالم الفلك أن يسترسل مع شطحات خياله ، وأن هذا هو شأن كوبرنيكوس في كتابه ، وحققت المقدمة الغرض الذي وضعت من أجله ، ففي الرابع والعشرين من شهر مايو عام ١٥٤٣ تلقى كوبرنيكوس أول نسخة من كتابه ، وهو طريق الفراش يعانى متاعب الشيخوخة في السبعين من عمره ، وأشفق الموت على شيخوخته فعجل باختطافه يعد بضع ساعات من وصول الكتاب إليه ! وحرصت الكنيسة سبعين عاماً على ألا تثير الجدل في أمر هذا الاكتشاف العلمي ، وقنعت بأن يخلو من الإشارة إليه الشاهد الذي ينصب على قبره ! وحسب الشاهد دعاء يلتمس فيه الغفران ! حتى انقضت على وفاته ثلاثون عاماً ، تمكن بعدها أحد أصدقائه من تسجيل النظرية على شاهد القبر . فلما أيد الرأي جاليليو - بما سنعرف أمره في الفصل التالي - جزعت الكنيسة من هذا الشر الزاحف ، وأمرت بمصادرة الكتاب حتى تصحح آراؤه بحيث تتماشى مع الفكرة القديمة المألوفة ، وسارت البروتستانتية بمختلف فروعها ، من لوثرية وكلفنية وإنجيليكانيه في هذا التيار نفسه ، فأطلقت غضبها وسلطت شرها على صاحب النظرية ومؤيديه . وأعلنت مستندة إلى النصوص المقدسة مروقهم من حظيرة الدين القديم ، وسارت الجامعات حتى أواخر القرن السادس عشر في ركاب هؤلاء الرجعيين ، وصدرت الأوامر إلى أساتذتها بعدم الإشارة إلى مثل هذه النظريات ، على نحو ما أشرنا في الفصل الذي عقدهناه على « حرية النظر العقلي » .

وهكذا تكاتفت معسكرات الرجعيين ، على مقاومة هذه النظرية ومطاردة دعائها ، ولكن آية الحق لا يطمسها مثل هذا التضيق ، وخصومه لا يستطيعون أن يطفئوا نوره ، ولو كان بعضهم لبعض ظميراً .

وإذا كان الموت قد أنقذ ، كوبرنيكوس ، من شر ما كان ينتظره ، فإن خصومه لم يتورعوا عن الانتقام منه ميتاً ، إذ بعد وفاته بنحو ثلاثة قرون من الزمان - مايو ١٨٢٩ - اجتمع في وارسو حشد عظيم من الناس ، لإحياء ذكره ورفع الستار عن تمثال نُحِت من أجله ، وكان المنتظر وقد كان كوبرنيكوس قسيساً برى . معتقده الديني من كل طعن ، وفاضت حياته ورعاً وصلاً وتقوى ، أن يؤدي رجال الدين واجبهم نحو ذكره ، وتوقع منظموا الحفلة ذلك ، فسار الحشد إلى الكنيسة ، وانتظر رجال الكهنوت ، وطال الانتظار ساعة لم يظهر فيها أحد منهم ، ولم يكن هذا بيدع لأن كتابه لم يرفع من فهرست الكتب المحرمة على المؤمنين ، إلا بعد خمس سنوات من هذا التاريخ . . .

ولقد كان الرأي الجديد في القرن السادس عشر ، مثاراً للغبن عند رجال الكهنوت ومن جرى في ركبهم من دعاة العلم السلي ، فإن « كوبرنيكوس » كان من صفاء النفس أو دقة المنطق بحيث استطاع أن يحدس بانتصار الروح الجديد ، قال له ذات يوم بعض خصومه : إذا صح رأيك ، وجب أن تتكشف الزهرة عن وجه كأوجه القمر ، فلم يجر جواباً ، ولكنه - بإيمانه العميق - لاذ برحمة الله ، وقال إنه تعالى كفيلاً بتحقيق ما تقولون ، فلم ينقض على وفاته ثمانية وستون عاماً حتى أثبت مرقب ، جاليليو ، نبوءته^(١) .

(١) اصول نظرية كوبرنيكوس في الفيشاغورية القديمة موجودة في كتاب :
Flammarin, Vie de Copernic, وقرأ Hoefler, Hist. de l'astronomie 1873 p. 107 seq
وقرأ كذلك : Menzer's trans. of Copernicus' works وصدد بقاء كتاب كوبرنيكوس
في الفهرست ١ ، عام ١٨٣٥ وعن نبوءته الأخيرة فقرأ Cantu, Histoire Universelle
ج ١٥ ص ٤٨٣ والمؤلف كاثوليكي روماني مخلص وقد أحسن عرض تاريخ النظرية الدكتور
A. D. White اندرو ديكسون هوايت في كتابه القيم A Hist. of the Warfare
of Science with Theology in Christendom . وعليه كان أكبر اعتمادنا .

موقف الكنيسة من عمران الفكرة الأرضية :

ولقصة دوران الأرض بقية تأتي في الفصل التالي ، ولكن الحديث عن هذا الموضوع يتداعى مع موقف الكنيسة من عمران الأرض في شتى جوانبها ، فقد كان الاعتقاد في عمران الجانب المواجه لموطننا من الأرض ، مثار جدل أدى إلى التشكيل والاضطهاد :

انحدرت هذه الفكرة إلى العالم المسيحي عن اليونان والرومان ، أيدها أمثال شيشرون وبليني ، وأنكرها أمثال أبيقور ولوكريوس وبلوتارك ، وسرعان ما تسلت الفكرة إلى العالم المسيحي وتراوحت بين الإنكار والتأييد ، وذهب بعض القديسين إلى أن الخلاص غير مستحيل على من اعتنق هذا الرأي ، ولكن جمهرة الآباء كانوا على شك في إمكان هذا الخلاص ، وبدا لمنكري الفكرة أن من خطل الرأي أن يعتقد الإنسان بوجود أناس تعلو مواطيه أقدامهم على رؤوسهم . . . وبوجود نباتات وأشجار تنمو ضاربة إلى أسفل ، ومطر وجليد يصيب سطح الأرض من تحت إلى فوق ! أليس هذا ما يترتب على الاعتقاد بأن الوجه المقابل لموطننا من الأرض معمور بالخلائق . . ؟ ولو صح هذا الزعم لوجب أن يمضى المسيح إلى هؤلاء الناس ويقضى مصلوباً من أجل خلاصهم . إن التوراة فيما يرى القديس أوغسطين + ٤٣٠ لا تشير إلى مثل هذه السلالة الآدمية ، وكيف يأذن الله بوجودها في هذه البقاع التي لا تيسر لأهلها رؤية المسيح حين يعود فيهبط من السماء إلى الأرض ، إن التبشير بالإنجيل لم يبلغ هذه البقاع التي يزعم أنصاره الانتيبود ، أنها معمورة ، لأن المزموه التاسع عشر يقول :
« في كل الأرض خرج منطقمهم وإلى أقاصى المسكونة كلماتهم ، ومن هنا أعلن القديس بولص في رسالته إلى الرومانيين أن المبشرين لم يبلغوا هذه الأرض التي زعموا أنها معمورة ، فهذا الزعم افتراء على القديس بولص والروح القدس ، وإذا قال هذا أوغسطين ، فقد أنصتت الكنيسة والعالم المسيحي من ورائها ،

واعتنت رأيه ديناً ، فاستقر رأيه عشرة قرون من الزمان ، قلّ من تردد
إبانها في التسليم به ، وحتى الذين اعتقدوا في كروية الأرض من أمثال
إزيدور الأشبيلي - في القرن السادس - قد جنحوا عن التسليم بفكرة عمران
جوانب الأرض كلها ، ولكن المفكرين لم يكونوا جميعاً على رأى اللاهوتى القديم ،
وقد كان في طليعة القائلين بعمران الجوانب كلها ألبير الكبير ، وإن أحاط
حديثه بغموض أدى إلى اعتباره في نظر البعض منكرًا للفكرة ، ولكن
الكنيسة قد اعتنت رأى « أوغسطين ، ولجأت إلى محاكم التفتيش وآلات
التعذيب وسخرتها في مطاردة خصومها عسى أن تتوارى عن الأذهان
فكرتهم ، فهتت محكمة التفتيش في مطلع القرن الرابع عشر - ١٣١٦ م -
بإعدام الطبيب بطرس البانو أو أبونو كما جرت العادة بتسميته ، ولكن
المنية عاجلته بإنقاذه من برائتها ، وامتد الاضطهاد إلى محاربة أحرار الفكر
في أرزاقهم ، فاهتت في عام ١٣٢٧ العالم الفلكى الذائع الصيت شيكو داسكوبا
Cecco d'Ascoli بالسحر وأقصته عن منصبه كأستاذ في جامعة بولونيا ، ثم
أحرقته حياً في فلورنسا - وكان كلاهما يعتقد بأفكار من بينها عمران الجانب
المواجه لموطننا من الأرض - وخلد هذه المأساة الفنان Oreagna فصور
الشهيد والنار تأكل جسمه ، وعلمت الصورة على جدران Camp. Sants في
مدينة بيزا (١) .

واستغلت الفكرة اللاهوتية في محاربة « كولبس ، والقضاء على مشروع
رحلته في اكتشاف أمريكا ، إذ لجأ - بعد أن أبى مجلس جنوه أن يزوده
بالمال - إلى ملك البرتغال ، فأحاله إلى مجلس من العلماء رفض مطلبه ، وحقر

(١) انظر مأساة بطرس ألبانو : Naudé, Hist. des grands hommes
soupçonnés de Magie وفي مأساة شيكودا سكولى انظر Montuclé, Hist. des
Daunon, Études Historiques vol. VI. p. 320 وكذلك Mathématiques. 1,528
ما من تصوير الفنان له وهو يحترق في النار فأقرأ Renan, Averroes, et l'Averroisme,
Paris 1867, p. 8

من شأنه أسقف Centa ولكن الملك يوحنا الثاني كان مشغولاً باكتشاف المناطق المجهولة ، فأشار عليه أحد الأساقفة بإرسال بعثة دون علم من كولمبس ، ولبت هذا يلتمس تحقيق مشروعه حتى استجابت له ملكة قشتاله ، ولكن أحد رجال الدين قد توجس أول الأمر من هذا المشروع الذى قد يتضمن المروق من الدين ، ولكنه اقتنع بالمشروع وأعان صاحبه على الملك فردنند - زوج ايزابيلا - فأحاله هذا إلى مجلس من العلماء أحموه بنصوص من المزامير وأقوال مستقاة من القديس بولص والقديس أوغسطين ومن إليهما من آباء الكنيسة ، وقيل إن الجدل قد استمر ثلاثة أعوام ثبت بعدها بطلان المشروع الجديد . . ؟ وهذا على الرغم من أنه - فيما يقول كتاب سيرته - مدين برحلته إلى الروح الدينى ، والتحمس لإذاعة النصرانية فى البقاع التى يقدر لها اكتشافها ، وشاء الله أن تتحقق آمال كولمبس ، وأن يدحض أوهام خصومه ، ولكن الكنيسة برغم هذا قد أصرت على موقفها الذى أنكرت فيه كروية الأرض وأبت التسليم بأن يكون غير موطننا من الأرض معموراً بالخلائق . ! فلما استدعى البابا اسكندر السادس عام ١٤٥٣ للفصل فى الخلاف الذى نشأ بين أسبانيا والبرتغال من جراء ما تدعيه كل منهما من الحق فى احتلال الأراضى المكتشفة حديثاً ، حسم الخلاف بينهما بجرة قلم ، إذ جر على خريطة العالم خطأ فصل به سطح الأرض من الشمال إلى الجنوب على بعد مائه فرسخ من جزر الأزورس Azores ، للبرتغال كل ما اكتشف شرقه ، ولأسبانيا ما اكتشف غربيه . ! ولكن أحداث الخلاف لم تنقطع ، فاضطر البابا يوليوس الثانى عام ١٥٠٦ إلى أن يغير موضع خط التحديد ، فجعله على بعد ٣٧٠ فرسخاً من جزر داس فيرد Verde - وإن أبقى الخط ممتداً من الشمال إلى الجنوب ، ولكن البرتغاليين قد أدركوا أنهم يستطيعون امتلاك البرازيل لو ساروا شرقاً ، وواصلوا السير طويلاً . . ! وعلى الرغم من أن « ماجلان » قد أثبت برحلته

المشهوره — عام ١٥١٩ — كروية الأرض بالطواف حولها ، وشاهد مع رفقائه الناس الذين يسكنون الجانب المواجه لموطننا من الأرض ، فإن الكنيسة قد لبثت تقاوم هذا الرأى قرنين من الزمان ، حتى أكد صحة الرأى مبشرون طافوا حول العالم للتبشير بالدين المسيحى ، وتثبتوا من صحة ما ادعاه خصوم الكنيسة ، فهدأت نائرة النزاع بعد اثنى عشر قرنا من الزمان (١) .

فهرس الكتب المحرمة على المؤمنين :

كان اختراع المطبعة إيذاناً بانتشار الكتب وتيسير تداولها ، وشيوع النزعات الجاححة والآراء الهدامة ، وكان هذا كفيلا يزعج المعسكرات الدينية والدوائر المحافظة ، فنشطت الكنيسة فى مراقبة الكتب التى تهدد الإيمان وتتهجم على العقائد ، وتدفع الناس إلى الاستخفاف بالسلطات الدينية ، والاستهانة بقواعد الآداب ومبادئ الأخلاق ، واضطلعت محكمة التفتيش بفرض رقابتها على المطبوعات ، وأنشأت من أجل هذا سجلا تدوّن فيه أسماء الكتب التى تحرم الكنيسة على المؤمنين قراءتها أو حيازتها ! وقد بدأت نواة هذه الرقابة منذ عصور المسيحية الأولى ، إذ نهضت الكنيسة بمقاومة كل ما من شأنه زعزعة الإيمان أو فساد الأخلاق ، وكان من هذا ظهور « *Decretum Gelasianum libris recipiendis non recipiendis* » ونزعت الكنيسة إلى إحراق الكتابات التى تنطوى على الإلحاد وتهدف إلى مخالفة تعاليمها ، وأصدرت من أجل هذا قراراً امبراطورياً ، وسرت هذه الروح

(١) انظر فيما ذكرنا عن كولبس Humboldt, Hist. de la géographie du Nouveau Continent أما عن خط التحديد الذى رسمه البابا اسكندر الثالث فانظر Daunon, Études Historiques vol. II, p. 147 أما عن أثر رحلة ماجلان فاقراً Sr. Mortin, Hist. de France vol. XIV p, 395 وكذلك Henri Martin. Hist. de France vol. XIV p, 369. de la Géographie p. وعرض لتاريخ « الانيبود » أى سكان الجزء المواجه لموطننا من الأرض وبيان النزاع بصدده White فى الجزء الأول س ١٩٢ — ١١٩ فى الفصل الثالث من الباب الثانى . وهو مترجم فى النسخة العربية .

طوال العصر الوسيط ، ثم أقرت جامعة كولوني - قبيل نهاية القرن الخامس عشر - الرقابة على الكتب وأوجبت إجراء فحصها قبل طبعتها ، فاستحقت بذلك ثناء البابا سكستوس الرابع وتهانيه ، وكانت موضع تقدير من البابا إنوسنت الثالث (نوفمبر ١٤٨٧ م) وفي عهد البابا الإسكندر السادس ، ذهب بهذا القرار إلى مداه مجلس لاتيرن Latern Council ، فقرر معاقبة كل ناشر يقدم على طبع كتاب من غير ترخيص من هيئة دينية خاصة بذلك ، وكانت العقوبات التي أقرها تتراوح بين الحرمان ودفع الغرامة ومصادرة الأملاك وإعدام الكتب . وقد قرر « مجلس ترانت » في اجتماعه الرابع - ١٨ أبريل ١٥٤٦ م - حظر بيع أى كتاب ديني أو امتلاكه متى كان غفلا من اسم صاحبه ، أو غير معتمد من السلطة الدينية المنوطة بذلك . ثم أذيعت قوائم بالكتب التي ترى الكنيسة تحريم قراءتها ، وتولت طبعتها الجامعات^(١) . ثم أمر البابا بولص الرابع بجمع الديوان المقدس بإعداد ثبت بالكتب المحرمة ، طُبع أول مرة في عام ١٥٥٧ وأعيد طبعه معدّلاً في مستهل عام ١٥٥٩ ، وكان أول قائمة رومانية رسمية بالكتب المحرمة ، ونُصِّص فيها على تحريم هذه الكتب وقرار الحرمان لأهلها ، وقسمت إلى ثلاثة أبواب ، تضمن أولها أسماء المؤلفين الذين أدينوا كتبهم ، وشمل ثانيها كتب هؤلاء المفكرين ، واحتوى ثالثها على أسماء الكتب المحرمة التي صدرت غفلا من أسماء مؤلفيها . . . ثم طبع هذا الثبت معدّلاً في يونيه من عام ١٥٦١ . . . وتوالى طبعه من حين إلى حين .

وبمرور الأيام وتغير الظروف الاجتماعية ، كفت السلطات عن تطبيق القواعد التي وضعها في هذا الصدد « مجلس ترانت » ، واتمس الكثيرون من القساوسة إعادة النظر إلى هذا الفهرس ، فلما اعتلى عرش البابوية ليو الثالث

(١) جامعة باريس في عام ١٥٤٢ وجامعة لوفان Louvain في عام ١٥٤٦ (ثم ١٥٥٠)

وجامعة كولوني والبنديقية في عام ١٥٤٩ . . . الخ

الثالث عشر أذاع في الخامس والعشرين من يناير ١٨٩٧ قانوناً من تسعة وأربعين بنداً ، عدل فيها النظام القديم وخفف العقوبات التي فرضت على أحرار الفكر من قبل ، وأذن بنشر الكتب التي لا تمس العقيدة الكاثوليكية ، وصرح بطبع الكتاب المقدس تيسيراً لفهمه ودراسته ، وترجمة الإنجيل إلى اللغات الدارجة . . . إلى آخر ما ورد في هذه القوانين الجديدة التي تسير روح العصر على قدر الاستطاعة (١) .

كلمة أخيرة :

على هذا كان النزاع بين اللاهوت القديم والفكر الجديد في عصر النهضة ، وقد توّج مصرع « برونو » عام ١٦٠٠ هذه المرحلة ، التي انقضت في عرف مؤرخي التفكير في نهاية القرن السادس عشر ، فأخذت حركة الاضطراب تتلاشى ، وتضائل نفوذ « المسيحية الرومانية » فيما يقول درابر Draper وبدأ الشك الهدام يتحول إلى يقين تجريبي في ميدان العلم ، ونظر رياضي في مجال الفلسفة ، وكفّ المفكرون عن إحياء التراث العقلي القديم ، ونزعوا إلى ابتكار تراث جديد ، وأخذ الاتزان يحل مكان الرعونة التي أصابت مرحلة الانتقال ، فكان هذا إيذاناً بمطلع العصر الحديث ، على أشلاء الذين استشهدوا في سبيل الحقيقة ، والتمسوا من أخلافهم استيفاء الجهاد من أجلها ، حتى تقر ويشوطد أمرها ، وكان العقل قد مكّن لنفوذه بين الناس ، فازداد إيمانهم به وإذعانهم لمنطقه ، وكان هذا نذيراً بامتداد النزاع أجيالاً طويلاً . . . وهذا ما نراه في حديثنا التالي :

(١) للتوسع في موضوع فهرست الكتب المحرمة اقرأ مقال « بودنهون » A. Bondinhon بدائرة معارف الدين والأخلاق Encyc. of Religion & Ethics ثم كتابه (Paris 1899) La Nouvelle Législation de l'index وكتاب T. Hurley Comment on the Present Index Legislation (Doblin 1908) ومادة Index في دائرة المعارف البريطانية .

الفصل السادس

نمو النزعة العقلية في العالم الكاثوليكي

في القرنين السابع عشر والثامن عشر

إمكان الجمع بين التفلسف والتدين — سلطان العقل عند ديكارت — سلطان الوحي في فلسفته — غلبة الوحي على العقل — علاقة ديكارت برجال اللاهوت — موقف رجال اللاهوت إزاءه — أثر ديكارت في انعصر القدي تلاه — حملة « بايل » المنعقدة على المسيحية — تطور اتجاه الفلاسفة في القرن الثامن عشر — حملات ثورات الهدامة السافرة على المسيحية ورجالها — اضطهاد روسو من أجل حملاته على الدين — مقاومة الماديين ورجال الموسوعة المسيحية — تعقيب — « شينوزا » بين التفلسف والتدين — عداء السلطات الدينية اليهودية له — جاليليو ونظرية دوران الأرض — محنة جاليليو ومراحل اضطهاده — اضطهاد أتباعه بعد مماته .

إمطار الجمع بين التفلسف والتدين :

أوشكت حركة التحرير في عصر النهضة أن تقوض سلطان الدين ، وتعصف بتقاليده ، وتجتاح نفوذ رجاله ، وما أشرق العصر الحديث — في مطلع القرن السابع عشر — حتى انصرف المفكرون عن ابتعاث التراث القديم ، ونزعوا إلى الابتكار والإبداع ، وقدر لهذا العقل الجديد كل نجاح ، فأنشأ فلسفة عقلية جديدة — وإن تحدرت بعض عناصرها عن الماضي البعيد — ومهد لظهور العلم التجريبي الحديث « وبهذا أقر يقين المعرفة — بعد أن دالت دولة الشك الهدام — على نظر عقلي رياضي يتدعم بنيانه ، واستقراء تجريبي تتوطد أركانه ، ومن هنا ظن الذين تخدعهم الظواهر ، وتستخفهم النظرة العاجلة فيسارعون إلى الحكم المبترس ، أن العالم الأوربي قد أخفق في إبداع فلسفة جديدة ، حتى تيسر له التحرر من سيطرة الدين ونفوذ تقاليده !

ولهذا الحكم دلالة على نهوض الاستقراء التاريخي شاهداً على قيام التعارض بين الدين والفلسف ، وتعذر الإنتاج العقلي الناصج ، مع الإيمان بالوحي الديني ومقتضياته ، أى أن الفيلسوف يقتضى الإلحاد ، والإيمان يمنع الابتكار . ! وهذه الفكرة المروعة مثار ضيق مُبعض وقلق مُلح عند الكثيرين ، ولو كانت صحيحة لأغفلنا أمرها وما حرصنا على تنفيذها وتحريتنا القيام بدورها ، ولكن فى فلسفة القرن الذى نقوم الآن بتأريخه ، خير معاون لنا على ما نريد .

ذكرنا فى الفصل الثانى من هذا الكتاب رأى ساتهليلر ولنجستون وغيرهما ممن ردوا أصالة originality الفلسفة اليونانية إلى استقلالها المطلق عن الدين فى كل صورته ، وهذا الرأى لا ينفى فيما يلوح لنا ، إمكان الجمع بين الدين الصادق والفيلسوف المثمر ، من غير تعارض يستلزم القضاء على أحدهما كان روح النهضة على تنافر ملحوظ مع روح العصر الوسيط ، لأن حركة البعث قد أعلنت صوت العقل الذى كان قد خبا وسار فى ركاب الوحي إبان العصر الوسيط -- على ما عرفنا من قبل ، وبدت حركة التحرر من الدين عنيفة واضحة إبان عصر النهضة ، ومع هذا التحرر الذى أوغل فيه المفكرون إلى أقصى أماده ، لم يستطع مفكرو هذا العصر أن يبدعوا فلسفة جديدة مبتكرة ! وظل التفكير الفلسفى طوال هذا العصر نزاعاً إلى إنشاء العلم الطبيعى ، ميالاً إلى ابتعاث المذاهب الفلسفية القديمة ، أما الفلسفة المبتكرة حقاً ، فلم تولد إلا فى مطلع العصر الحديث -- فى القرن السابع عشر ، الذى اشتد فيه الإيمان بشريعة العقل ، مع الإبقاء على قدسية الدين وحرمة تعاليمه . . ! وكانت فرنسا أصدق مثال للتعبير عن هذه الظاهرة ، إذ جدت فى إزالة التنافر الذى كان بين روح العصر الوسيط وروح النهضة ، وحاولت أن تقيم التوازن بين مقتضيات الطبيعة وأوضاع الإيمان الدينى ، وجمعت بين التسليم الملحوظ بسلطان العقل ، والإيمان العميق بوحي المسيحية -- فيما يقول پارودى ، وكان هذا هو معقد

الطرافة في فلسفة هذا القرن ! ولم يكن تلاقي العقل الفلسفي والإيمان الديني عقياً مجدداً ، بل تكشف عن إبداع فلسفي خليق بكل إعجاب ، وحسبنا أن نذكر ديكارت وما لبرانش ، لتبين مبلغ الصدق فيما نقول ، وفي هذا القرن ظهرت محاولات التوفيق بين الدين والفلسفة عند مالبرانش في فرنسا وسينوزا في هولندا ، وجون لوك في إنجلترا ومن هنا كان الجمع بين الدين والفلسف .

وقد كان تلاقي العقل والإيمان خليقاً بأن يصادف هوى من نفوس رجال اللاهوت ، ولكن بعض الفلاسفة الذين تمثلت فيهم هذه الظاهرة ، قد لاقوا من المعسكرات الدينية عنتاً شديداً ، وكان ديكارت من هؤلاء ، تمثل فيه انعدام التعارض بين الدين والفلسفة ، وتجلي عنده الإيمان بالدين والحرص على ترضي رجاله ، وتجنب كل ما يثير مكان الضيق في نفوسهم ، عن وفاء لهم أو اتقاء لشرم ، ومع هذا لم ينبج في حياته من اضطهادهم له وتجنّبهم عليه ، ولم تسلم ذكراه بعد مماته من أذى يلحقونه بآثاره ، وهكذا طاردوه حياً وميتاً . . ! فلنعرض لبيان هذا على قدر ما يتسع المقام :

سلطان العقل غير ديمقراطي :

شاعت الفوضى وفشا الشك الهدام في أوروبا أبان القرن السادس عشر — على ما عرفنا من قبل ، فطاحت سلطة الكنيسة والكتب المقدسة وتداعت سطوة الدين والإيمان ، وانهار نفوذ العلم وضاع سلطان أرسطو ، وانحلت وحدة أوروبا روحياً وعقلياً ودينياً وسياسياً فيما يشير أستاذنا A. Kouyé وفي هذا الجو ظهر ديكارت ، أبو الفلسفة الحديثة ، فأخذ يحول شك « مونتاني » Montaigne إلى منهج يستند إلى منطق العقل وينتهي إلى يقين الحقيقة ، ليقيم فوق تلك الأنقاض فلسفة جديدة ، فأخذ يجر باستبعاد كل سلطة غير سلطة العقل الذي يجعل الحدس intuition المعيار الوحيد لكل حقيقة ، وقد أراد بالعقل القوة التي يتطلبها تمييز الحق من الباطل ، وضمنه مرحلتين هما الحدس

والاستنباط deduction والحُدس عنده تصورٌ ينشأ في نفس سليمة عن نور فطري طبيعي يمكننا من أدراك الأفكار البسيطة ، ويكون في الطبائع البسيطة غير المركبة ، ويليه الاستنباط العقلي وهو حركة فكرية يستنبط بها شيء من شيء آخر ، وقد أفضى تيمسكه بالعقل ، بهذا المعنى ، إلى تداعي سلطة الكنيسة وانحلال النفوذ الذي تهبأ لأرسطو وبدا ديكارت — عند أمثال تشارلس آدم — ممثلاً للذهب العقلي في الفلسفة الحديثة .

وقد أكد ديكارت نزوعه العقلي بقواعد منهجه الرياضي ، الذي وضعه لاكتشاف الحقيقة في شتى العلوم ، إذ جعل قاعدة اليقين أولى قواعده ، وفيها أوجب على الباحث ألا يقبل حقيقة على أنها كذلك ، إلا إذا بدت أمام عقله الحر المستقل في وضوح وتميز لا يدع للشك مجالاً ، وبهذا انتفت الأحكام التي تحدرت عن السلف ، أو تكونت منذ أيام الطفولة ، واستبعدت الأفكار التي لم يصل العقل بشأنها إلى يقين كامل ، وامتنع التسرع الذي لا يسبقه النظر العقلي المستقل ، فأمن بهذا أوهام العلم الذي كان يدرسه ويشعر بما فيه من قصور ، نشأ عن كثرة بُناته الذين تحدروا عن أجيال متعاقبة (القسم الثاني من المقال) ومن هنا اعتزم النهوض بتجديد العلم واستئناف الفلسفة وكان أحداً قبله لم يفلسف . . ! بالتفكير الحر في نفسه ، لأن الحقيقة تثوى في نفوسنا كما تثوى النار في الحجر الصوان ، وأول مراحل هذا المشروع الضخم أن يطهر بالشك الإرادي عقله من كل ما حوى من أفكار وما تضمن من معتقدات ، ليعرضها على حكم العقل ، ولو مرة في حياته ، ويستبعد منها كل ما لا يسير شريعته ، وبهذا لا يدعن العقل لغير الحقيقة التي يتكشف عنها جهده الحر ، ومن هنا كان شكه غير مطلوب لذاته ، بل ليسلم إلى يقين المعرفة ، وليمكن صاحبه من أن يترك الأرض الرخوة والرملة إلى الصخر أو الصلصال ، فيما يقول في مقاله .

وتتبع خطوات منهجه يكشف عن نزوعه الرياضية التي هيمنت على

فلسفته في كل مراحلها وخطواتها ، ومن هنا كان أبا المذهب العقلي في الفلسفة الحديثة ، وإليه يدين دعاة هذا المذهب في القرنين التاليين .
هذه هي بعض آيات تمسكه بالعقل الذي رد إليه « سلطانه » بعد أن هدمه شك القرن السالف ، وشاعت هذه النزعة العقلية عند مفكرى هذا القرن جميعاً .

فلنعرض موقفه من الدين ، وعلاقة الوحي بالعقل في فلسفته :

- سلطانه الرومى في فلسفته :-

ولكن ديكارت لم يدعن لثورته العقلية حتى نهايتها ، لأن هذا العقل الذى يعتز به ، هبة من الله شارك فيها الناس جميعاً ، بل إنه أعدل ما فى العالم قسمة بين البشر فيما يقول فى مطلع مقاله . ولكن كيف تطمئن للعقل الذى يهبه الله بعد أن أخضعناه لشكنا على نحو ما أبنا من قبل . . ؟ فى الحق إن الإمعان فى الشك لا يمكن صاحبه من أن يشك فى أنه يشك ، والشك محتاج إلى ذات تشك ، ومن هنا ثبت وجود النفس كذات تفكر ، وأضحى هذا أول مبدأ يقينى اهتدى إليه ديكارت بعد شكه المسرف ، فاعتبره مبدأ الفلسفة التى يتحرى إنشاءها ، وسر اليقين فيه وضوحه وتميزه أمام العقل ، ومن هنا كان كل ما بدأ على هذا النحو حقاً لا ريب فيه ، كما يقول فى مقاله وتأملاته ، وأول ما يلزم عن هذا المبدأ تميز النفس عن الجسم ، وخلودها أى عدم تعرضها للفناء ، وإدراك الإنسان لشكه يفضى إلى إدراك نقصه ، ونقصه هذا مقيس إلى تصور شىء تام الكمال ، ألقاه فى نفسه - تبعاً لمبدأ العلية عنده - كائن مطلق الكمال ، هو الله .

وإذا أثبت ديكارت وجود الله وأوضح صفاته التى تسير كماله المطلق ، علق على هذا كل يقين عقلى ، فربط بهذا بين الدين والفلسفة فى بداية فلسفته ، إذ أن الله عنده واحب الوجود الذى صدرت عنه أفكارنا ، وهو كامل مطلق الكمال ، وهذا يتنافى مع إضافة الخداع إليه ، لأن القدرة على خداع الناس

وإن كانت آية ذكاه، فإن إرادة الخداع لا تصدر إلا عن خبث أو خوف أو ضعف، وحاشا لمطلق الكمال أن يكون كذلك — كما يصرح في مبادئه . وإذا كانت أفكارنا قد صدرت عن الله المنزه عن كل خداع، أمكن الاطمئنان إلى العقل وتصديق أحكامه في كل ما يبدو أمامه واضحاً جلياً متميزاً، هكذا كان الله ضمان اليقين في الاستدلالات والبراهين في الرياضيات والطبيعات على السواء، وبغيره لا يستقيم يقين عقلي ولا عقيدة دينية، ومن هنا أصبح الله مركز التفلسف الديكارتي، ولازمت فكرته الإنسان حتى ليجوز حد الإنسان بأنه الموجود الحاصل على فكرة الله . ولكن أدلة رجال اللاهوت على وجوده لا تصمد للنقد، وأساليبهم في الدفاع عن الدين متداعية، لأنهم يعلقون الإيمان بالله على ما تعلمه الكتب المقدسة، ثم يعلقون الإيمان بالكتب المقدسة على افتراض صدورها عن الله، فيقعون بهذا فيما يسميه المنطقة بالدور — كما يقول في خطاب صدر به تأملاته، وهذا بالإضافة إلى فشو الشك والإلحاد بين الفرنسيين في عصره، إلى حد أن أحصى « مرسين » في باريس وحدها خمسين ألف ملحد!، ويزيد من خطر هؤلاء إقبال القراء على آثارهم، دون أن تجدى في مقاومتهم جهود أهل السلطة من رجال اللاهوت والبرلمان، ومن أجل هذا كله نهض ديكارت للدفاع عن العقيدة الدينية، والتدليل على وجود الله .

وقد بدا الله في فلسفة ديكارت متمشياً مع تصور الدين له، فهو موجود كامل مطلق الكمال أزلي دائماً لا مُتناهٍ، علة لذاته وليس معلولاً لغيره، أبداع الأشياء كلها وعنه صدرت الكمالات والحقائق جميعها . . . إلى آخر الصفات التي تتفق مع صفاته في عرف الدين، وإن كانت فلسفته مع هذا كله ليست دينية تشبه فلسفة العصور الوسطى، إذ اعتمد على الدين وأقام عليه بعض نواحيها ولكنه مضى بها بعد المراحل الأولى مستقلة عن الدين الذي اعتبره مخالفاً لها في طبيعته، ولم يكن يسخر كل فلسفته لخدمة الدين وإقامة دهايمه

بل لعل الأصح أنه اتخذ وجود الله وسيلة للتوصل إلى اليقين العقلي وليس
يعيننا البحث في هذه النقطة ، ومناقشة آراء المؤرخين فيها ، وحسبنا أن نقول
إنه ضم الطرفين اللذين كانا متتافرين - العقل والوحي - في سمط واحد ،
ولم يُضحَّ بأحدهما في سبيل الآخر .

ولكن إذا كان ديكارت قد اعترى بسطان العقل ، وآمن بسطان الوحي
على نحو ما أبتنا من قبل ، فماذا يكون الحال إن تعارض العقل مع الإيمان ؟

غلبة الوحي على العقل :

لقد فصل ديكارت في هذه المشكلة فصلا لا يدع مجالاً للشك ، فأعلى
صوت الوحي على صوت العقل ، وإذا كان قد آمن بمنهجه الرياضى كل باطل
سبق إلى عليه ، واستجاب بهذا لنداء العقل وحده ، فإنه قصر شكه عن تناول
العقيدة الدينية ، فاستثنى من منهجه القائم على الحدس والاستنباط وحدهما
كل حقائق التنزيل ، لأنه اعتبرها فوق متناول العقل ، وجعل الإيمان بها
من أفعال الإرادة وليس من عمل الذهن ، وبهذا عدل عن الفلسفة العقلية
إلى لاهوت العصور الوسطى - فيما لاحظت دائرة المعارف البريطانية -
وأصبح ميدان العقل لا يتجاوز الحقائق الفلسفية ، أما الحقائق الدينية التي
تهدى إلى الجنة - فيما يقول في القسم الأول من مقاله ، فإنها فوق متناول
العقل ، وليس من الحكمة أن نسلها إلى ضعف استدلالنا العقلية ، لأن
البحث فيها لا يكون إلا بمدد غير عادي من السماء ، أى بوحي ينزله الله على
من يصطفيه من عباده فيرتفع بهم دفعة واحدة إلى عقيدة معصومة من كل
خطأ ، ولهذا لاحظ « جلسون » ، أن ديكارت وإن كان قد أعلى صوت العقل
في أولى قواعد منهجه في المقال على ما عرفنا من قبل ، فإنه صرح في « مبادئ
الفلسفة » بأن كل ما أوحى به الله أوثق بكثير من كل ما عدها ، وبهذا شابه
القديس توما الأكويتى ومن جرى مجراه من الفلاسفة الدينيين ، في قصور
العقل مستسلماً لسطان الوحي .

ولم يكن هذا غريباً على ديكرت الذي دان بتعاليم الدين وتقاليد منذ صغره ، وحرص على ترضي رجال الدين حرصاً شانه عن بعض مؤرخيه ، ومن مظاهر مجاراته للتقاليد الدينية أنه حين اكتشف « قواعد ، علم جدير بالإعجاب في ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٩ ، نذر الحج إلى أحب مكان عند الكاثوليك ، وهو كنيسة العذراء في لوريت بايطاليا ليقم الصلاة لله وللعذراء شكراً على توفيقه في اكتشافه ! أما مسلكه بوجه عام وإزاء رجال الدين بوجه خاص ، فيقتضى أن نقول فيه كلمة :

عمره ربطت برجال اللاهوت :

كان شعاره : عاش سعيداً من أحسن التخفي — كما كان يفعل أبيقور قديماً ، ومن هنا تحرى أن ينشر كتبه — كالمقال — غفلاً من اسمه ، وتوخى أن يتجنب الكتابة في الشؤون السياسية وكل ما يفضى إلى إثارة القلاقل وهو يردّ حرصه على العيش في جو من الهدوء والطمأنينة إلى الرغبة في مواصلة البحث — كما يقول في خطابه إلى صديقه « مرسين ، وكان إلى جانب هذا يطمع في أن تأخذ فلسفته مكان الفلسفة الأرسطاطاليسيه في مدارس العالم المسيحي ، ولن يكون هذا إلا إذا اعتمدها رجال الكنيسة ، وكان من بين هؤلاء من تربطه بهم صلوات مودة وصدقة ، وهذا بالإضافة إلى خوفه من محاكم التفتيش التي كانت لا تزال ترّوع العالم الأوربي في عصره ، ولهذا كان يؤثر حبس آرائه على نشرها متى بدت مثاراً للشك ومدعاة للقلق ، فمن ذلك أن منهجه أداه إلى نفس النتائج التي انتهى إليها جاليليو بصدد دوران الأرض . ولكن أبناء إداثة الفالكي الكبير قد ترامت إلى سمعه ، فأثارت فزعه ، حتى أعلن أن الشكوك قد ساورته في أصول فلسفته ، لأن دوران الأرض إن صح بطلانه تداعت أصول فلسفته كلها ، ومع إيمانه بأن القول بدوران الأرض لا يتنافى مع الدين ، كاد يقدم على إحراق كتابه « العالم ، الذي ضمنه هذا الرأي ، لأنه لا يريد أن تصدر عنه كلمة واحدة لا تعتمدها

الكنيسة! ويوتر حبس الرأي على إظهاره مشوهاً - كما يقول في خطاب إلى صديقه مرسين ، بل يؤكد هذا النزوع الوديع في مقاله ، فيصرح بأن لرجال محكمة التفتيش من السلطة على أعماله ما لعقله من السلطة على أفكاره . . ! ومن هنا جاء الغموض الذي أحاط به حديثه عندما عرض لتأييد دوران الأرض في « مبادئ الفلسفة » ، بل أفضى به ترضى الكنيسة إلى أن يغط جاليليو فضله عليه ، إذ يدين له ببعض ما انتهى إليه من أسس العلم والفلسفة ، بل من التزام مناهج علمية في تفكيره في سن مبكرة ، لأن من العسير أن نعتبر تطور عقله كما بدا في المقال عام ١٦٣٧ مجرد سيرة حياته - فيما يقول روبرتسون Robertson ، ويصرح هنرى مور H. Mor بأن طبيعياته قد أفسدها خوفه من الكنيسة ، كما أثار سجن جاليليو جزعه .

ومن دلالات حرصه على علاقاته برجال الكهنوت ، سعيه لاعتماد مؤلفاته منهم ، وقد بدا هذا المسعى مع اليسوعيين في « مبادئ الفلسفة » عام ١٦٤٤ كما أعلن على غلاف التأملات في طبعته الأولى إقرار رجال الدين له ، بل إن إسرائفه في الحرص على ترضى رجال الدين قد أفضى ببعض مؤرخيه من أمثال M. Lero إلى اتهامه بالنفاق والرياء ، وإثارة الشك في صدق تدينه . . ! فما موقف رجال الدين منه ومن آثاره بعد هذا كله . . ؟

موقف رجال الكهنوت ازاءه :

ومن الغريب أن إخلاصه للكثلكة وإيمانه العميق بالمسيحية فيما يقول مؤرخوه وجهوده الطيبة في تأييد عقائدها ومسيرة تقاليدها واحترام رجالها وتجنب إثارتهم ، لم يتكفل بنجاته من اتهامهم له بالإلحاد . ! لم يتمكن من تحويلهم عن أرسطو ، أو اتقاء سوء تأويلهم لبعض نواحي فلسفته ، ومن أجل هذا تضافر الكاثوليك والبروتستانت على اضطهاده حيا وميتا . ! وقد كان روح العصر بما تضمن من تمسك الكنيسة بأرسطو مبررا لهذا الاضطهاد ، فقد عقد شبان العلماء اجتماعات في باريس لنقد طبيعيات أرسطو

والانتصار لنظرية الجواهر الفرد ؛ فصرح رجال الدين ببطلان هذا الرأي ،
ومخالفته لعقيدة العشاء الرباني عند الكاثوليك ، وسرعان ما أصدرت الحكومة
أمرها بإخلاء المكان بعد أن ضم نحو ألف مستمع ، ونفى منظمه خارج
باريس ! وأعلن البرلمان بطلان كل رأى لايساير الآراء القديمة وأنذرياعدام
كل من خرج على أرسطو والكنيسة . . . ١

تتلذذ ديكارت على اليسوعيين ودان بمبادئهم ، وتأثر بالأفلاطونية المحدثة
التي اعتنقها الأوراتور ، وقد رد بعض مؤرخيه إلى هذا اتفاق فلسفته مع
أسرار الدين ، ولكن اليسوعيين قد ضاقوا به ، لأنه هاجم الفلسفة المشائية
التي كانوا يدينون بها في مدارسهم ، وزاد في ضيقهم أن الجانسينست
Les jansénists (إحدى الطوائف الدينية التي عاشت في فرنسا وتولت
العمل على تهذيب النشء) قد اعتنقوا مذهب ديكارت وهاجموا اليسوعيين ،
فزاد هذا من غضب هؤلاء على ديكارت — وإن كان له أتباع من بينهم ،
وكان مرجع اتهامهم له بالمهرطقة إلى تنافي آرائه مع العشاء الرباني ، ولم
يقنعهم دفاعه عن نفسه ، رغم أن أتباعه المتدينين قد حصلوا من الملكة
كرستينا Christina على تصريح أعلنت فيه أن لديكارت فضلا عظيما في
ردها إلى العقيدة الكاثوليكية^(١) .

وقد صادف «مقاله على المنهج» نجاحا هيمنا على التفكير الفرنسي كله ،
واجتذب إلى دراسته سيدات الطبقة المترفة في فرنسا ، فيما يقول روبرتسون
وغيره من المؤرخين^(٢) ولكن أحد آباء اليسوعيين (Bourdin) قد حاول
أن يحمل الأكليروس الفرنسي على المسارعة إلى إدانته في غير تباطؤ ، بيد
أن محاولته قد فشلت لأن فرنسا ، برغم كل ما أسلفناه عنها ، كانت أعظم بقاع

(١) Bouillier Hist. de la philos. Cartésienne, 449—50 (عن روبرتسون

ج ٢ ص ١٢١) .

(٢) مثل Bouillier ج ١ ص ٤١٠ وما بعدها و Lanson في تاريخ الأدب الفرنسي

و Brunatiere في دراسات نقدية . الخ ما ذكره روبرتسون ج ٢ ص ١٢١

العالم الأوربي نزوعاً الى حرية التفكير يومذاك فيما يقول الكثيرون من المؤرخين .

أما عن موقف البروتستانت في حياته ، فقد بدأ حين استقر في هولنده ليكون بمنأى عن معارفه وأصدقائه ، عسى أن تمكنه عزلته من القيام بتجديد الفلسفة كما يشير في مقاله ، وكانت هولنده على تسامح ملحوظ مكنها من طبع ما لا يتاح طبعه من الكتب في غيرها من البلاد الأوربية ، ومع هذا ضاق به رجال الكهنوت ، وحاولوا ان يوقعوه تحت آلات التعذيب بتهمة الالحاد فيما يقول هو ايت A. D. White^(١) وقد اهتمت بفلسفته جامعه أو ترخت منذ نشأتها عام ١٦٣٤ ، فثارت بها مناظرة فيها تأييد لمذهبه وهجوم عليه ، وتولى الهجوم عميدها الذي رفع آخر الأمر قضية على ديكارت ، وأحس الفيلسوف بأنه مهدد بالنفي والغرامة وإعدام كتبه ، فطلب الى سفير فرنسا أن يتدخل لحل هذا الاشكال . وتكررت مثل هذه المناظرة في ليدن ، ولكن السفير الفرنسي كان يتوسط لفضها حتى صدرت الأوامر الى أساتذة ليدن بعدم التعرض للحديث عن ديكارت بخير أو شر !

هذا ما لقيه ديكارت من عنت رجال الدين أثناء حياته ولعل هذا كله هو الذي حمل « هو ايت » White على أن يقول مبالغاً في تصوير هذا العنت ، إن جور رجال اللاهوت منذ عصر روجر بيكون — في القرن الثالث عشر — لم ينل بالإذلال والامتهان أحداً مثل ديكارت !

فلها مات ديكارت طارد خصومه ذكراه وتعقبوا آثاره ونجحوا بعد ثلاثة عشر عاماً من وفاته (عام ١٦٦٣) في وضع مؤلفاته في فهرست الكتب التي حرمت قراءتها على المؤمنين . . . ! وفي سنة ١٦٨١ صدر أمر ملكي يحرم تدريس فلسفة ديكارت في الجامعات الفرنسية كلها^(٢) . . . واضطهد الأساتذة

Vol. I. b 185 (١)

Boullier P. 356 & Robertou vol 2 P 124 (٢)

والقساوسة الديكارتيون وصدرت الأوامر بنفيهم أو إكراههم على إنكار فلسفته ، وكان من ضحايا هذا الاضطهاد الأب Lami عضو مجمع الأوراتوري (وكانت جماعة الأوراتوريان من بين الطوائف الدينية التي اعتنقت المذهب الديكارتي لما وجدته فيه من تشابه بمذهب القديس أوغسطين والأب André اليسوعي ^(١) وأكره أعضاء الأوراتور Oratorains عام ١٦٧٨ على إنكار فلسفته ، والتصريح بعدولهم عن أقوالهم الديكارتيه السالفة واحتفاظاً بمبادئهم .

هذا ما لقيه فيلسوفنا من عنت حياً وميتاً ، بعد أن استفرغ وسعه في السير بالفلسفة العقلية مع الوحي الديني جنباً إلى جنب — في بدايتها — واستنفد جهده في الإبقاء على الدين بعيداً عن نقد العقل ، وبعد ما أبدى من حرص في إظهار ولائه واحترامه لرجال الدين ، ولهذا يتساءل بعض مؤرخيه عما كان يريده منه هؤلاء حتى يرضوا عنه ويباركوا آثاره . ؟ قد لا يعدمون في أقواله ما لا يسير تصورهم الساذج للدين وتعاليمه ، ولكن ألا يكن في غفران ماأخذه عندهم هذا الصرح الشاخص من الخاق العبقري الممتاز ، الذي أقامه من لبنات من عقل ودين ، في عصر فشا فيه الإلحاد وعز الإيمان . ؟ إن فلسفته كنز ، ثروة للدين من حيث إن المطلع عليها يستخلص منها إمكان قيام الإنتاج العقلي الناضج ، مع الإيمان العميق بالعقيدة الدينية ، وهذه مآثرة ينبغي أن يكبر لها رجال كل دين في كل زمان ومكان ، لأن فيها رداً على الاتهام الذي وجه إلى الأديان جميعاً ، من حيث إنها تعوق النظر الحر ، وتعرقل قيام الإنتاج العقلي الناضج ، ولكن رجال الكهنوت — من بروتستانت وكاثوليك — قد كافئوا ديكارت على هذه المآثر باضطهاده ووضع آثاره في الفهرست ، ليحرموا قراءتها على المؤمنين !

على أن من الإنصاف لرجال الدين أن نقول إنهم بحكم مهنتهم وانسياقاً

مع وفائهم لعقيدتهم ، مطالبون بالدفاع عن كل ما يدخل في تصورهم من تعاليم الدين وتقاليده ، ووقايته من كل شر يحتمل أن يهدده .

أثر ديكارت في العصر الذي نراه :

وإذا كان ديكارت قد قصد خيراً ، والتزم الحيطة فيما يكتب ، وخذت من طلاقة العقل وجموحه ، وأعلن ضرورة الاستسلام للدين وتقاليده ، فإن ما قصده شيء ، ومنطق مذهبه ونتائج دعوته عند أتباعه شيء آخر . وقد شاعت فلسفته في أوروبا كلها واجتذبت إليها الكثيرين من أهل العقل والأدب والدين معاً ، وأضحت فلسفة العصر كله ، وإذا كانت فلسفة القرن السابع عشر في فرنسا - كما تبدو عند ما لبرانش قد ظلمت مع تشييعها لمنطق العقل - على ولاء للدين ووحيه ، فإن القرن الثامن عشر كان ويلا على الدين ورجاله ، لأن العقليين قد استخفهم منطق العقل ، فانطلقوا إلى الوحي والكتب المقدسة وانهاوا عليها طعناً وتهكماً وتفصيلاً ، وكان في طليعة هؤلاء رجال الأنيستكولوجيا من ديدرو وفولتير ممن سنعرض للحديث عنهم فيما بعد ، وما من شك في أن لنزعة ديكارت العقلية وقواعد منهجه الرياضي أثرها في هذا التطرف الذي حمل أصحابه إلى الآفاق التي حذر من ارتيادها ديكارت ، يقول Lévy Bruhl في معرض حديثه عن تطرف بعض الفلاسفة في مناهضة الدين ومعاداة تعاليمه ، ومقاومة النظم الاجتماعية القائمة إبان القرن الثامن عشر : إن مبادئ ديكارت تحمل نصيباً موفوراً في تكوين فلسفة تختلف مع فلسفته اختلافاً ملحوظاً . وما قيل عن فرنسا إبان القرن الثامن عشر يمكن إطلاقه بشيء من التجاوز عن غيرها من بلاد العالم الأوربي بعد ذلك ، ولهذا وجب أن تلين نظرنا إلى موقف رجال الدين من ديكارت (١) .

(١) مصادر في تصوير الجو العقلي والديني عند ديكارت :

Descartes :

Discours de la Méthode (texte et commentaire par E. Gilson) =

محمد بايل المفضة على المسيحية (١) :

لم يكن بد بعد عن رجال اللاهوت ، من أن يتخفى أحرار الفكر في كتاباتهم ، اتقاء لشر خصومهم ، ويمثل هذه التقية ، مفكر فرنسي بروتستانتي كان له نصيب موفور في تقدم المذهب العقلي في فرنسا ، هو «بايل» P. Bayle + ١٧٠٦ وقد أبعدهن فرنسا فلجأ إلى هولندة - كما لجأ ديكارت - وتصدى لمقاومة رجال اللاهوت الذين تحروا اضطهاد الأحرار استناداً إلى الآية الانجيلية التي تقول : أجبروهم على اعتناق دينكم ، واعتماداً على أقول القديس أوغسطين في هذا الصدد ، فكتب «بايل» دفاعه عن التسامح «تعليقات فلسفية على آية أجبروهم ...» ونشر الكتاب عام ١٦٨٦ ، أي في نفس الوقت الذي صدر فيه كتاب «لوك» Locke في هذا الصدد ، وكان على اتفاق مع هذا الفيلسوف الانجليزى في الكثير من اتجاهاته وأدلته ، منها تقوية النزعة العقلية بإلزام السلطة الدينية حدها ، واستقاء المعرفة من معين التجربة ،

== وقد ترجمه وقدم له زميلنا الاستاذ محمود الحضرى

Les Principes de philosophie

واقراً عن ديكارت :

Oeuvres de Descartes ed. by Ch. Adam ? P. Tennyry

ديكارت : لزميلنا الدكتور عثمان أمين

A. Koyré, Trois Leçons sur Descartes

ألقاها بام كلية الآداب في الجمعية الجغرافية بالقاهرة ونشرتها الكلية مع ترجمتها العربية لزميلنا الأستاذ يوسف كرم عام ١٩٣٧ .

Ch. Adam, Vie et Oeuvres de Descartes, Etude Historique

ملحق بآثار ديكارت التي نشرها آدم وتانارى .

Hamelin, La Système de Descartes

Encyclopædia Britanica art. Descartes by : Abraham Wolf.

Kuno Fischer, Descartes & his school (Eng. tr. by N. Porter)

Haldane, Descartes, his life & times

عن اضطهاد رجال الكهنوت له عدا ما ورد في بعض المؤلفات السالفة :

Robertson, J. M. A Short History of Free-thought vol. II.

White, A, D, A Hist. of the Warfare of Science with Theology vol. I

(١) أنظر في الجزء التالى «بيورى» و «بارودى» في المصدرين اللذين أسلفنا ذكرهما .

وإن كان «بايل» قد نزع إل تحقيق هذه الغاية عن طريق الاستقصاء التاريخي ، وقد كان «بايل» يؤكد الشك في قيمة القوة أداة لإقرار الحق ، إذ لو كان استخدام القوة في قمع الخطأ مبدءاً صحيحاً ، لما كان هناك حق بلغ من اليقين ما يبرر تطبيق هذا المبدء .

وقد أصدر هذا اللاجيء « القاموس الفلسفي » الذي كتبه بأسلوب لاذع مر ، تخفى خلاله وبقي وراء قناع ديني ستر حرية فكره ، وأخفاه عن عيون خصومه . وكان «بايل» كلفاً بجمع الاعتراضات التي تزود بها الملحدون لاستخدامها في تقويض العقائد المسيحية الرئيسية . وقد عرض في كتاباته آثام النبي « داود » ومظاهر وحشية في غير حياطة أو حذر ، وصرح بأن « حبيب الله » هذا ، رجل تستنكف أن تمد إليه يدك لمصاحته ! وقد أثارت هذه الصراحة الجافة مكان من الغضب عند الناس ، فكان رد «بايل» على هذا ، إذعانه لاتجاه «مونتاني» و«سكال» في إبعاد العقل عن مجال العقيدة .

وكان من رأى «بايل» أن فضيلة الإيمان في نظر اللاهوت ، هي الاعتقاد بحقائق الوحي اعتماداً مطلقاً على الثقة بالله ، فاذا آمنت بخلود الروح لأسباب فلسفية ، كنت مسيحياً لا حظ لك من الإيمان ، وقيمة الإيمان تعظم وتعلو ، بنسبة تفوق الحقائق المنزلة على قوى العقل ، وكلما كانت هذه الحقائق غير ممكنة الإدراك ومجافية لمنطق العقل ، كبرت تضحيتنا في سبيل التسليم بها ، وعظم خضوعنا لله ، وبهذا يكون بسط الاعتراضات التي يثيرها العقل ضد العقائد الدينية الرئيسية ، مفيداً في تعظيم قيمة الإيمان !

ومن وجود النقد التي وجهت إلى قاموسه الفلسفي ، أنه شاد بفضائل الذين كفروا بوجود الله ، ولكن «بايل» يعتذر عن هذا قائلاً : إنه لو صادف ملحداً ساءت سيرته ، لسره أن يطيل الحديث عن رذائله ، ولكنه لم يصادف في حياته مثل هذا الملحد ! بينما نصادف في التاريخ مجرمين ترتعد لهول جرائمهم ، كانوا يؤمنون بوجود إله ! وهذه نتيجة طبيعية تفضى إليها الفكرة الدينية التي

تقول : إن الشيطان - وهو الذى لا يستطيع أن ينكر وجود الله - هو الذى يغرى الناس بارتكاب الآثام ! ومن هذا نرى أن خبث الإنسان يشبه خبث إبليس ، فى أن كليهما مؤمن بوجود الله ! ثم ألا ترى الدليل على حكمة الله التى لا تحد ، قائما فى أن أكبر العصاة الآثمين ، ليسوا بملحدين ! وأن يكون أكثر الملحدين الذين ترامت إلينا أنباؤهم ، رجالا أشرافا ؟ بهذا استطاعت العناية الإلهية أن تقي الإنسان الفساد ، إذ لو اتحد الإلحاد والشر عند الإنسان الواحد ، لتعرضت الدنيا لطوفان مروّع من المعاصى والآثام .

بمثل هذا كان يكتب «بايل» يتظاهر بالدفاع عن العقيدة وخدمة تعاليمها ، وهو يقوض أركانها ، ويقرر تنافى مبادئها مع منطق العقل ، وبهذه الخطة المرسومة ، أفلت «بايل» من شر خصومه . وكان لسكتابه الذى يمتاز بالاطلاع الحارق ، تأثير واسع المدى فى إنجلترا وفرنسا على السواء ، وبه استعان أعداء المسيحية فى هذين البلدين ، وكان الطبيعيون من مؤلثة الانجليز أول من قاد هذه الحملة فى عنف بالغ مرير - على نحو ما سنعرف بالتفصيل بعد ذلك .

تطور اتجاه الفلاسفة فى القرن الثامن عشر :

فاذا انتقلنا إلى القرن الثامن عشر فى فرنسا ، لاحظنا تغييرا ملحوظا ، فان فلسفة ديكارت ، على ما عرفنا ، قد أثرت فى فرنسا بنوع خاص تأثيرا واسع المدى ، واجتذبت إليها العقل والأدب والدين معاً ، وقد قلنا إن موقفه من الدين قد برىء من العدوان والتجنى ، ولكن مقصده ونياته شيء ، ومنطق مذهبه ونتائج دعوته عند أتباعه شيء آخر . . . ! فقد استغلت فلسفة القرن الثامن عشر مذهب العقل حتى فى المجال الدينى الذى نحناه عنه ديكارت وفلسفة القرن كله من ورائه ، بل انعكست الآية حين زعزع القرن الثامن عشر تأثير ديكارت ، يوم اعتنقت فلسفة هذا القرن المذهب التجريبي وعارضت ديكارت العقل بفيلسوف إنجلترا «لوك» التجريبي ، أى عارضت العقل بالتجربة فكان عصر كونديلاك Condillac ولامترى La Mettrie صاحب كتاب الإنسان

الآلى ، وبفون Buffon صاحب كتاب التاريخ الطبيعى ، وريمور Reaumur ولا بلاس Lasplace وغيرهما من نشأ عن آرائهم ماسمى بفلسفة النور ، وبهذا نشأ نوع من الاحتقار للفلسفة الميتافيزيقية التى احتلت المكان الأول فى فلسفة القرن السابع عشر فى فرنسا ، فأصبح العقل . مع استمراره رائد القرن الثامن عشر وهاديه واقعياً تجريبياً ، بعد أن كان فى القرن السابع عشر يقينياً ميتافيزيقياً ، كما يقول پارودى - هذا ما كان من أمره إجمالاً لا تفصيلاً .

ومن هنا قيل إن فلسفة القرن الثامن عشر ، قد استندت إلى المذهب العقلى الذى بشر به ديكارت ، وغالت فى التمسك به حتى أطاحت بالدين الذى أبقى عليه ديكارت من قبل ، وقامت بحملاتها المرة الساخرة سافرة لا يسترها حجاب ، بل ظهرت الحملة حتى فى الشعر الهجائى والجدل والمسرح والقصة ، فلنقف قليلاً لبيان هذا الاتجاه الجديد :

مهموت فولتير السافرة على المسيحية ورجالها

يتجلى هذا الاتجاه فى مهاجمة الدين المنزل وحماته من غير حيلة ولا حذر ، عند رجال الأنسيكلوبيديا يتقدمهم « فولتير ، و « ديدرو ، » وقد كان فولتير طبيعياً مؤلهاً ، آمن بوجود إله هدت إليه طبيعة العقل البشرى ، ورأى ذلك من صالح المجتمع ، ولهذا يقول « إذا لم يكن الله موجوداً لوجب اختراعه ! أو « يجب أن تؤمن بالله حتى تكون زوجتى أكثر وفاء لى وخادى أقل لصوصية ! » ، فاستغنى بهذا عن الوحي والكتب المقدسة وأطلق على المسيحية لفظ الكائن الوضيع ، وحارب الكنيسة ورجالها ، وكان فى كل حملاته صارماً تنضح صراحته سخرية مرة وتهكماً ، وقد بذل أقصى جهوده ليظهر للناس ما تنطوى عليه المعتقدات المسيحية من تحريف وحمافة ، وليبين عن استغلال رجال الدين فى جميع الديانات لسذاجة الناس .

وقد هداه التأمل فى مشاهد السكون إلى انه مصنوع بيد مهندس مريد دَرَاك ، والإيمان بوجود إله ، ضرورة بقتضيا قيام الأخلاق ، ومن هنا قاوم

فولتير، الإلحاد، في غير رفق ولا هوادة، وإن لم يمنعه هذا من مقاومة التعصب ومهاجمة الخرافات ومناهضة الاضطهاد، والتبشير بالتسامح الديني، ومواقفه في الدفاع في قضايا الاضطهاد الأثم تحتل أبرز مكان في تاريخ الدفاع عن حرية الاعتقاد^(١) وقد تأثر فولتير في حملاته على التعصب والخرافات بمفكرى الانجليز من أمثال «لوك»، و«بولنجبروك»، و«Bolingbroke» السياسى الذى أخفى إلحاده مدى حياته إلا عن خاصة أصدقائه، فلم تنشر مقالاته النزاعة إلى تمكين العقل إلا بعد عام ١٧٥٤ - بعد مماته .

أخذ «فولتير»، في مهاجمة المسيحية بعد منتصف القرن الثامن عشر، عندما أصبحت مزاوله الخرافة والاضطهادات الدينية معرة العصر، فانقض على الكنيسة يهاجها في كل ميدان من ميادينها ساخراً متهمكاً، وكان أولى حملاته كتيب أسماء «مقبرة التعصب»، وضعه عام ١٧٣٦ ولم ينشره إلا عام ١٧٦٧! وقال في مطلعها إن من يعتقد دينه من غير تفكير - شأن السواد الأعظم من الناس - كالثور الذى يستسلم للذئب ويحمله راضياً! ومضى بعد هذا إلى ما تضمنته الأناجيل من وجوه الخلاف والإبانة عن نشأة المسيحية وتاريخ الكنيسة - هذا التاريخ الذى يقول إن كل رجل عاقل لا يملك إلا أن يفرق فزعاً من اعتناق المسيحية؟ إن الأعمى هو الذى يؤثر على الدين الطبيعى الذى يمتاز بالبساطة ويشارك في الإيمان به جميع الناس، عقيدة متناقضة سفاكة للدماء، ينتصر لها الجلادون وتحيط بها عصابة من الأشراس الوصوليين، عقيدة لا يدعن لها إلا الذين أفادوا منها سطوة و ثراء، عقيدة خاصة لم يعتنقها إلا عدد قليل من سكان هذا العالم! ..

وإذا كان فولتير قد تأثر بكتابات «بايل»، ونقاد الانجليز، فإن رقة أسلوبه ومرارة سخريته ميزة تبدو بوجه خاص في «موعظة الخمسين»، و«أسئلة زاباتا»، وغيرهما، ومن دلالات ذلك في تعليقه على الأخطاء الجغرافية التى وردت في «العهد القديم»، أى التوراة بقوله: من الواضح أن الله لم يكن قويا في الجغرافيا!

(١) نرى تفصيل هذا في كتابنا « قصة الاضطهاد الدينى »

وعلى الجريمة القبيحة التي ارتكبتها زوجة سيدنا لوط ، عندما تلفتت إلى الوراثة
ومسخت عامودا من الملح، إذ يتمنى تعليقا على هذه القصة - لو كانت قصص
الكتاب المقدس أقدر من هذا على تهذيب الناس وترقية نفوسهم ، ما دامت
لا تنفع في إضاءة العقول وقد كان من أحب الأساليب إليه ، أن يتناول
العقائد المسيحية ، وكأنه يسمع عن وجود المسيحيين واليهود لأول مرة في
حياته !

لعل العالم المسيحي لم يعرف كاتباً أثار من البغضاء أكثر مما أثار فولتير ،
وقد كان يعتبر عدواً للمسيح وكان هذا أمراً طبيعياً ، لأن حملاته كانت بالغة
التأثير في ذلك الوقت ، ولكن البعض قد أخذوه على أنه كان هداماً لابناء ،
ولكن من الإنصاف أن نقول مع بيوري رداً على هذا ، إننا إذا وجدنا رجلاً
ينشر في مدينة وباءاً ، وجب المبادرة إلى استئصال هذا الشر ، وعدم انتظار
اختراع مصل مضاد ، وربما كان من العدل أن يقال إن الدين الذي اعتنقته
فرنسا في عصر فولتير ، كان مصدر بلاء عظيم ، والواقع أن المعرفة - ومن
ثم المدنية - تتقدم بالنقد الهدام ، كما تتقدم بالبناء والاختراع ، ومتى أوتى الانسان
المقدرة على أن يهاجم الباطل والتعرض والخداع ، أصبح من واجبه - إن
كان ثمة واجب اجتماعي - أن يستغل قدرته ومواهبه في هذا الهجوم .

اضطهاد روسو ومن أجل صمته على الدين :

على أن النزوع للبناء ، قد عرف عند « جان جاك روسو » . أحد زعمي
الفكر الفرنسي في ذلك الوقت - فقد ساهم في إنماء الحرية بطريقة أخرى ،
لقد كان من الطبيعيين الإلهيين ، وإن كان على عكس « فولتير » ، من حيث إنه
متدين عاطفي ، في نظراته للمسيحية شك يحوطه الوفاق والاتزان ، وفي تفكيره
ثورة وتمرد ، ونزوع إلى التنفير من التمسك بالدين ، فأثر هذا في زعزعة
« السلطة » ، في كل ميدان ، وكان تأثيره في هذا الصدد مروّعا ، واستطاع بأسلوبه

الحرار أن يستبد بهوى قرائه ، حتى يخافه الأكليروس أكثر مما يخاف «فولتير»
الساخر !

وإذا كان «منتسكيو» وفولتير ورجال دائرة المعارف يتحرون الاهتمام
بالعلم والحضارة الحديثة وتقدم الانسان في (دنياه) دون اكرات بالمشاكل
الميتافيزيقية ، فان «روسو» يحرص على الاهتمام بمسألة الدين والأخلاق ،
وعنه صدرت الحركة الرومانتيكية التي ارتبطت في القرن التاسع عشر بتجديد
دينى صوفى عام ؛ ولهذا هاجم الحضارة ، وعارض بين العقل والشعور تصريحاً
وتلجهاً ، وزعم أن التفكير يتلف إحساس القلب الفطرى ، وآثر الحياة البدائية
على حياة التفلسف والنظر العقلى ، فالانسان عنده خير بفطرته ، يفسده التفكير
وتتلفه الحياة الاجتماعية ، وزال بهذا ظن القرن السابع عشر ، فى أن الفضيلة
تقوم فى سيطرة العقل على جميع الشهوات .

وقد تأثر روسو بنشأته فى سويسرا الكلفنية ، فاقترح حكومة مثالية لم
تسكن خيراً من الحكومات الاستبدادية الدينية ، ودينا مدنياً هو فى صميمه
« مسيحية غير متعسفة» ، ولكنه رأى أن تفرض على جميع المواطنين بعض
العقائد التى بدت أساسية فى نظره ، ومن أبى الإذعان لها ، كان النفى مصيره ،
ومن هذه المبادئ وجود الله ، وجزاء الخير وعقاب الشر فى الدار الأخرى ،
والتسامح مع كل من سلم بمبادئ الدين ، وإن كان قد رأى أن تفرض الدولة
معتقدات لا مفر منها ، فكان هذا قضاء على مبدأ التسامح .

وقد هدته نزاعه السالفة الذكر ، إلى تصور دين طبيعى « يقوم على أساس أن
فى طبيعة غرائزنا ما يدل على أن علة غائية تسيطر على مصيرنا ، وكانت موجودة
قبل أن يدركها الفساد الاجتماعى ، وهذا الدين الطبيعى عند روسو يقوم على
غير معتقدات ، وإن كان يستوحى الشعور المسيحى ، وقد كان هذا من غير
شك رد فعل للذهب المادى الذى بشر به رجال دائرة المعارف ، وخلاصة
الدين الذى ارتآه روسو : الاعتقاد فى وجود الله وفى روحانية الروح وخلودها

وقد شاركه في هذا فولتير ، ولكننا نجد بين نغمة كل منهما خلافا ملحوظا ، وقد لبث « روسو » حيناً من الدهر وهو يهيم على وجهه في بقاع الأرض شريداً ، إذ نشر عام ١٧٦٢ كتاب « إميل » الذي ساهم به في نظريات التربية وضمنه صفحات طيبة في الدين الطبيعي ، وإنكار الوحي واللاهوت إنكاراً جازماً ، فأحرق الكتاب في باريس علناً ، وصدر أمر باعتقال مؤلفه فاغراه بعض أصدقائه بالفرار من باريس ، فلما هم بالعودة إلى جنيف — مسقط رأسه — كانت حكومتها قد سلكت مسلك باريس في النظر إلى آرائه ، وقررت منعه من العودة إليها ، فلجأ إلى مقاطعة « بيرن » ولكنه أمر بمغادرتها في الحال ، فلاذ بولاية « نيفشاتل » من أعمال بروسيا ، حيث يقيم الحاكم الوحيد المتسامح في ذلك العصر « فردريك الأكبر » ، فبسط عليه جناح رحمته ؛ ولكنه لم يسلم من مضايقات رجال اللاهوت هناك ، فاتهموه بالإلحاد ، وكادوا ينجحون في طرده لولا حماية فردريك له ، فانطلق إلى إنجلترا وقضى فيها بضعة أشهر (عام ١٧٦٦) ثم حط به المطاف في فرنسا مرة أخرى ، وعاش بها آمناً حتى قضى نحبه .

على أن آراءه الدينية ، ليست شيئاً مذكوراً في مجال تفكيره الإلحادي الجريء في ميادين الاجتماع والسياسة ، وقد أحرق في جنيف كتابه « العقد الاجتماعي » ، الذي ضمنه نظرياته في هذا الصدد ، وهي على ضعفها قد أضرمت ناراً في غلاة المتعصبين .

إن المذهب الطبيعي — سواء أ كان نصف مسيحي كما بدأ عند روسو ، أم مجافياً للمسيحية كما بدأ عن فولتير — كان بناء شيد على رمال ، وكان من اليسور على خصومه في فرنسا وإنجلترا وألمانيا أن يقوضوا أسسه ، وقد بدأ في فرنسا وكأنه « استراحة » في منتصف الطريق الموصل إلى الإلحاد !

مقاومة الماديين ورجال الموسوعة للكهنوتية

وما أقبل عام ١٧٧٠ حتى فزع الفرنسيون لظهور كتاب البارون

هولباخ Holbach ، نظام الطبيعة ، إذ عرض في شطره الأول فلسفته المادية المحضة ، وعقب على هذا بدحض الأديان عامة والمسيحية بوجه خاص ، وحاول أن يجتث فيه الاعتقاد بوجود الله وخلود النفس ، معلناً أن العالم ليس إلا مادة تتحرك من تلقاء ذاتها ، منكرأ كل نظرية تبشر بوجود وراء العالم الطبيعي وفوقه ، مؤكداً اتصال هذه الموجودات المحسوسة اتصالاً آلياً ميكانيكياً محضاً ، مقرأ بأن العقل ليس شيئاً إلا الجسم ، منظوراً إليه من ناحية بعض وظائفه ، !!

وهذه المادية الموهلة في الغلو — إلى حد إنكار الدين الطبيعي نفسه — قد بدت عند أحد أصدقاء هولباخ ، وهو ديدرو ، D. Diderot في دائرة المعارف ، الانسيكلوبيديا ، التي كان يشرف على تحريرها ، ويقوم بإصدارها مستعيناً بكتاب بارزين يتقدمهم روسو وفولتير ، فلم تكن مجرد مرجع علمي ، بل وجدت فيها الأفكار التي تهدد بالتمرد على الكنيسة والثورة على رجالها مكاناً فسيحاً ، وكانت معرضاً للحركات الهدامة التي اضطلع بها أعداء الدين ، وكان الغرض من وضعها أن تصرف الناس عن المسيحية بما فيها من خطيئة آدم وحواء ، وتهيئهم إلى تصور العالم تصوراً جديداً تبدو فيه الحياة مريحة ناعمة ، ولا يُعزى فيه الشر إلى نقص أصيل في الطبيعة البشرية ، بل يُرد إلى فساد النظم الاجتماعية ونقص أساليب التربية .

وقد كانت حملة ديدرو تنطوي على صرامة ، مع أن «لبريتون» كان يعرض لما يكتبه بالحذف والتعديل والتحوير والتعديل ، وهي سياسة تجارية تخضع الحقيقة للجو الذي تقال فيه . ! وقد أثار هذا ضيق فولتير ، لأنه كان يميل إلى اقتراس خصومه وتمزيق أجسادهم ، من غير أن يعنيه ما تفضى إليه حملاته بعد ذلك من نتائج ، قد يكون أولها : توقف الانسيكلوبيديا عن الظهور . وقد بلغ من صرامة فولتير في هذا الصدد ، أن هاجم بعض زملائه في تحرير الانسيكلوبيديا واتهمهم بأنهم يجاهدون لإبطال التعصب ، ليحلوا الرياء

والنفاق مكانه اوضاق « ديدرو » بجزر « لبريتون » حتى انهال عليه - حين كشف ما فعله بما كتب من حذف وتحويل - سباً وطعناً ، لأنه أفسد بهذا جهود عشرين مفكراً ممتازاً ، وشوه عملاً جليلاً تضافت على إنشائه المتاعب والأخطار وعصارة الأفكار النيرة ، قضى عليه هذا الأحمق بجبنه ونذالته ، ولو كانت زوجه مكانه ، لتورعت عن ارتكاب فعلته ! ولكن خصومه تمكنوا بعد صدور الجزء الثاني من حمل الحكومة على إيقافه عن مواصلة العمل ، ثم عادت الحكومة فأذنت له في إتمام مشروعه ، وخشى هذا مغبة نزاعه مع خصومه ، فالترم جانب الحيطة فيما يكتب معنياً بالكشف عما يراه حقاً ، متجنباً إثارة النزاع من جديد ، وإن لم يخلُ حديثه من تهكم وسخرية في بعض الأحيان ، على أن اللورد مورلي - يزعم في ترجمة « ديدرو » أن هذه الأنيكلوبيديا التي أثارت مكان الضيق عند رجال الدين ومن إليهم من خصوم منشئها ، لا تتضمن ما يستوجب إثارة الناس في أيامه ، لأنها خلو من التعطيل والتهجم الصريح على عقائد الدين الرئيسية !! إلا أن منهج كتابها في النقد لم يكن مألوفاً لرجال السلطة في أيامهم ، ومن أجل هذا أثارت ثأرتهم ، وفي الأنيكلوبيديا بعد هذا إكبار من شأن العلوم والفنون ومطالبة بحرية الاعتقاد وحرية البحث الفلسفي . . الخ وغير هذا مما كان يضيق به رجال السلطة في ذلك العصر .

قلنا إن الغرض من وضع هذه الأنيكلوبيديا ، تحويل الناس عن اعتناق المسيحية ، إلى فهم الحياة فهماً جديداً ، وقد جاهد « ديدرو » و« روسو » - كلٌّ بطريقته - لصف الناس عن العقائد الدينية إلى اصلاح المجتمع ، وإقناع العالم بأن سعادة الإنسان لا تتوقف على الوحي ، بل تقوم على التحول الاجتماعي ، ولقد كان لجهودهما في هذا الصدد أثرها البين ، حتى في المؤمنين الذين لم يتخلوا عن دينهم ، بل لقد أثرت في روح الكنيسة نفسها ، ومن وازن بين الكنيسة الكاثوليكية في القرن الثامن عشر ، وبينها في القرن الغابر ، أدرك الأثر البالغ

الذى خلفته في مجال الإصلاح تعاليم روسو وفولتير وديدرو وأقرانهم من
المجاهدين . وفي ذلك يقول اللورد مورلي : قد تمثلت الكنائس المسيحية - في
سرعة وبمقدار ما يسمح تكوينها - العلم الجديد والأفكار الخلقية السمحة ،
والروحانية السامية التي بشر بها قوم هجروا جميع الكنائس ، واتهموا بأنهم
أعداء البشرية (١)

تعقيب :

هذا ما كان من أمر النزاع في فرنسا إبان القرن السابع عشر والثامن عشر ،
وقد بدت الفلسفة والدين في أولهما على وئام ، تديّن الفلاسفة أو تظاهروا
بالتدين واحترام رجال اللاهوت على أقل تقدير ، وبدت الفلسفة في ثاني القرنين
سافرة الإلحاد لا يسترها حجاب ، تهاجم الدين في صرامة وقد آمنت بالعقل
أو كفرت بشريعته على السواء ، وقد جدّت الكنيسة في اضطهاد الفلاسفة
إبان القرنين ، ولكن اضطهادها للتدنيين في القرن الأول كان أعظم صرامة
من اضطهادها للبلهدين من هؤلاء المفكرين في القرن الثاني ، ومرد هذا - فيما
يلوح - إلى تضاؤل نفوذها الذي كان لها أولا ، ولو تهيأت لها بسطة من
السلطان لأصلتهم نارها وجرعتهم عذابها صنوفا وأوانا

سبينوزا بين الفلاسف والتدريه :

على النحو الذي أسلفناه عند الحديث عن ديكارت ، تطور التنافر الملحوظ
من التزمّت الصوفي الزاهد في العصر الوسيط ، والثورة الجامحة والتمرد الصارخ
على أوضاع الدين وتقاليده في عصر النهضة ، فأصبح - هذا التنافر في فرنسا
إبان القرن السابع عشر - اتساقا وتوازنا بين الروحانيين المتنافرين ، إذ تمّ الجمع
بين العقل والإيمان من غير تضحية بأحدهما في سبيل الآخر .
وقد تسلل هذا الروح إلى هولنده ، وبدا عند فيلسوفها الأكبر «سبينوزا»

(١) أنظر فيما سلف كتاب بيوري Hist of Freedom of Thought : وافرأ كتاب

Spinoza إذ كان يصدر عن عقل رياضي ، وإيمان صوفي ، ولكن نزعاته العقلية قد طوحت به إلى آفاق لا تتمشى مع عقائد الدين ولا ترضى رجاله .

جمع سبينوزا بين النزعة العقلية التي يستخفها التعليل ، ويستهوئها التفسير والتحليل ، والنزعة الروحية الصوفية التي يستوعبها نور الإيمان ، ويستغرقها الشعور العميق بالله . وكانت مردها إلى نشأته الدينية الإسرائيلية وقد استغرق الله فلسفته ، فاعتبره والطبيعة شيئاً واحداً ، وعده الموجود الحق الأزلي والجوهر اللانهائي الذي يقوم بنفسه ولا يحتاج إلى علة لوجوده ، من أعراضه اللانهائية التفكير وأحواله النفوس البشرية ، والامتداد العقلي وأحواله الأجسام المحسوسة ، ففضى على فكرة الخلق التي أقرتها الأديان جميعاً ، ورأى أن الظواهر الكونية كلها تصدر عن الله وعلى هذا استقر مذهب وحدة الوجود pantheism في فلسفته . كما بدا في كتاب الأخلاق ، الذي منع من نشره أثناء حياته ، ولم ينشر إلا عام ١٦٧٧ بعد مماته ، إذ اعتبرت وحدة الوجود مرادفة للإلحاد وقيل إن اسمها الصحيح هو الواحدية الالحادية ، ثم عاد سبينوزا في رسالته اللاهوتية السياسية إلى تصوير الله في صورة تساير المؤلف عنه في الكتب المقدسة ، فصوره حاكماً مطلقاً يسن الشرائع التي ينبغي أن يخضع لها الناس وإن جهلوا سرها ، وبهذا تأدى إلى التوفيق بين الفلسفة والدين ، فوحد بين غرضها في تحقيق السعادة للفرد والمجتمع ، وانتهى بهما إلى يقين واحد ، يبدو في الفلسفة عقلياً رياضياً ، وفي الدين نقلياً أخلاقياً ، وقد أثرت محاولته في التوفيق بين الدين والفلسفة على ما سنعرف في إنجلترا ، وتجلت عند جون لوك ، في كتابه مقال عن العقل البشري ، إذ ظهر كتاب سبينوزا قبل كتاب لوك وترجم إلى الإنجليزية في نفس العام الذي نشر فيه المقال ، ولم يكن لوك ، ليجهله ، وإن كان قد صرح بأنه لم يطلع على مؤلفات سبينوزا إلا لماماً ، وقر إيثار العقل على الوحي عند التعارض .

كان سبينوزا يصدر في مذهبه العقلي الرياضي عن إيمان ديني صوفي عميق

ولكن منطق مذهبه في وحدة الوجود قد أداه إلى إنكار أبسط ماتقره قواعد الأديان، فإنه وإن آمن بمسيح تاريخي، فقد أنكر العناية الإلهية وكفر بالبعث والأرواح والملائكة ورفض العلل الغائية، واستبعد حريه الله واختياره، ونبذ ظاهر الكتب المقدسة لأنه عجز عن أن يعرف منها شيئاً، كصفات الله أو نحوها، فقاوم على ما يقول ولف B. Wolf مذهبين سادا في العصر الوسيط، هما مذهب الوقوف عند حرفية النصوص المقدسة، ومذهب القول بالمعجزات وخوارق العادات، فلنقف عند رأيه في هذين المذهبين وقفة قصيرة :

اعتز بالعقل وكفل له التحرر من كل سلطة، وأخضع لحكمه ومنطقه كل شيء، حتى الكتب المقدسة، إذ اعتبرها شبيهة بالوثائق التاريخية، فأوجب تأويلها في ضوء المنطق، لأن لغتها مليئة بالاستعارات والمجازات، موجهة إلى إثارة الخيال عند الناس، باستخدام الصور الجذابة، ولم يكن من الحكمة أن تعدل عن هذا الأسلوب إلى مخاطبة العقل ومحاولة إقناعه، لأن هذا يفضي إلى إضعاف تأثيرها عند المؤمنين، ولو أن النصوص المقدسة قد تجردت من سحرها البياني وفتنة صورها الخيالية الرمزية، لتبدت بعد التأويل العقلي مسaire لمنطق العقل، وبرئت من وجوه التناقض.

ولم يكن هذا النزوع إلى التأويل جديداً، لأن النزعة العقلية التي أثارها ديكارت قد فشلت في العالم الأوربي كله، وتجلت في النصف الثاني من القرن السابع عشر في هولنده، وكان من مظاهرها انصراف بعض المفكرين عن الوقوف عند حرفية النصوص المقدسة، وميلهم إلى تأويلها في ضوء العقل، ففي سنة ١٦٦٦ نشره ماير، Louis Meyer، وهو طبيب من أمستردام، كتاباً (Philosophia sacrae scripturae interpres) ذكر فيه أن الكتاب المقدس كلمة الله، وأوجب تأويلها في ضوء العقل البشري، ونحسى كل المعاني التي لا تتمشى مع منطقهم، وردها إلى الاستعارات والمجازات والسكنايات، وكان « ماير، هذا صديقاً لاسينوزا، حضر وفاته وساعد على نشر كتبه بعد مماته،

وقد ظهر كتابه السالف الذكر قبل كتاب سينوزا Tractatus بأربع سنوات ،
ومن هنا رجح الظن بأنه أثر في سينوزا وإن كان سينوزا قد طمس
بشهرته اسمه .

وقد أبان سينوزا في كتاب له ، أن موسى لا يمكن أن يكون مؤلف
أسفار موسى الخمسة في صورتها التي تبدو عليها ، ورآها على غير ما ينبغي أن
تكون بصدد الطبيعيات بل اللاهوت كذلك .

وقد آمن سينوزا بشريعة العقل على ما ذكرنا ، واعتبر مهمته الكشف
عن الروابط المنظمة بين الأشياء ، فأداه هذا إلى إنكار الخوارق والمعجزات ،
لأن هذه تقوم على تمزيق العلاقات المنظمة بين الأحداث الطبيعية ، بل إن
مذهبه في التوحيد بين الله والسكون لا يستقيم مع قيام هذه الخوارق ، لأنها
ليست إلا تناقضات بين سير الطبيعة وعمل الله ، ولهذا خطأ الدهماء في ظنهم
الواهم بأن الخوارق تؤيد عظمة الله وجلاله .

عمراء السلطات الربيفية له :

لم يكن من المعقول بعد هذا كله أن تغفل عنه عين الكنيسة ، وأن يطمئن
إليه الرأي الديني العام ، وإن رفعه المعجبون به إلى مرتبة التقديس ، كما يسمه
بذلك « شيلر ماخر » ، وقال عنه Novalis إنه « رجل أسكره حبه لله ، ويقول
« هو ايت ، A. D. White إن خصومه لا يجدون في حياته أو فلسفته دليلاً
يبرر القول بأنه عمد إلى التخلص من اليهودية ، ولكنه اتهم بالهرطقة عند
اليهود والمسيحيين على السواء ، وهو لفظ أسىء استعماله في القرن السابع عشر
والثامن عشر فيما يقول بيورى ، فكان يطلق على أحرار الفكر ، ويوجه إلى
أتباع المذهب الطبيعي الإلهي ، الذين تأثروا برأيه في تأويل النصوص المقدسة
في ضوء العقل .

ضاق الأكليروس اليهودى باسينوزا منذ صغره ، فقدمه للحاكمة ولما
يناهز الرابعة والعشرين من عمره ، وصدر حكم بتكفيره وحرمانه بعد أن

عز عليهم إسكاته بالرشوة ، وأرسلت السلطات اليهودية هذا الحكم إلى السلطات المدنية - للتخلص من تبعة العقاب - فطارده الرأي الدينى العام ، حتى عاش وحيداً طريداً يشقله الضنك وتجرحه الفاقة وتطارده السكابة ، بل لقد همَّ أحد المتحمسين من المتدينين باغتياله ، فطعنه بمذبة أصابت عنقه ، ولكن الفيلسوف أفلت بحياته ، وأخذ يتنقل من بلد إلى بلد حتى بلغ « لاهاي » ، ولبت بها حتى مات فى الرابعة والأربعين من عمره ، واضطر أثناء ذلك أن يغير اسمه فراراً من تهمة الإلحاد ، والاشتغال بصناعة عدسات النظارات حتى يتيسر له أن يعيش ! وأدان كتابه Tractatus بعد طبعته الأولى عام ١٦٧٠ بجمع دينى فى هولنده ، مع «التين» الذى وضعه «هوبز» وعرض فيه لنقد النصوص المقدسة ، وما فوق الطبيعة فى كل لغة عرفت

كان أحرار الفكر فى هولنده أسعد حظاً من زملائهم فى أى بلد أوربى آخر ، وقد يسرت الحرية المبسوطة فيها نشر الكثير من الكتب التى عز طبعها فى غيرها من البلاد ، ومع هذا فقد كان من العسير فى بعض الحالات أن يكشف المؤلف أو الناشر عن اسمه ويظهر سافراً أمام القراء .

* * *

وقد كانت السلطات الدينية لا تغفل عن المتهمين بالإلحاد ، فقد فر اليهودى كوستا Gabriel de costa أو Vriel Acosta + ١٦٤٠ من البرتغال إلى امستردام وأنكر خلود النفس والطقوس اليهودية ، لأن الإنجيل لا يؤيدها ، فاصدرت ضده السلطات اليهودية قرار الحرمان ، حتى أنكروا مذهبه جهاراً ، ولكنه اتهم بالهرطقة مرة أخرى ، وصدر ضده قرار بالحرمان ، واضطرته السلطات الدينية إلى إعلان الإقلاع عن رأيه مرة ثانية ، بشروط مذلة مهينة ، فانتحر خلاصاً من هذا الجو الخناق ! وحدث مثل هذا ليهودى من مفكرى أمستردام هو Daniel de Prade + ١٦٦٣ لأنه عارض القول بالقوى الخارقة فوق الطبيعية والاعتقاد فى التقاليد ، وفشت نظرتيه بين الشبان ، فحاولت بعض الجماع الدينية عام ١٦٥٦ أن ترده عن غيبه ، وأن تغريه بالرشوة لكي يهاجر ، ولكن

محاولاتها ذهبت عبثاً ، فأصدرت ضده قرار الحرمان عام ١٦٥٧ . ومثل هذا الاتهام هو الذى وُجِّه إلى سبينوزا على نحو ما عرفنا من قبل .

وقد أعيد طبع رسالة سبينوزا اللاهوتية السيامية عام ١٦٧٤ وهى تحمل اسم ناشر وهمى ، وتغفل الإشارة إلى مكان الطبع ، وعند ظهور هذا الكتاب سارعت السلطات إلى مصادرته ، فلما عرف الناشرون كلف القراء به ، وإقبالهم على الاطلاع عليه ، أعادوا نشره تحت عناوين مضللة ، ولما أتم سبينوزا أعظم آثاره الفلسفية «الأخلاق» لم يجرؤ على نشره ، فأوصى به أحد أصدقائه ليتولى إذاعته بعد مماته .

على أن سنخط المعسكرات الدينية على الفيلسوف لم يقف عند مماته ، واستمرت آثاره مثار الضيق إلى عهد قريب ، فقد اقتُرح — حول عام ١٨٨٠م — أن يقام له تمثال فى أمستردام ، فضاقت الأكليروس بهذا الاقتراح ونهضت لمقاومته ، وحملت الكنائس والجماع اليهودية على المشروع ، وكثرت فيها الخطب التى تنبأ أصحابها بأن يحيق بالمدينة غضب الله وسخطه ، إن تم هذا العمل الآثم ، فلما استقام التمثال ، وُكِّل إلى رجال الشرطة حمايته ، ووقاية العلماء البارزين الذين أراحوا عنه الستار . . . (١)

هابيلديو ونظريه: روراه الأرصمه :

كانت إيطاليا مقراً للكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، التى كانت لا تزال تهيمن على العالم الأوروبى بما توافر لها من سلطان ، ومن هنا كان اللاهوت المتعسف فيها أقوى نفوذاً وأعز جنداً ، وبدا أهل الفكر الجديد أمامه أقل

(١) أهم المصادر :

F. Pollack, Spinoza; his life and philosophy

J. Martineau, A Study of Spinoza

J. Caird; Spinoza

A. Wolf, Spinoza; his life and treatment on God and man

» » art. Spinoza (Encycl. Britanica)

J. M. Robertson, A Short Hist. of Free-Thought (vol. 2. Ch. XV)

جرأة وأعظم تخاذلاً ، وكان منهج أصحاب هذا اللاهوت يقضى باعتبار النصوص المقدسة مصدر الحقائق جميعاً ، وتفسيرها حقاً مقصوراً على الكنيسة ورجالها ، واتجه العلم الجديد إلى الاعتماد على التجربة في استقاء الحقائق ، والتسليم بما ينتهي إليه هذا النهج الجديد من آراء ، ولو بدت على خلاف المؤلف من حقائق اللاهوت ، ومن هنا كان النزاع . .

وقد كان جاليليو أحد السباقين إلى هذا المنهج العلمى الجديد ، وقد أفضى به إلى تأييد الرأى الذى انتهى إليه كوبرنيكوس ، على النحو الذى أينا عنه فى الفصل السالف ، واهتدى إلى غيره من آراء لا تجرى على النسق الذى ترتضيه الكنيسة ، فقد اعتمدت القول - المنسوب إلى بطليموس - من أن الأرض ثابتة وأنها مركز الكون ، وأن الشمس وسائر الكواكب تدور حولها ، وأيدت هذا الاتجاه بنصوص من الكتاب المقدس ، ولكن جاليليو قد عكس الآية وصرح بأن الشمس - لا الأرض - مركز الكون ، وأنها تدور حول محورها وليس حول الأرض ، وأن الأرض تدور دورة مزدوجة ، حول نفسها - كل أربع وعشرين ساعة - وحول محورها فى الوقت نفسه - كل عام مرة - فأثار ضيق الكنيسة ، وتضافر خصومه على إخفات صوته والتكليل به إن أقام على ضلاله . . !

اخترع جاليليو المرقب (التلسكوب) الذى يذنب البعيد فتراه وكأنه على كذب منك ، وبه كشف أقمار المشتري عام ١٦١٠ - ، فرفض خصومه النظر إليه بحجة أن استخدامه يوقع فى الكفر ، وأن ما يبدو خلاله ليس إلا أوهاماً يوسوس بها الشيطان الخناس ، فضى جاليليو فى تجاربه حتى أتى رأى «برونو» Bruno فى أن القمر كعالم الأرض من حيث انطوائه على جبال ووديان ورد نوره إلى انعكاس الشمس على أديمه ، فقال خصومه : إن سفر التكوين لا يؤيد هذا الزعم ، وأن وجه القمر أجمل من أن يحتمل حفر الوهاد وإقامة الجبال ! إن هذا لضلال مبين ! فلما كشف عن كلف الشمس ، واستند إلى

تنقش هذه البقع على سطحها ، وقرر دورانها حول محورها - وليس حول الأرض كما يزعم أهل الكهنوت ، تميزت الكنيسة غيظاً وأوحت إلى الجامعات التي كانت معقلاً للرجعية ومبأة للعلم السلي ، أن تهمل تلقين هذه الضلالات لطلابها ، وقال له أحد خصومه : لقد اطلعت على كتب أرسطو - وكان لا يزال رب العلم في مدارس العالم المسيحي والمعتمد من الكنيسة - فلم أجد فيها ما يؤيد مزاعمك ، فلاشك أن هذه النقطة موجودة على عينيك أنت لاعلى وجه الشمس . . !

محنة جاليليو ومراحل اضطرابه :

وكان جاليليو قد عمد إلى تأييد مباحثه الطبيعية بالنصوص المقدسة ، فأخذ يعمل على تأويلها ، ويتخطى حرفية ألفاظها ، مستشفاً ما وراء ظاهرها من معان تسير منطقته ، وتمشى مع اتجاهه ، فتميزت الكنيسة غيظاً ووطنت العزم على أن توقف هذا الشر الزاحف ، وتلقى جاليليو إنذاراً نصف رسمي يحذره من إقحام الكتب المقدسة في مباحث الطبيعة ، ولكنه أغفل أمره وواصل أبحاثه ، ولم يعبأ بإصرار خصومه على أن المزامير تشبه شروق الشمس بخروج « العروس من خدرها ، وقول الإصحاح الأول من سفر الجامعة « الأرض قائمة إلى الأبد ، والشمس تشرق والشمس تغرب ، وتسرع إلى موضعها حيث تشرق ، ، وأن الأرض من أجل هذا كانت مركز الكون ، الذي قام عليها العشاء الرباني ، وسخرت من أجله كل الظواهر الكونية .

فاتفق البابا بولس الخامس مع رئيس أساقفة فيزا ، وبلارهن Bellarmin وقد كان لاهوتياً ماجووظ المكانة في تاريخ عصره ، على الانتقام من هذا الملمحد الضال ، فان آراءه تقوض فكرة الخلاص في المسيحية ، وتثير الشك في تجسد الأبنوم الثاني (المسيح عليه السلام) وتنكر نص الكتاب المقدس على أن الشمس قد وقفت ليوشع ، بالإضافة إلى أن مزاعمه في عمران

السيارات الأخرى ، تستتبع القول بأن سكانها لا ينحدرون عن آدم ، ولا يرجعون إلى سفينة نوح . . ١

وحاول رئيس أساقفة بيزا ، أن يستخدم الحيل الخبيثة في الاستيلاء على خطابين قد كتبهما جاليليو ليؤيد فيهما مباحثه الطبيعية بنصوص من الكتاب المقدس ، أولها التأويل الذي يرتضيه ولا تحتمله الكنيسة ، فلما أخفق في محاولاته المستورة ، أبدى خصومته سافرة ، وسرعان ما استدعى جاليليو عام ١٦١٥ للدفاع عن نفسه أمام محكمة التفتيش ، وتولى رجالها النظر في اتهامين انطوت عليهما كتاباته ، وكان قرارهم بعد شهر قضوه في بحثهما ما يلي :

إن القول بأن الشمس مركز الكون ، وأنها لا تدور حول الأرض ، قضية طائشة خرقاء ، ومتناقضة وباطلة في عرف اللاهوت ، وتنطوي على إلحاد يبين لأنها تناقض نصوص الكتاب المقدس تناقضاً صريحاً ، كما أن القول بأن الأرض ليست مركز الكون ، وأنها تدور حول الشمس ، رأى متهافت لا تقره الفلسفة ولا يتمشى — من وجهة نظر اللاهوت — مع الإيمان الصحيح . وعندئذ استدعى البابا بولس الخامس المتهم ، وطالبه على لسان « بيلارمن » بالتخلي عن رأيه ، وأمره : « باسم قداسة البابا ، وباسم مجامع الديوان المقدس ، أن يتخلى عن الرأي القائل بأن الشمس مركز الكون وأنها لا تدور — حول الأرض — وأن الأرض تدور ، وأن يتعهد بالألا يعلم هذا الرأي لأحد من الناس ، أو يدافع عنه كتابة أو مشافهة » . . ١ وأذعن جاليليو لهذا كارها (١)

كان هذا عام ١٦١٦ م ، وبعد أسبوعين أصدر مجمع الفهرست بياناً أعلن فيه بطلان المذهب القائل بحركة الأرض حركة مزدوجة — حول محورها

(١) أنكر Gebler و Wohlwill تعهد جاليليو بعدم تنقيح النظرية لأحد من الناس ، وقيل إن هذا التعهد دسه رجال الكنيسة ليبررو محاكمة جاليليو لثاني مرة عام ١٦٣٢ ، ١٦٣٣ ، ولكن هويت لا يرى هذا الرأي مستنداً إلى وثائقه (أنظر ص ١٣٧ ج ١ هامش في كتابه السالف) .

وحول الشمس — ومناقضتها للكتاب المقدس « وحرّم نشره أو تأييده » .
وصرح بإدانة كل ما كتب كوبرنيكوس ، وغيره ممن يؤيدون دوران الأرض
— من أمثال جاليليو وكبلر ، واعتمد البابا - المعصوم من الخطأ — هذا البيان .
ولبت جاليليو مقيماً في روما ؛ يلتقي من الرأى العام عنتاً شديداً ، ثم غادرها
إلى فلورنسا ولزم وعده ، حتى اعتلى عرش البابوية إربان الثامن ، فخدعته
صلته الطيبة به ، وأضله ما أشيع عنه من انتصار لحرية الرأى ، فعاد جاليليو
المخدوع إلى إعلان آرائه والترويج لها بين الناس ، فأثار بهذا خصومه ، وفقد
مرتبته كأستاذ في جامعة بيزا ، وأعلن الأب Melchior Inchofer أن ثبات
الأرض أمر مقدس ثلاثاً thrice sacred ، وأن التدليل على فناء النفس
وإنكار الله وعدم تجسده ، يمكن أن يلتقي تسامحاً ، قبل أن يظفر بهذا التسامح
التدليل على أن الأرض تدور !

ولكن جاليليو لم يزججه الوعيد ، فوضع محاورة ضمنها نظرية بطليموس
القديمة ونظرية كوبرنيكوس الجديدة ، تأييداً ودحضاً ، فلم يأذن رجال الكهنوت
بنشرها إلا بعد ثمانية أعوام ١٦٣٢ - بعد مقدمة وضعها رئيس القصر المقدس
وأعلن فيها أن الرأى الجديد عبث وخيال ، وليس متنافياً مع نظرية
بطليموس الذى أثبتت محكمة التفتيش صحتها عام ١٦١٦ م ، ووضع جاليليو
إمضاه في ذيل هذه المقدمة ! .

ولكن البابا قد اقتنع بأن أدلته التى حاول أن يردّ بها جاليليو عن رأيه ،
قد جرت على لسان أحد الأفراد في هذه المحاورة ، فأثار هذا حنقه ،
وسرعان ما صودر الكتاب ، ولكن بعد انتشاره في أوروبا كلها ، فاستدعى
جاليليو إلى محكمة التفتيش مرة أخرى ، وزج به إلى السجن ، وعانى الضيق
حتى أكره على أن يجهر بارتداده عن رأيه وهو راعع على قدميه قائلاً :
أنا جاليليو وقد بلغت السبعين من عمري ، سجين راعع أمام نخامتك ،
والكتاب المقدس أمامى ألمسه بيدي ، أرفض وألعن وأحتقر القول الخاطيء .

الإلحادى بدوران الأرض ، ! وتعهد مع هذا بتبليغ محكمة التفتيش عن كل ملحد يوسوس له الشيطان بتأييد هذا الزعم المضلل . . . !

وأقام جاليليو بعد هذا فى منفاه مريض النفس والجسم معاً ، ولبث فى سجنه حتى كف بصره ، فقيل : مات كفيفاً ذلك الذى مدّ أبصار الناس إلى عجائب السموات ! . وترامت إليه أنباء الاضطهادات التى نزلت بأصدقائه وأتباع مذهبه ، وكان بينهم رجال دين ، فأقضى — بأمر من البابا إربان الثامن — رئيس البلاط المقدس الذى وضع مقدمة المحاوره ، ووجه اللوم إلى من أذن بطبعه من أعضاء محكمة التفتيش ، وسارت الجامعات فى ركاب هذا التيار الجارف .

وفى شهر يونيه من عام ١٦٣٣ أمر المجمع المقدس — بعد استئذان البابا — بإرسال الحكم السالف ، مع إقلاع جاليليو عن رأيه إلى المعسكرات الدينية فى أنحاء العالم الأوربى ، وطلب إليها إعلانه على القساوسة وإذاعته فى أساتذة الفلسفة والرياضيات جميعاً ، وحرّم على أعضاء محكمة التفتيش أن يأذنوا بطبع بحث جاليليو أو لمن جرى على نهجه ، وتوج الفهرست هذه الجهود بتحريم كل كتاب يؤيد دوران الأرض ! وخفت بهذا كله صوت النظرية الجديدة ، وعلا صوت خصومها بالطعن والسباب حيناً ، وبالتدليل المتهافت حيناً آخر ، فمن ذلك أنهم أثاروا ما عرف عن جاليليو من شذوذ خلقى أيام صباه . . . ! وحاولوا أن يذعنوا بالمنطق رأيه ، فقالوا لو صح زعمه فى دوران الأرض ما استقام على سطحها بناء ! ولاحتاج الناس لى يثبتوا على أديمها إلى مخالِب أقوى من مخالِب القطط ! ولتحتم إذا أطلقت سهماً رأسياً فى الهواء ان يهبط بعيداً عن المكان الذى انطلق منه ! ثم إن لجميع الأحياء المتحركة أطرافاً تمكنها من التحرك ، وليس للأرض مثلها ، فكيف يتيسر لها أن تتحرك ما لم تفترض وجود شيطان خبيث يتولى تحريكها . . . ! إلى آخر هذه المزاعم ، التى أضافوها إلى ظاهر النصوص المقدسة التى تسند دعاويهم ، يؤيدها جميعاً سيل من الطعن والسباب .

فلما قضى جاليليو نحبه ، رفضت الكنيسة التصريح بدفن جثته في مقابر أسرته ، ومانعت في اقامة شاهد تذكاري على قبره ، وصرح البابا إربان الثامن بأن السماح بتكريم رجل أدانته محكمة التفتيش أسوأ مثل يعطى للناس ، ولم ينتصب الشاهد على قبره الا بعد أربعين عاماً ، ولم تنقل رفاته الى مقابر أسرته الا بعد مائة عام ، ثم أقيم عليها نصب أجازت معه مراقبة المطبوعات في محكمة التفتيش !

وقد أشرنا في الفصل الذي عقدناه عن « حرية النظر العقلي والقوى المعادية لها » ، الى تضافر الشيع البروتستانتية — من لوثريه وكلفنية وانجليكانية — في هذا النزاع ، وإذا كانت حملاتها لم تتجاوز السباب والتشهير إلى الانتقام المادى ، فان مردّه هذا إلى حاجتها إلى السلطة .

اضطهاد أتباعه بعمر سمائه :

وكان طبيعياً بعد هذا كله أن يلقي أتباع هذا الرأى الجديد عنتاً شديداً ، وقد كتب كامبانيا لا Campanella دفاعاً عن جاليليو Apologie for Galileo فكان هذا من أسباب تعذيبه واضطهاده ، وأتم كبلر مباحث كوبرنيكوس وكلها ، فحذره المجمع الاكليروسى البرتستانتي في سنتجارت Protestant Consistory of Santgart من بث الاضطراب في كيان العالم المسيحى ، وطولب بالتوفيق بين مزاعمه والكتاب المقدس ، وأضاف الفهرست عام ١٦٦٤ إلى كتب جاليليو كل الكتابات التي تعلم دوران الأرض وثبات الشمس ! .

واستمر الجدل قائماً في العالم الأوربي بشأن نظرية جاليليو حتى تولى البابا بندكت الرابع عشر ١٦٥٧ م بحث هذا الموضوع بنفسه ، وقرر مجمع الفهرست بعده أن الكنيسة تبيح نشر تعاليم كوبرنيكوس والإذن بدراستها ، ومع هذا لم يوفق الفلكي لالاند بعدها بثمانية أعوام في حمل الكنيسة على رفع كتب جاليليو من الفهرست . وفي سنة ١٨٢٠ رفضت مراقبة المطبوعات أن تأذن بطبع بحث للاستاذ Settela أستاذ الفلك بجامعة روما ، لأنه سلم بصحة

المذهب الجديد في كتابه ، وطلبت اليه أن يعالجه باعتباره فرضا خياليا لا مذهباً عليا ، فلما لجأ الى البابا بيوس السابع Pius VII أحال الأمر الى مجمع الديوان المقدس Holy Office Congregation فقرر المجمع السماح له بتدريس النظرية الجديدة ، وأيد البابا هذا القرار ، وسرت العدوى الى كرسياوات محكمة التفتيش ، فقرروا في سبتمبر عام ١٨٢٣ - في روما - السماح بنشر الكتب التي تؤيد دوران الأرض وثبات الشمس ، واعتمد بيوس السابع هذا القرار ، فلما أعيد طبع الفهرست عام ١٨٣٥ رفعت منه أسماء الكتب التي تعرض لتأييد هذا الرأي (١).

نقرهت السلطات الدينية بعد انتصار النظرية الجريفة :

على أن المعسكرات الدينية التي خاصمت النظرية الجديدة قد هال أتباعها سخف موقفها بعد أن وضع الرأي الجديد ، فحاول رجال الكهنوت أن يلتمسوا الأعذار للكنيسة ومن جرى في ركبها من أتباعها ، تبريراً لموقفها الشائن ، فالتسوا الكثير من التعللات ، منها قولهم ان اتهام جاليليو واضطهاده مرده الى إقحامه الكتاب المقدس في تأييد آرائه ، أو تهجمه على البابا وعدم التزام الأدب معه وإظهار الولاء له ، أو أن البابوات لم يحرموا رأيه الا بصفتهم الشخصية ، أو أن مسألة النزاع كله مردها الى ضيق الأرسطاطاليسيين في ذلك العصر برجال العلم التجريبي الحديث ، ولكن الوثائق التي طبعت أخيراً - بعد محاولة اخفائها - تكشف عن بطلان هذه المزاعم ، ونلاحظ أن الموقر روبرتس Rev. Mr. Roberts - وهو من أتباع المذهب الكاثوليكي المخلصين -

قد قرر في كتابه The Pontifical Decree against the earth's Movement

(١) لا يسلم بعض المؤرخين بهذا التاريخ ويرون أن محاوره جاليليو قد طبعت عام ١٧١٤ في بادوا ، ويرى دعاة هذا الرأي أن القرار الاكليركي قد أعياه بيوس السابع عام ١٨٤٨ م ويسلم Whewell بذلك ولكن Cantu وهو من أنصار الكنيسة يقرر أن كتاب كوبرنيكوس بقي في الفهرست الى عام ١٨٣١ (أنظر كتابه Histoire universelle vol ٤٨٣ ويسلم بهذا Th. Martin وغيره ويؤيدهم هوايت (هامش ١٥٧ ج ١) .

أن البابا بولس الخامس قد تولى رئاسة المحكمة التي أعلنت تحريم القول بدوران الأرض في عام ١٦١٦ ، وأن البابا إربان الثامن قد استفرغ جهده في تهينة الجولاتهم جاليليو أمام محكمة التفتيش في عام ١٦٣٣ ، وأن البابا اسكندر السابع قد استغل الاعتقاد في عصمته لتحريم الكائنات التي تؤيد دوران الأرض في أمر تضمنه للفهرست .

على أن بعض رجال الكهنوت قد قاموا بالمحاولة التي يعالجونها كلها تداعي موقفهم في نزاعهم مع أهل الفكر الجديد ، فأخذوا على عاتقهم أن يوفقوا بين الرأي الجديد والنصوص المقدسة ، وبذلك يستغلون ما ينكشف عنه النظر العقلي الحر في تأييد العقيدة الدينية والتمكين لتعاليمها ، وتجلت آثار هذه المحاولات في القرن الماضي ، وسنرى بعض مظاهرها في فصل قادم (١) .

وبعد ، فهذه هي أظهر معالم النزاع بين رجال اللاهوت ورواد الفكر الحديث ، في العالم الكاثوليكي إبان ذلك العصر ، وهي آثار تخلقت عن العقل حين تحتويه الجمالة ، والإيمان المتعسف حين يستعين بهوى صاحبه ، فيحيل سماحة قلبه تزمناً بغيضاً وتعصباً بمقوتاً ، ويرد حبه للناس إحناً تحك في صدره ، وأحقاداً تضطرم في باطن نفسه ، وظمناً لا يرويه إلا إهراق الدماء وإزهاق النفوس . . . ومن عجب أن ترتكب هذه الآثام الدامية باسم دين أخص بميزاته الدعوة إلى الحب والسلام والصفاء . . . !

(١) أهم المصادر :

A. D. White في كتابه السالف الذكر ، وقد تناول هذا الموضوع في ستة فصول قيمة في الجزء الأول منها أربعة عن جاليليو وموقف الكنيسة منه وظهرت هذه الفصول في النسخة العربية للأستاذ مظهر ومن المفيد قراءته :

Th. Martin, Vie de Galilée

Gebler Galileo Galilée (النسخة الانجليزية)

Bertrand, Fondateurs de l'astronomie moderne

Flammarion. Vie de Copernic ch IX.

Libri, Histoire des sciences mathématiques en Italie

Charles Singer, Religion and Science (considered 'in their historical relations)

Draper, J.W, The Hist. of Conflict between Religion & Science

الفصل السابع

مظاهر النزاع في إنجلترا البروتستانتية

في القرن السابع عشر والثامن عشر (١)

مظاهر النزاع في هذا العصر — مقاومة باكون للسلطة — العقل والوحي عند جون لوك — حرية الاعتقاد بين هوز وچون لوك — اضطهاد نيوتن — المذهب الطبيعي الإلهي ومقاومته للدين التقليدي — مواضع الخلاف بين الطبيعيين ورجال اللاهوت — مناقشة المعجزات والحوارق — نقد الوحي المسيحي عند تتدال — الخطر في قيام المسيحية على العقل عند ددويل — هجوم شافنبري على الكتاب المقدس — تداعي الدفاع بالعقل عن المسيحية — موقف دافيد هيوم من وجود الله وحوارق العادات — حملة جيبون على المسيحية — دفاع « باليه » عن المسيحية — مقاومة حملات « بين » على المسيحية — كلمة أخيرة .

مظاهر النزاع في هذا العصر :

استجاب رواد الفكر الحديث في عصر النهضة لنداء العقل، وقضوا ثلاثة قرون وهم يحطمون في بطنه واطراد ما ورد في المسيحية من أساطير، وما تردد بصدد الوحي الإلهي من مزاعم، ولما أقبل العصر الحديث استحالت هذه النزعة إلى مذهب عقلي تكفل أصحابه بالدفاع عن المنطق، واستخدامه في تفسير كل ما يعرض لهم من ظواهر، ولو كان في صميم العقيدة الدينية، ومر اطراد التقدم في النظر والقول بكفاية العقل في بحث كافة الظواهر بمرحلتين، نشأ في أولهما المذهب العقلي ولبت قرنين من الزمان وهو يجاهد

(١) كان أكبر اعتمادنا في تصوير هذا النزاع على كتاب بيوري السالف الذكر، ومن المفيد الاطلاع على كتاب روبرتسون السالف في الفصل السادس عشر من الجزء الثاني وكذلك: Stephen, Leslie, Hist. of English Thought in the Eighteenth Century. vol I. 1881.

S. Maréchal, Dictionnaire des Athées ١٨٨٥ الطبعة الثالثة عام

J. M. Wheeler, Biographical Dictionary of Freethinkers مع ايجازها

E. Sayons, Les Déistes Anglais et les Christianisme (1882).

خصومه ويؤكد لنفسه على حسابهم ، فيعرض عن اللاهوت المسيحي ، ويأبى الإذعان للكتاب المقدس مصدراً للحقائق ، يشد أزره في جهاده مارآه أهله في الكتاب من بطلان وتناقض ومجافاة للمنطق ، وما تكشففت عنه هذه المرحلة من حقائق عليية أثارت الشك في قيمة الوحي ، وإن كان المعروف عن مفكرى هذه المرحلة ، أنهم لم يستعينوا بالأدلة القائمة على العلم إلا قليلا . فأما الدور الثانى لتقدم المذهب العقلى فقد شغل القرن الغابر ، وفيه كانت المكتشفات العلية ويلا على هذا البناء الذى شادته السذاجة والجهل ، وتكفل النقد التاريخى بتقويض السلطة التى تهبأت للكتب المقدسة ، فكان جحيما على هذه الكتب وشراً مستطيراً على القائمين بأمرها .

كانت النزعة القائمة عند قادة الفكر الأوروبى فى مطلع العصر الحديث ، ترمى إلى التسامى بالعقل وتمجيده على حساب السلطة الدينية ، وقد امتدت هذه النزعة إلى القرن الثامن عشر ، واتصل أثرها برجال اللاهوت الذين كانوا يخاصمون العقل خصاماً شديداً ، فاعتصموا بمنطقه وحاربوا بسلاحه خصومهم ، وبدا هذا أوضح ما يكون فى انجلترا إبان القرن الثامن عشر ، إذ لم يجرؤ أحد هؤلاء اللاهوتيين على أن يدعى أن العقيدة الدينية فوق متناول البحث العقلى . ! اعتصم رجال الدين بمنطق العقل وحاربوا به خصومهم من أهل العقل ، فانزلق الكثيرون منهم إلى مهاوى الإلحاد ! .

وقد كان أكبر ما يميز القرن السابع عشر ، من حيث النزاع بين العقل والسلطة ، أن القائلين بكفاية العقل — مع استثناء مفكرى فرنسا فى القرن الثامن عشر — كانوا فى حملاتهم على اللاهوت يتظاهرون (١) فى العادة بالاعتقاد فى صدق الأفكار التى يتحررون مهاجتها ، ويزعمون أن تأملاتهم النظرية لاتسئ إلى العقيدة الدينية ، وأن فى استطاعتهم أن يفصلوا بين ميدان

(٢) هذا المميز يذكروه بيورى على هذا النحو ، ويلوح لنا أن تعبيره بالنظار أخس مما ينبغى ، وكان بين فلاسفة فرنسا — كديكارت ومالبرانش بوجه خاص — من لم يتظاهر بالآيمان وربما كان النص أصدق حين يكون للدلالة على جمهرة فلاسفة انجلترا ومفكرىها فى هذين القرنين

العقل ومجال الإيمان ، وأن يبرهنوا على أن الوحي زيادة طارئة لا قيمة لها . من غير أن يعرضوه للأذى . . ! لقد كانوا يتغنون بالثناء على الدين ، في نفس الوقت الذي يضعون فيه آراء لا تجرى على وفاق مع تعاليمه ، وقد زجوا إلى ميدان اللاهوت بالكثير من المغالطات بعد أن ألبسوها ثوب الحقائق .

والمعروف عن الإنجليز أن طابعهم الغالب عليهم واقعي محض ، وهذا الطابع يتمثل في شتى مظاهر تفكيرهم ، ما كان منها دينياً وفلسفياً وسياسياً وأخلاقياً ، وسنرى في العصر الذي نؤرخه ، أن دعاة الدين الطبيعي قد أنكروا السمعيات والمعجزات وخوارق العادات ، وهاجموا القسس وأدلتهم النقلية في غير رفق ولا هوادة ، ولجأوا في إثباتهم وجود الله إلى الآيات الكونية والمشاهد الإنسانية .

مقاومة فرنسيس باكون للسلطة :

وبدت هذه النزعة الواقعية في أول أمرها عند فرنسيس باكون + ١٦٢٦ الذي حارب السلطة في مختلف صورها مصدراً للحقيقة ، واعتبر التجربة مصدرها الصادق ومعينها الذي لا يغيض ، وأبعد سلطان « النقل » عن مجال البحث العلمي ، ولم يمنعه من هذا تدينه وإيمانه بوجود الله ، ذلك الذي جعله يذود عن اتحاد التفلسف والتدين في قوله : إن القليل من الفلسفة يميل بصاحبه إلى الإلحاد ، ولكن التعمق في دراستها ينتهي بالعقل إلى الإيمان . وفي كلفته عن الإلحاد يقرر وجود عقل في الكون ، ويلج في إقرار وجود الله لأن إنكاره إهدار لكرامة الإنسان ، لأن الإنسان يقرب من الحيوان بجسمه ، فإذا لم يقرب من الله بروحه كان مخلوقاً خسيساً دينياً ، بل إن إنكار الله يقضى على مروءة الإنسان وسمو طبعه وشرف نفسه ... إلخ .

كان البحث في العصر الوسيط إجمالاً ، لا يرمى إلى اكتشاف جديد وارتداد مجهول ، لأن الحقيقة معروفة نزل بها الوحي الإلهي ، والسابقون من

أهل الفكر الديني الذين اعتمدتهم الكنيسة لم يبقوا مجالاً لمجدد! فحسب الباحث أن يستخدم عقله في بحث الحقائق المنزلة كما اعتمدها الكنيسة ورجالها ، فإن تكشف البحث عن جديد ، وجب رده إلى النصوص المقدسة وإدخاله في نطاقها ، فإن تعذر ذلك لقي صاحبه عنناً شديداً ! ولكن رواة الفكر الحديث قد ضاقوا بهذا منهجاً للبحث ، فنزعوا في مطلع العصر الحديث إلى وضع مناهج لاكتشاف الحقيقة ، وكان أكبرهم شأنًا في هذا الصدد ، ديكارت في مقاله عن المنهج ، وقد عرضنا له من قبل ، وفرنسيس باكون في أدواته الجديدة Novum Organum الذي عارض بها منطق أرسطو الذي بسط نفوذه على المفكرين ، فوضع به أساس المنهج التجريبي الحديث ، وفيه استهجن تسخير العلم لخدمة الدين ، واعتبر هدف النظر العقلي فهم الطبيعة لاستغلالها والإفادة منها في دنيانا الحاضرة ، عن طريق دراستها دراسة قائمة على المشاهدة والاستقراء التجريبي ، وبذلك انفصل العلم عن الدين ، وابتعد عن اثره الجدال الأرسطاطاليسي في العصر المدرسي ، وتجنب الأدب اللفظي الذي استغرق عصر النهضة ، وأصبحت الحقيقة لا تجيء بإملاء الكنيسة ولا تستقي من الكتب القديمة ، وكان خلاص العقل من قيود العقيدة الدينية واستعباد الفلسفة اليونانية ، وفتنة الروح الأدبية ، وتيه التأملات العقلية التي يكلف بها دعاة البحث الميتافيزيقي ، والضلال الذي يوقع فيه تجنب المشاهدة والاستقراء ، فأدى هذا كله إلى تمكين العقل من تحقيق الغاية التي يهدف إليها البحث العلمي ، من حيث السيطرة على الطبيعة لصالح الإنسان في دنياه ، وبهذا تنصرف الجهود إلى العمل ، لا إلى مجرد التأمل والنظر ، لأن الإنسان فاعل قبل أن يكون مفكراً ، ومدبر للطبيعة وليس معبراً عنها . وقد وضع ليكون خطة هذا المنهج وفصل مراحلها ، وانتهى هذا إلى فصل العلم عن الدين ، لأن الحقيقة في الأول وليدة التجربة ، وفي الثاني وليدة الوحي ، وإلى رفض السلطة العلمية مصدرًا للحقيقة ، وإلى استهجان التسليم برأي لأن الكنيسة اعتمدهته أو قالت به .

وبهذا المنهج توّجّ باكون جهود أسلافه ومعاصريه من دعاة التجربة وخصوم السلطة ، سار مع الركب ولكنه سرعان ما تولى قيادته وانتزع رياسته ، وإذا المنهج الذى كان صدى بيئته ، يطبع أوروباً يطابعه ، ويتجلى فى سائسة من الجمعيات العلمية نشأت للبحث التجريبي ، وقامت على رفض السلطة مصدرأ للحقيقة ، وكان من أظهر هذه الجمعيات مدرسة الطبيعيين الفلورنسيين (عام ١٦٥٧) والجمعية الملكية (فى لندن ١٦٤٥) - وسميت فى عهد تشارلس الثانى عام ١٦٦٢ بالجمعية الملكية لتقدم العلوم ثم سقط عجز الاسم بعد ذلك وكان من رجالها بويل ونيوتن - وتلتها أكاديمية العلوم فى فرنسا عام ١٦٦٦ ، ثم الأكاديمية فى إيطاليا ، وشاع إنشاء مثل هذه الجمعيات فى أوروباً كلها ، وعلى نمطها نشأت مرصد باريس عام ١٦٦٧ وجرينتش عام ١٦٧٧ ... إلخ . وكانت هذه كلها - بمنهج البحث عندها - معسكرات معادية للكنيسة ، ولو لم تعلن أو تضمر عدااء !..

العقل والوحي عند جون لوك :

وضح هذا التيار - فى ناحيته الدينية بوجه خاص - على يد جون لوك J. Locke + ١٧٠٤ ، وهو الفيلسوف الذى استبدت بهوى الناس فلسفته وهو لا يزال على قيد الحياة ، وتأثر بها رجال عصره أعمق تأثر ، وقد اعتنق « لوك » مبادئ الكنيسة الانجليكانية ، وأبلى فى الدفاع عن العقل بلاءاً حسناً ، ليقية طغيان « السلطة » ويبعد عنه سلطان « النقل » ، وقد وضع عام ١٦٩٠ أعظم مؤلفاته الفلسفية « مقال فى العقل البشرى » Essay on the Human Understanding أقام فيه الدليل على أن التجربة مصدر كل معرفة ، فالإحساس وحده هو الذى يزودنا بالصور الخارجية ، والتأمل العقلى وحده هو الذى يزودنا بالصور الذهنية ، وبذلك انتزع المعرفة من مجال السلطة ، وحرر الحقيقة من قيود الدين ، وأخضع الإيمان لسلطان العقل ؛ ومع إيمانه بالوحي المسيحى ، صرح بأن الوحي إن بدا على تناقض مع العقل ، وجب

رفضه وعدم الإذعان لأمره ، لأن هذا الوحي لا يستطيع أن يقدم إلينا معرفة تبلغ من اليقين ما تبلغه المعرفة التي يأتينا بها العقل ، « ومن استبعد العقل ليفسح للوحي مجالاً ، فقد أطفأ نور كليهما ، وكان مثله كمثل من يقنع إنساناً بأن يفقأ عينيه ويستعيض عنهما بنور خافت يتلقاه بواسطة المرقب من نجم سحيق ! » .

وإذا كان لوك قد شارك ديكرت في رفض السلطة مصدراً للحقيقة ، فإنه لم يقنع بمخالفته في المصدر الذي تُستقى منه الحقيقة ، بردها إلى التجربة ، بل أثر التجربة على الوحي الديني مصدراً للحقائق ، وكان ديكرت على عكسه يؤثر الوحي على العقل ، على ما عرفنا من قبل . .

وقد وضع لوك كتاباً دلى فيه على أن الوحي لا يتنافى مع العقل ، وأن التوفيق بين الدين والفلسفة أمر ميسور ، وأسماه « مسامرة المسيحية للعقل ، The Reasonableness of Christianity وكان له صداه في الخلافات الدينية التي ثارت في القرن الذي تلاه .

ومن الطريف أن المتزمتين من رجال الدين ، كانوا على اتفاق مع خصومهم من العقليين ، في القول بأن مسامرة التعاليم الدينية لشريعة العقل ، هي المقياس الوحيد لصحة الدين المنزل !

وقد أثرت فلسفة لوك تأثيراً مباشراً في « تولد ، الإيرلندي الذي تحول عن مذهب الكنيسة الكاثوليكية إلى المذهب البروتستانتى ، فوضع كتاباً مثيراً للعواطف أسماه « المسيحية غير الغامضة ، Christianity Not Mysterious عام ١٦٩٦ ، وفيه يرى أن المسيحية حق ، وأنها بريئة من الأسرار الخفية ، وهي العقائد التي يتعذر فهمها في ضوء المنطق العقلي ، لأن مثل هذا الخفاء ، لا تقبله شريعة العقل ، وإذا نزل وحي من إله مُدعن لشريعة المنطق ، وجب أن تكون غايته التنوير ، لا إثارة الحيرة والاضطراب في نفوس الناس — والكتاب بهذا امتداد طبيعي لفلسفة « لوك » ، وقد كان حظه من الرواج موفوراً .

هرية الاعتقاد بين هوبز وهومر لوك :

ذهب توماس هوبز Hobbes + ١٦٧٩ إلى جمع السلطة التشريعية والتنفيذية والدينية في يد الحاكم ، بحجة أن الإنسان أناني بفطرته ، يؤثر مصلحته على كل اعتبار ، وقد أساء رجال الدين استغلال السلطان الذي تهيأ لهم ، ولهذا وجب أن يسحب منهم ويركز في يد الحاكم المستبد ، وباستبداده العادل ترتفع الموضوعات الدينية عما تستهدف له من وجوه الجدل ، وبهذا يكون من حقه أن يفرض على رعاياه الدين الذي يراه - وإن كان هوبز قد اضطر إلى العدول عن هذا الرأي لأن أكثر الانجليز بروتستانت يحكمهم في ذلك الوقت كاثوليك - بهذا يكون هوبز قد أقر الاضطهاد الديني ، ولكنه نقله من يد الكنيسة إلى يد الحاكم المطلق ، أما « لوك » فقد انطلق - على عكس هوبز - يبشر بالحرية الدينية ، وينادي بتحرير العقيدة من الكنيسة والدولة معاً ، ويهدم النزعة الاستبدادية ، ويستبدل بها الحرية المطلقة والتسامح المحمود ، ويطالب بفصل الكنيسة عن الدولة ، ليكفل تحقيق هذه الآمال الباسمة .

وقد وضع « لوك » عام ١٦٨٩ رسالة عن التسامح الديني أردفها بثلاث رسائل يتم فيها البحث في هذا الموضوع ، أثبت فيها أن مهمة الحكومة تختلف كل الاختلاف عن مهمة الدين ، فالحكومة وظيفتها المحافظة على مصالح رعاياها المدنية ، والعمل على رقيها ، وليس عالم الروح من اختصاصها ، لأن الحاكم لا يملك إلا القوة المادية ، ولا شأن لمثل هذه القوة بالدين ، إذ أن الدين يقوم على اقتناع العقل اقتناعاً باطنياً ، وقد صيغ العقل بحيث إن القوة لا تستطيع قهره وإكراهه على الإيمان ، ومن أجل هذا كان من خطئ الرأي أن تعتمد الدولة على إصدار قوانين تفرض بها ديناً من الأديان ، لأن القوانين لا تستقيم بغير عقوبات تفرض على من يعصى أمرها ، وليس في وسع العقوبة أن تُيسرَ سبل الإقناع أمام الناس .

طالب «لوك» ، بتحرير العقيدة من سلطان الدولة وطغيان الكنيسة معاً ، لأن الكنيسة في رأيه ، ليست إلا هيئة «مختارة حرة» ، ولو كان من الضروري أن تفرض المسيحية على من كفر بها عنوة واقتداراً ، لكان من الأيسر على الله أن يهدي هؤلاء الضالين بفيالق من كتائبه في السماء ، بدلا من أن يحقق هذه الهداية أحد من أتباع الكنيسة — بالغأ ما بلغت قوته ! وهذا يذكرنا بقول الامبراطور تباريوس : إذا كانت المعتقدات الإلهية إساءة إلى الآلهة ، فعلى الآلهة أن يقتصوا لأنفسهم !

وإن كان من الحق أن يقال إن «لوك» لم يتخلص من أوهام عصره وأحكامه المتسرة ، فقد ناقض مبدأه في حرية الاعتقاد واستثنى من مبدأ التسامح ، الروم الكاثوليك والهرطقة ، لأن هؤلاء الذين لا يؤمنون بوجود الله ، لا يقيمون وزناً لعهد ولا قسم ولا ميثاق ، وبغيرها لا يستقيم المجتمع الإنساني ، ثم إنهم بتقويضهم الأديان كلها ، لا يملكون الادعاء بأن لهم ديناً يعطيهم الحق في طلب التسامح . . .

اضطهاد نيوتن :

ومن الخير أن نقول كلمة خاطفة عن حملة رجال اللاهوت على إسحاق نيوتن : ولد في العام الذي مات فيه جاليليو (١٦٤٢) ، وتمكن بدقة ملاحظته ونفاذ بصيرته ووقدة ذكائه ، من أن يكتشف أسرار الجاذبية بين الأجرام السماوية - بعد سقوط التفاحة أمامه على ما هو معروف - فانهى إلى أن «الأجسام يجذب بعضها بعضاً بنسبة أحجامها طردأ ، وبنسبة مربع المسافة بينها عكساً» ، فأثار اكتشافه غضب رجال اللاهوت ، وقيل عن هذا القانون إنه يستبدل بعناية الله قوة الجاذبية ! وأنه أنزل رب الخلق عن عرشه ، وسلبه عمله المباشر في خلق الكون على نحو ما تقرر الكتب المقدسة ! واتهمه أوين Owen J. البيوريتاني بالمروق ، لأنه ناقض صريح النصوص المقدسة ! وزعم چون هاتشنسون في كتابه «مبادئ موسى» الذي نشره عام ١٧٢٤ ،

أن مبادئ نيوتن تفضى بمن اعتنقها إلى إنكار وجود الله ! ومن طريف المفارقات أن يشترك في هذه الحملة الفيلسوف الألماني « ليبنتز ، Leibnitz » وفي سنة ١٧٤٨ نشر اثنان من مشاهير الرياضيين في فرنسا كتاب نيوتن « المبادئ » وكانت مقدمتهما للكتاب شاهداً على مدى خوفهما من اضطهاد السلطات الكنسية لرواد الفكر الجديد ! وقد انتهت هذه الحملات بإثارة الشك في قيمة نيوتن وعلمه ، حتى قلَّ أتباعه ، وانصرف عن محاضراته تلامذته ، فمات بعد صدور هذا الكتاب المجيد بنحو أربعين عاماً ، ولم يكن له إذ ذاك أكثر من عشرين تابعاً - فيما يقول فولتير ! هذه هي نهاية الرجل المتدين الذى قيل فيه : إن الطبيعة كانت في ظلام دامس ، فقال الله ليكن نيوتن ، فشحاع النور في كل جوانبها !

المذهب الطبيعى ومقاومته للمريمة التقليدى :

إذا كانت فلسفة « لوك » قد مكنت للنزعة العقلية بمحصرة السلطة وإلزامها الوقوف عند حدها ، وعدم تجاوز ميدانها ، والقول بأن التجربة وحدها مصدر المعرفة اليقينية ، فقد قوى « بايل » من هذه النزعة ومكَّن لها ، وأثر في انجلترا وفرنسا تأثيراً واسع المدى ، إذ أمد أعداء المسيحية بأسلحة تشد من أزر قضيتهم ، وكانت أول حملة بدت في مقاومة الكنيسة وسلطتها ، هى حملة الطبيعيين الإلهيين من الانجليز Deists أولئك الذين آمنوا بوجود إله ، وأنكروا الوحي والرسول والمعجزات ، وأصلوا رجال الكهنوت نار حملاتهم ، وطالبوا بإثبات وجود الله عن طريق الظواهر الكونية والمشاهد الإنسانية ، وإذا كانت كتاباتهم على حرارتها ، لا تقرأ اليوم إلا قليلاً ، فإن حملتهم على سلطة الدين المنزل خليفة بأن نقف عندها تقديراً لها .

فإن دعواتها يشغلون مكاناً بارزاً في تاريخ المذهب العقلى فى انجلترا ، وقد خلفوا - مع بايل - تراثاً فكرياً مجيداً ، استبد بهوى الطبقات المثقفة فى فرنسا ، وأثر فى جمهرة الكتاب فى أوربا :

بدا المذهب الطبيعي^(١) على يد هربرت شيربري Herbert of churbery + ١٦٤٨ إذ حاول الاهتداء إلى دين طبيعي تفضى إليه طبيعة العقل البشرى ، معارضاً بذلك الدين التقليدى الذى يقوم على السلطة ، ومن رأيه أن الدين لا يكون ديناً إلا إذا اتفق الناس على التسليم به والإذعان لتعاليمه ، والقدر المشترك الذى تتفق فيه الأديان على اختلاف صورها ، هو المقياس الذى يقاس به ما فيها من حق ، وما تصدق فيه الأديان صدقاً مطلقاً يبدو في مبادئه ، أهمها القول بوجود الله ووجوب عبادته ، والاعتراف بقيام ثواب وعقاب في حياة أخرى ، والتسليم بالتوبة والجزاء . . الخ . وقد واصل البحث في الدين الطبيعي بعد هذا چون لوك ، فلم بوجود إله رأى أن الإنسان كون فكرته عنه من جميع ما في نفسه من صفات كاملة ، وتكبيرها وإضافتها إلى الله ، ولكنه أنكر وجود اتفاق عام بين الناس على فكرة الله وعبادته ، لأنه كان ينكر وجود أفكار فطرية يشترك فيها الناس جميعاً ، ولا تجيء عن طريق التجربة — فيما كان يقول ديكارت — ثم جاء « تولند » Toland + ١٧٢١ و ١٧٢٢ ، وتندال وغيرهما ممن حاولوا أن يقيموا الدين على أساس جديد ، وتوصلوا إلى هذا بنقصد المسيحية وبعض تعاليم الكنييسة ، وإنكار الوحي والأديان المنزلة ، وتفسير العالم تفسيراً آلياً ميكانيكياً ، واستبعاد القول بأن الله يدير العالم ويقرر مصيره ، حتى انهدم بهذا أساس الدين الطبيعي بمعناه الأصيل .

والملاحظ أن المذهب الطبيعي يشابه مذهب الإلحاد ، لأن كليهما يعطل الإرادة الإلهية ، ويستبعد تأثيرها في العالم ويضيف للألوهية صفات تقديس لا معنى لها ، وينكر المعجزات وخوارق العادات ، ثم يفترض هذا المذهب وجود إله ليس له من عمل إلا أنه العلة الغائية للسكون . . ولا يملك الإنسان

(١) شرح هذا المذهب مأخوذ عن كتاب Introduction to Philosophy لمؤلفه O. Külpe وقد نقله إلى العربية وعلق عليه الدكتور أبو العلا عفيفي أستاذ الفلسفة بجامعة فلروق تحت عنوان : المدخل إلى الفلسفة (١٩٤٢ م) .

إزاءه إلا مجرد التقديس ، وهو فوق هذا كله يرى أن العالم تسوده الفوضى ، وأن الله يتجرد عن الكمال إذا هيمنت عنايته الدائمة على تدبير العالم وتحقيق ما هو صالح له .

مواضع الخلاف بين الطبيعيين ورجال اللاهوت :

أما موضوع الخلاف الذي كان مثار الجدل بين الطبيعيين وخصومهم من رجال اللاهوت ، فهو إمكان التوحيد بين إله الدين الذي نزل به الوحي المسيحي ، وإله الدين الطبيعي الذي تمكن العقل وحده - دون الاستعانة بالوحي المنزل - من أن يقيم الدليل على وجوده - فيما يقول هؤلاء الطبيعيون . وقد بدا هذا التوحيد في نظر الطبيعيين مستحيلا ، لأن طبيعة الوحي الذي يقول به خصومهم ، تبدو على غير انساق مع طبيعة الله الذي اهتدى إليه العقل البشرى بطبيعته . ولكن المدافعين عن الوحي - أو أكثرهم على أقل تقدير - كانوا على اتفاق مع الطبيعيين ، في الاستجابة لنداء العقل ، وجعل كلمته هي العليا ، ومنحه السلطة على الوحي ! وبهذا الاعتماد على شريعة العقل ، انحدر بعض اللاهوتيين إلى مزلق الهرطقة ! أي أن سلاح خصومهم قد أضرّ بهم حين تقلدوه واستعانوا به في تقوية مركزهم ! ولم يكن هذا غريباً لأن الأصل في الدين أنه غيبي يقوم على الإيمان بما فوق العقل ، فالاعتصام بالعقل لتوطيد دعائمهم ، ومسيرة الحاجة إلى أقصى آمادها ، تفضى إلى تداعي الدين وانهاره .

أما الباعث الرئيسي على ذلك الجدل السالف بين الطائفتين . فقد كان الاهتمام بالأخلاق ، إذ رأى رجال اللاهوت أن عقيدة الثواب والعقاب في الحياة الأخرى لازمة لصيانة الأخلاق ، ورأى خصومهم من الطبيعيين أن الأخلاق لا تقوم إلا على العقل وحده ، وأن الوحي قد جاء بالكثير مما يتنافى مع المثل العليا في الأخلاق كما أقرها العقل !

لقد وضع « سبينوزا ، Spinoza المبدأ الذي أوجب تأويل الكتاب المقدس على نحو ما يؤول غيره من الكتب (١٦٧٠) وضمن هذا المبدأ كتابه

«رسالة لاهوتية سياسية» Theological Political Treatise وترجمت هذه الرسالة إلى الإنجليزية عام ١٦٨٩ ، فاعتنق الطبيعيون هذا المبدأ واعتصموا به ، ولكنهم خافوا اضطهاد السلطة فدفعوا آراءهم إلى الناس مقنعة يخفيها ستار رقيق ١٠٠ ولم يكن هذا الفرع الذي يساورهم من اضطهاد خصومهم أمراً بدعا ، فإن قانون الرقابة على المطبوعات (١٦٦٢م) قد حرم على الناس حتى القرن الثامن عشر ، نشر الآراء التي تناهض الدين ، حتى أننا لانعرف مدى شيوع النزعة العقلية في هذا العصر ، إلا من كثرة الكتب الدينية التي وضعها أصحابها للتشهير بالملاحدين ، وهجو آرائهم الخبيثة ! وما أهمل العمل بقانون المطبوعات عام ١٦٩٥ ، حتى أخذت مؤلفات الطبيعيين في الانتشار ، ولكن الاتهام قد ظل قائماً تزكيه قوانين التجديف .^(١) Blasphemy Laws التي وضعت لسكبح الذين يهاجمون المسيحية ، وقد عرفت انجلترا ثلاث قوى تستخدمها ضد من هاجموا المسيحية وهي :

(١) المحاكم الإكليريكية ، وقد كانت ولا تزال بها سلطة تخوّلها حق الأمر بالسجن مدة لاتزيد على ستة شهور ، في حالة الإلحاد والتجديف والهرطقة ، وإعلان الآراء التي تجاب اللعنة على أصحابها .

(٢) القانون العام كما فسره قاضي القضاة « هيل ، Hale عام ١٦٧٦ حين اتهم رجل بأنه زعم أن الدين غش وخداع ، وأنه أساء إلى المسيح ، فأدين وغُرم وشُد إلى وتد التشهير ، وصرح القاضي بأن تلك القضية تدخل في اختصاص المحاكم الأهلية مادامت ألفاظ التجديف وأمثالها تعتبر إهانة موجهة إلى الدولة وقانونها ، والتعريض بالمسيحية تحريض على عصيان القانون ، لأن المسيحية هي « جماع القوانين الإنجليزية »

(٣) قانون عام ١٦٩٨ الذي ينص على أن كل مسيحي ينكر - عن

(١) يراد بالتجديف في عرف الانجليز إنكار وجود الله أو عنائه أو الطعن في المسيح أو قذف الكتاب المقدس أو محاولة السخرية منه .

طريق الكتابة أو القول الشفوي أو الطبع أو المحاضرة ، ألوهية أحد في الثالوث الأقدس - الآب والابن وروح القدس في عقيدة التثليث - أو يؤكد أو يواصل القول بوجود أكثر من إله واحد ، أو ينكر أن تكون المسيحية ديناً حقاً صادقاً ، أو يرفض القول بأن الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد صادر عن الله ، من يقع في هذا يندان ويحق عليه العقاب ، وهو في أول مرة يعاقب بجرمانه من الوظائف والمهن العامة ، فإن عاود الخطأ فقد حقوقه المدنية وزج به في السجن ثلاث سنوات ! وقد قيل في تفسير هذا القانون ، إن الباعث على وضعه أن الكثيرين جهروا في السنوات الأخيرة ، أو نشروا كثيراً من آراء التجديف والإلحاد التي تتنافى مع عقيدة الديانة المسيحية وأصولها .

والواقع أن أكثر المحاكمات التي جرت من أجل التجديف في القرن السابع عشر والثامن عشر ، قد وقعت تحت طائلة البند الثاني . ولكن القانون الأخير ، كان مشار الفزع ومدعاة التستر والتخفي عند الملحدين ، ومن مظاهر هذا التخفي ، النزوع إلى تأويل الكتاب المقدس وعدم التقييد بحرفية نصوصه ، لأن مثل هذا التقييد - فيما رأى الطبيعيون - يكشف عن وجوه من التناقض والعبث تتنافى مع حكمة الله وعدالته ، ومن أجل هذا طالبوا بتأويل النصوص في ضوء العقل ، وكان مقصدهم من وراء هذا أن يسيئوا إلى الوحي ويشيروا الشك في أمره عند الناس .

مناقشة المعجزات والخرافات :

وقد استخدم رجال اللاهوت المعجزات والتنبؤات التي وردت في العهد الجديد ، شاهداً على صحة الوحي وصدقه ، وأبى خصوم الوحي من الطبيعيين أن يقرروا هذا الشاهد . وفي الحق إن الاعتراض على المعجزات وخرافات العادات ، يؤدي إلى هدم الأديان جميعاً ، لأن الأصل في الدين أنه يدعو إلى الإيمان الغيبي بما فوق العقل ، والاعتراض على هذا مع

محاولة إخضاع الدين إلى منطق العقل وامتحان التجربة والمشاهدة، كفيل يهدم الدين من أساسه، والتسليم به يفضى إلى التسليم بخوارق العادات، لأن الأصل في العلم أنه يقوم على تلازم الأسباب والمسببات أو عدم تلازمها ضرورة، ولزوم السبب للسبب يبطل المعجزات وخوارق العادات، فضلا عن إبطال الوحي كله والمعتقدات الأصلية في الأديان، لأن هذا يستلزم القول بأن الفاعل الذى يؤثر فى الأشياء والموجودات يكون من داخل لا من خارج، وفى الإمكان تأييد ذلك المبدأ بالمشاهدة والتجربة، أما المؤمنون بالدين فيرون أن الفاعل من خارج وليس من داخل، وبذلك يصبح وراء الفعل... وقد ثارت هذه المسألة فى الإسلام، وأيد الفلاسفة المبدأ العقلى السالف، وأنكره المتكلمون واحتالوا على تأويله^(١). فليسا ثارت المشكلة فى أوربا لم يقف الموافقون على الدين فى إنجلترا موقف المتكلمين فى الإسلام، بل اعتصموا بالعقل. وحاولوا تبرير المعجزات بمنطقه، فخافهم سلاحهم المستعار، لأنه لا يصلح فى مثل هذا الميدان...! ومن هنا كانت هزيمة رجال اللاهوت.

وقد نشر « أنتونى كولنز » A. Collins تلييد « لوك » عام ١٧٣٣ كتابه « تمهيد فى أصول المسيحية وأسبابها، كشف فيه عن ضعف الأدلة على تحقق النبوءات، تلك التى تستند إلى تأويلات مجازية متكلفة، وكتب قبل هذا بعشرين عاما « رسالة فى التفكير الحر، ضمنها المطالبة بحرية البحث وإرجاع الأمور الدينية كلها إلى شرعة العقل، وأعلن فيها شكواه من التعصب الذى استشرى داؤه - ولعل من الإنصاف أن نقول إن الدلالات التى تشهد بقيام التعصب، تنهض دليلا على شيوع الإلحاد واستفحال أمره.

وإذا كان « كولنز، قد أفلت من اضطهاد خصومه، فإن « توماس ولستون Th. Woolston بجامعة كمبردج، قد دفع ثمن جرمته وتهوره الذى بدا فى ست

(١) أنظر فرح أنطون فى مناقشته للاستاذ الامام فى « ابن رشد وفلسفته »

مقالات عنيفة أسماها « مقالات في معجزات مخلصنا » (١٧٢٧ - ٣٠) إذ حرم من طلب العلم ، وقدم للحاكمه بتهمة القذف ، وأدين بغرامة قدرها مائة جنيه ، وزج في السجن عاماً - وقد عجز عن دفع الغرامة ومات سجيناً ! وهو لا يحاول البرهنة على استحالة المعجزات أو مجافاتها للصدق ، بل يتناول بالبحث أهم المعجزات التي وردت في الأناجيل ، ويحاول في مهارة ونفاذ أن يكشف عن تناقضها وعدم جدارتها بمن قام بها !

على أن « ولستون » كان يؤمن بأن الكتاب المقدس من وحى الله ، وكان يضيق بتفسير المعجزات تفسيراً حرفياً ، ويراها مجرد رموز لأعمال خفية أثار بها المسيح في نفس الإنسان ، وقد اعتمد في تأويلها على أقوال أثرت عن أب مسيحي غير متعصب هو « أوريجان » Origen فيقتبس منه ويستشهد به ، ويملاً انتقاداته بفحش الكلام البذيء ، ومن أجل هذا أغفل البعض الاهتمام بها ، ولقيت عند الناس رواجا ملحوظا ، ومن دلالات شهرته السيئة أن فتاة مرحة لقيته ذات مرة فقالت له على غير معرفة به : ألا تزال حيا لم تشق بعد ، أيها الماكر الخبيث ؟ فقال لها : أي خطأ ارتكبته معك أيتها السيدة المهذبة التي لا تربطني بك معرفة ؟ فقالت له : إنك تهاجم في كتاباتك مخلصي المسيح ، فمن لنفسي المثقلة بالذنوب ، إذا لم يشفع لها مخلصي الحبيب ؟

نقد الوهمي المسيحي عنده قرال :

وفي الوقت الذي عانت فيه المعجزات حملات ولستون ، تلقى الوحي هجمات ماتيدوتندال M. Tidal من وجهة نظر أعم ، لم يهاجم المعجزات باعتبارها شاهداً على صدق الوحي - كما فعل ولستون ، بل واجه الوحي كله ، وجدّد في اجتهاده من جذوره ، فوضع في عام ١٧٣٠ كتابه « المسيحية قديمة قدم الخليقة » وقرر فيه أن الإنجيل باعتباره كتاباً منزلاً لا قيمة له ، لأنه لا يضيف شيئاً للدين الطبيعي الذي كشفه الله للإنسان منذ بدء الخليقة بنور العقل

وحده ؛ والذين يتوسلون إلى الدفاع عن الدين المنزل ، بالتوفيق بينه وبين الدين الطبيعي الذي تكشف عنه النظر العقلي ، ومن ثم يقيمون سلطتين للعقل والنقل ، يقعون في الكفر بين هاتين السلطتين . وإنه خلط غريب - فيما يقول هو نفسه - أن يبرهن على صدق كتاب ، بصدق المبادئ التي يحويها ، ثم يقرر في نفس الوقت صدق هذه المبادئ بمجرد وجودها في هذا الكتاب . . . هذا دور فيما يسميه المناطقة .

ثم يمضى ، تندال ، بعد هذا إلى نقد الإنجيل في إسهاب ، فيقول إنك إن أردت التمسك بعصمة الإنجيل ، دون أن تسيء إلى العقل الذي تدين به ، فعليك أن تتناول الآيات التي تتنافى مع حكم المنطق السليم ، بالتأويل والتحوير حتى تبعد بها عن معناها الحرفي ، فيستقيم أمرها مع منطق العقل ، ألا ترى أن المسلم الذي يفعل هذا في كتابه المقدس لا يصبح من أتباع هذا الكتاب ؟ ألا يقصر كتابه المنزل عن التسامي إلى مؤلفات شيشرون التي لم ينزل بها وحى ، والتي لا يتطلب فهمها البعد عن حرفية معناها ؟

والإنجيل فيما يقول خصومه ، قد تضمن من الأخطاء الطبيعية والتاريخية ، ما يهدم عصمته من الوقوع في الزلل ، ولكن أحد رجال الكهنوت قد قال - وقوله الحق - إن الله يخاطب الناس في كتابه المقدس حسب مداركهم ، وعلى قدر تصوراتهم في ذلك الحين ، وليس من عمل الوحي أن يقوم آراء الناس ويصحح أخطاءهم في الموضوعات التي يعرض لها ، ولكن « تندال » يقولون في رده على هذا : إن هذا يفضي بنا إلى القول بأن الله يتوقف عن إصلاح الخاطئ في آراء الناس ، ثم يؤيد هذه الآراء الباطلة باتباعها في حديثه ، ويأبى أن يقوم المنطق الفاسد عند عباده ، ثم يزاوول التفكير في ضوء أحكامه الباطلة بالتزامه في كلامه ! فهل يئست حكمة الله اللامتناهية من اكتساب عواطف الناس ، والاحتفاظ بها ، دون الاستعانة بمثل هذه الأمور التافهة ؟ ثم يعرض بعد هذا إلى غرابة « عقيدة الخلاص » بنقد مُر فيقول عن

المسيح عليه السلام : إن أبواب السماء كانت مفتوحة أمام الناس ، فاقبل عليهم من أغلق هذه الأبواب المفتحة ، حتى إذا تمَّ له ما أراد ، أهاب بالناس أن ينتظروا على يديه الخلاص ! كيف يمكن في حكم العقل أن يقال عن هذا إنه مخلص البشر ومنقذهم من أعباء المعاصي والآثام ؟ ثم يكشف « تندال عن التناقض بين ما ندرکه بنور الفطرة وحده ، من خيرية الله العادلة الشاملة ، وبين الأعمال التي تعزى إلى الله ورسله في التوراة ، ويستشهد بالحالات التي خولف فيها نظام الطبيعة ليتيسر عقاب الناس على آثام لا يد لهم في وقوعها . ! وإذا كان الله قد عبث بنظام مملكته ليأخذ البريء بجريرة المذنب ، إذا كان هذا مسلكه في حياتنا الدنيا ، فأى ضمان لنا في أن يغير الله هذا المسلك الجائر في حياتنا الأخرى ؟ وإذا كانت قواعد العدالة الأبدية قد أهملت مرة ، فكيف للعقل أن يتصور الكف عن العبث بها بعد ؟ في الحق إن المثل العليا للعدالة والقداسة في « العهد القديم » تثير الدهشة ، لأن أصحاب هذه المثل يتمثلون في هذا الكتاب وقد كلفوا بالقسوة وعكفوا على قذف الناس والطعن فيهم ! أليس غريباً أن نرى النبي « اليسع » Elisha يلعن باسم الله صغار الأطفال ، لأنهم دعوه بأملط الرأس ! وأليس أدعى إلى الدهشة أن تبتلع دبتان في الحال اثنين وأربعين طفلاً من هؤلاء الصغار !

الخطر في قيام المسيحية على العقل (هنري دودويل) :

قلنا فيما أسلفنا إن رجال اللاهوت كانوا في هذا العصر بوجه عام ، يقيمون المسيحية على شريعة العقل لا على أساس الإيمان ، وهذا الاتجاه لا يسلم من معارضين ، أظهرهم « هنري دودويل » H. Dodwell (الصغير) الذي وضع عام ١٧٤١ كتيباً شائقاً عن « المسيحية لا تقوم على الحجة ، وأظهره في صورة خطاب موجّه إلى صديق في أكسفورد وأشار فيه إلى الأخطار التي تنجم عن هذا الاعتماد على منطق العقل واستدلالاته ، ومن سخرية الأقدار ان تكون هذه الرسالة نتيجة مبدأ « بايل » الذي يفترض أن أصول المسيحية

تتوافق مع العقل ولا تسير بالضرورة أحكام المنطق إن قيام الاعتقاد في صحة وحيها على أساس المنطق العقلي ، ينذر بكل سوء ، إن من نزعت نفسه إلى الإيمان ، قاده العقل الى الهداية ، وأن غرس الإيمان وغرس العقل ينتهيان إلى نتائج متناقضة ، والفيلسوف بتغلغله في مجاهل الحكمة الدنيوية ، لا يصلح لتلقي الأوامر الإلهية ، والأناجيل لا تُلقى سرها إلا لمن يتلقاها بقلبه الخاضع ونفسه الصافية — صفاء الطفل الذي تجرد عن كل ميل الا ميله إلى حفظ درسه ! والمسيح لم يعرض عقيدته لتكون موضعاً للبحث والجدل ، ولم يقدم حواريه البراهين الدالة على صدق رسالته ، ولم يدع لهم الوقت الذي يتطلبه بحثهم لها ، والحرية التي يستلزمها التفكير في تعاليمها ، حتى ينتهوا من هذا بإعلان ما يقرره عقلمهم بصدها ، ولم يكن الحواريون أهلاً لأداء هذه المهمة ، لأنهم كانوا أعظم أهل عصرهم سلامة قلب و صفاء نفس ، وأبعدهم عن الدرس والتعلم . . !

ويستطرد « ددويل » من هذا إلى موقف البروتستانت ، ويبين عن تداعيه ، لأن من الخطر أن تعطى كل انسان حق الحكم لنفسه ، ثم تتوقع بعد هذا أن يحرص على الدين حرص التقي المتمسك بتعاليمه ، وإذا كان رجال الإصلاح الديني قد هاجموا ادعاء البابا العصمة ، فان في موقفهم من الحكم الفردي ادعاء ملحوظا .

هجوم سافنبري على الكتاب المقدس :

ونلاحظ مما أسلفناه ، أن معظم الملحدين في هذه الفترة ، قد جنحوا الى نقد الدين التقليدي المنزل ، والتعلق بالدين الطبيعي الذي اهتدى اليه العقل بفطرته ، وفكرة هذا الدين على ما عرفناها من قبل ، قد انحدرت من الفلسفة القديمة ، وجدت في إحيائها اللورد هربرت شيربري في بحث وضعه باللاتينية « عن الحق » في حكم جيمس الأول ، وكان الطبيعيون يلحسون في اعتبار هذا الدين الطبيعي ، أساساً كافياً للاخلاق ، ويقولون إن إغراء المسيحية للناس ، على

اتباع السلوك الخيّر لا قيمة له إطلاقاً ، فقد عرض للبحث في هذا الموضوع شافنيسبرى Shaftesbury في كتابه « بحث عن الفضيلة ، وضعه عام ١٦٩٩ ، وقرر فيه أن الإغراء على اتباع السلوك الخيّر ، بالأمل في نعيم الجنة المقيم ، والتخويف من عذاب النار الأليم ، مفسدة للأخلاق ، وحسب الإنسان باعثاً على فعل الخير ، جمال الفضيلة في ذاته ، بل إن افتراض وجود الله غير ضروري عند وضع القانون الخلقى . ثم إن آراء الملحدّين لا تهدم الأخلاق ، ولكن الإيمان بوجود حاكم خيّر يهيمن على هذا السكون ، عون عظيم على مزاوله الفضيلة ، وشافنيسبرى من غلاة المتفائنين الذين يرضون كل الرضا عما يرونه في السكون من تلاؤم معجز بين الوسائل وغاياتها ، يصبح بمقتضاه بعض الحيوانات طعاماً لبعضها الآخر ، وهو لا يحاول التوفيق بين وحشية الطبيعة ، ورحمة خالقها القادر ، ولو سئل الملحد عن رأيه في ذلك ، لقال إنه يؤثر أن يكون تحت رحمة المصادفة العمياء ، على أن يكون في يد حاكم مستبد قاهر ، يخلق الذباب لكي يتلعه العنكبوت - ولكن هذه النظرة لم تكن مثار الاهتمام عند مفكرى القرن الثامن عشر ، فإذا مررنا بها ، لاح لنا شافنيسبرى نافراً من « الإله » كما بدا في التوراة ! وهو يهاجم - تليحاً وتصريحاً - ذلك الكتاب المقدس ، ويشير تليحاً إلى أنه لو كان هناك إله ، لكان أقل ضيقاً بالملحدّين ، منه بأولئك الذين آمنوا بوجوده في صورة « يهوذا » ، وكان يقول ما قاله بلوتارك : أحبّ إلىّ أن يقال عنى بعد : لم يوجد في الماضى ، ولا يوجد في الحاضر رجل اسمه بلوتارك ، من أن يقال : ومجد بلوتارك وكان رجلاً خليعاً ماجناً سريع التقلب أخذاً للثأر . ونظرية شافنيسبرى في الأخلاق على ضحولتها ، قد أثرت في مفكرى فرنسا وألمانيا في القرن الثامن عشر تأثيراً واسع المدى .

نداعى الدفاع بالعقل عن المسيحية :

كان العقل ملاذ الطبيعيين من المؤلّهة ، وخصومهم البارزين من رجال اللاهوت على السواء ، كما أشرنا من قبل ، اعتصم به المعسكران في نصره

قضيتهما ، ووجه الطرافة في موقف رجال اللاهوت ، أنهم حين لجأوا إلى العقل واستشهدوا بمنطقه ، ساهموا كثيراً في تقويض سلطة النقل وهدم قضيتهم ! وفي موقف مؤيدي المسيحية في هذه الفترة ما يشهد بما نقول :

صادفت المسيحية تأييداً من رجل يُظن أنه أقدر الفلاسفة الطبيعيين وأعلمهم على وجه التحقيق ، هو الموقر « ك . مدلتون ، Conyers Middleton » الذي بقي في حظيرة الكنيسة ولم ينسلخ عنها ، وقد أقام انتصاره للمسيحية على أساس نفعي بحت ، فقال إن العمل على هدمها ، مع افتراض أنها أكلوبة ، ضلال مبین ، لأنها تقوم على القانون ، ووراءها ماضٍ طويل من التقاليد ، والعمل على تقويض المسيحية ، لإحلال العقل مكانها ، جهد لا يرجى من ورائه خير ، على أن الأدلة التي ساقها لتأييد قضيته ، قد أفضت بقارئها إلى هدم الوحي وتقويض المسيحية ..! « فبحته الحر في المعجزات المسيحية ، (١٧٤٨) يلقى ضوءاً جديداً على موضوع كان مثار الجدل منذ القدم ، وهو : متى عجزت الكنيسة عن إثبات المعجزات ؟ وسنرى بعد قليل كيف نهض « جيون » بتطبيق منهج « مدلتون » في حملته على الدين .

وإلى مثل هذا الاتجاه العقلي ، سار الأسقف « بطر » وهو أكبر المدافعين عن الدين ، فنشر كتابه Analogy عام ١٧٣٦ ، فاتهم هذا الدفاع الحار بأنه كان أكثر إثارة للشكوك ، في عقل القارئ ، منه تسكينها ! . كان هذا أثره في « وليم بت الصغير » وقد انتهى بالفيلسوف النفعي « جيمس ميل ، J. Mill » إلى الكفر . . . !

وقد برهن الطبيعيون من المؤمنين على أن إله الطبيعة الذي أهدوا إليه بمنطق عقولهم ، لا يمكن أن يكون هو ذلك الإله الذي تصفه التوراة والأناجيل بالقسوة والظلم ، فأشار بطر إلى الطبيعة قائلاً ، إنها مليئة بالقسوة والظلم ! فكان في هذه الإشارة اعتراف صريح بنتيجة كان يخشاها ، وهي أن الإله العادل الرحيم الفعال للخير لا وجود له ! فاضطر بطر إزاء هذا إلى أن

يلتجىء إلى الأدلة الشككية القديمة التي تقول إن علمنا الضيق يحول دون إدراكنا لهذا الإله ، وأن كل شيء ممكن الوجود ، حتى نار الجحيم المخلاة ، وعلى هذا يكون آمن الطرق وأسلها ، اعتناق الدين المسيحي المنزل . . . وهذا دفاع لا يخص ديناً دون دين .

والواقع أن « بطر » قد أحيا بهذا دليل « بسكال » فيلسوف الرهان ، الذى يقول : إذا كان هناك احتمال واحد فى أن تكون المسيحية صحيحة صادقة ، لكان من مصلحة الإنسان اعتناقها ، لأنه لن يخسر إن ثبت بعد هذا بطلانها ، إلا ما ضحى به فى حياته من لذات تافهة ، ولكنه يرجح رجحاً طائلاً إن تحقق احتمالها حتماً ! ولقد أفرغ بطر وسعته فى ترجيح هذا الاحتمال ، ولكن محاولته تعادل فى قيمتها الفعلية والخلقية ما كان لدليل بسكال !

هذا بعض ما جرى من نزاع عقلى بين الطبيعيين من المؤهلة وخصومهم من رجال اللاهوت إبان هذا العصر ، فلنتبع هذا النزاع عند دايفيد هيوم :

موقف هيوم من وجود الله وفوارق العادات :

لاحظ « هيوم » + ١٧٧٦ أكبر فلاسفة الانجليز فى القرن الثامن عشر ، أن فكرة « الدين الطبيعى » ألصق بتاريخ الكنيسة منها بتاريخ الفلسفة ، لأن الأصل فى هذه الديانة أن بعض رجال الدين قد قاوموا سلطة الكنيسة ، طمعا فى أن يزداد على حساب ضعفها نفوذهم ، فلما ضعف نفوذهم اعتصموا بالعقل واستندوا الى نوره الفطرى فى التبشير بالدين الطبيعى .

ومن الخير - قبل أن نتحدث عن هيوم - أن نشير إلى باركلى + ١٧٥٣ الذى كان مؤمناً كامل الإيمان ، فسأته موجة الإلحاد والإباحة واللا دينية التى فشئت فى عصره ، فردَّ هذه الحركة الجارفة إلى المادية التى كان يبشر بها الفلاسفة ، وحاول أن يثبت الشر من جذوره ، فرد الحقائق كلها إلى الفكر ، وقرر أن الأجسام فى شتى صورها ليست إلا ظواهر لاحقيقة لها ، وإذا انتهى إلى هذه اللامادية التى قضى بها على العالم المادى ، وأقر مكانه العالم

الروحي ، واصل دفاعه عن الوحي المسيحي ، ومهاجمته لدعاة الإباحة في كتابه «السفرون Alciphron أو الفيلسوف الصغير» ، ولكن هذا الإسراف في التفكير الروحي إذا كان قد أودى بالعالم المادي ، فإنه انتهى عند خليفته «هيوم» ، إنكار العالم الروحي . . . !

قرر هيوم في كتابه «محاورات في الدين الطبيعي» — الذي نشر بعد مئاته بثلاث سنوات — أن أدلة الطبيعيين على إثبات وجود الله متهافة متداعية، وعرض لمناقشة «برهان الغائية» الذي استند اليه المسيحيون والطبيعيون معا ، وخلاصته أن العالم محتاج الى صانع ممتاز بالخبرة والذكاء ، إن فيه آيات تشهد بوجود مدبر للكون ، إن بين الوسائل وغاياتها تلاؤما معجزاً لا يمكن رده الى غير خطة مقصودة ، وضعها عقل قوى قادر ، ويعترض هيوم على هذا الدليل فيقول إنه لا يُرضى الصوفية لأنه يتضمن تشييعها ماديا ، ولا يعجب أهل الجدل لأنه يسمح بوجود أكثر من إله ، إنه لا يبرهن الا على وجود إله قد يسمو على الانسان ، ولكن سلطته محدودة وصناعته يعوزها الاتقان لا محالة ، لأن الكون عند الطامحين المثاليين مليء بالآخطاء ، ان دنيانا الحاضرة تبدو وكأنها أول محاولة فجأة لإله طفل ، فلما اتسعت خبرته ونمت مداركه تخلى عنها وندم عليها وأخجله نقص صناعته !! أو كأنها من صنع إله يباشر التميرين ويزاوله ، وهي تثير عند أستاذه السخرية ! أو كأنه من صنع إله طاعن في السن متقاعد ، مات وخلف مخلوقه يحيا مستهتراً ، خير للمسيحيين والطبيعيين معا ألا يكون لهذه النظرية وجود ! ولكن هيوم قد قبل بعاطفته أكثر المبادئ الدينية التي أخضعها للشك بعقله ، فالشك حال طارئة ، سرعان ما تزول ليأخذ اليقين مكانها .

وقد عرض هيوم في «مقاله عن المعجزات» ، وفي كتابه الفلسفي «بحث في العقل البشري» ، (١٧٤٨) الى مناقشة موضوع المعجزات ، وكان البحث فيها الى عهد هيوم ، غير مستقل عن المزاعم اللاهوتية ، فرأى هيوم أن من

الضرورى أن يوجد مقياس عام موحد يجرى على كل حادث خارق للعادة ،
وتصديق المعجزات لغرابتها ، يتطلب من الشواهد أكثر مما يتطلبه الحادث
العادى ، فوضع قاعدة عامة هى « لا تكفى البيّنة لإثبات المعجزة ، إلا متى
كانت بحيث يكون كذبها معجزة أكبر من الحقيقة التى تحاول إثباتها ، ولكن
الملاحظ أن ليس ثمة بيّنة يمكن اعتبار بطلانها معجزة ، وليس فى وسعنا أن
نجد بين صفحات التاريخ معجزة واحدة ، أثبت صدقها عدد كبير من الناس ،
امتازوا بدقة الإدراك الذى يرتفع فوق كل شك ، وتربية قويمة وعلم يقمهم
احتمال الغفلة ، ونزاهة ترفعهم عن سوء الظن وتنأى بهم عن تضليل الناس ،
وسمعة طيبة تخيفهم من سقوط اسمهم إن عرف عنهم زور أو بهتان ، يدرسون
هذه الحقائق ويفحصونها على ملاءم الناس حتى تكون شهادتهم بصدق
المعجزة ، صحيحة لا يأتيا الباطل فى حكم أو رأى .

محنة مبيون على المسيحية :

كانت فلسفة هيوم الشككية ، أقل تأثيراً فى الرأى العام من كتاب « جيون ،
Gibbon » اضمحلال الأباطورية الرومانية وسقوطها ، وربما كان من بين
المؤلفات الكثيرة التى نشرها أحرار الفكر فى إنجلترا إبان القرن الثانى عشر ،
الكتاب الوحيد الذى أصاب بين القراء رواجاً واسع المدى ، وقد عالج فى
الفصلين الخامس عشر والثامن عشر منه « أسباب قيام المسيحية ونجاحها ،
باعتبارها مجرد ظاهرة تاريخية ، وكان على « جيون » أن يسلك مسلك
معاصريه فى التظاهر باحترام العقيدة الدينية ، حتى يفلت من اضطهاد
رجالها ، وقد أثنى على هذه العقيدة ثناء ملؤه السخرية ، فصرح بأن انتصار
المسيحية ، مرده الى ما تضمنته من قوة التدليل ، والإحكام فى تدبير مبدعها
العظيم ، ثم استطرد الى تتبع تاريخ هذه العقيدة الى أيام قسطنطين بطريقة
توحى اليك أنك أمام حركة بشرية محمضة ، قد تجردت عن كل أثر لتدخل
العناية الإلهية !

ويعرض « جيون » إلى المعجزات من وجهة النظر التاريخية ، وهو يدين بالكثير في هذا الصدد إلى مدلتون ، فيقول إن المؤمنين جميعاً يؤمنون بخوارق العادات ، ويعتقد كل عاقل أنها لا تقع في هذه الأيام ، وقد شهدت العصور الغابرة بوقوعها ، فمتى توقفت هذه المعجزات . . ؟ كيف التبس الأمر على آخر جيل شهد آخر معجزة فلم يستطع أن يميز بينها وبين الدجل ؟ في الحق إن ما عرف عن المؤمنين السابقين من سداجة أو سلامة نية ، خير معوان لقضية الدين .

ولكتاب « جيون » قيمة باعتباره أكبر سجل لتاريخ العصر الوسيط ، ولا يملك قارئه — بالذات ما بلغ تدينه — أن ينبجو من سمومه !
دفاع بالبه عمه المسيحية :

كان تطابق الدين المنزل وتلاؤمه مع الدين الطبيعي ، مشار الجدل الديني في النصف الأول من القرن الثامن عشر ، وقد استفد الطبيعيون حملاتهم في هذا الصدد في منتصف هذا القرن ، وخيل إلى رجال اللاهوت أنهم قد انتصروا بإقناع خصومهم ، ولكن صمت الطبيعيين لا يكفي حجة تهض على أن الدين المنزل حق لا ريب فيه ، إذ كان من الضروري أن يدللوا على أنه صحيح يقوم على أسس تاريخية مكينة ، وهذه هي المسألة التي أثارها نقد هيوم ومدلتون للمعجزات ، وكان أبرع جواب هو الذي قدمه « پاليه » ، Paley في « أدلة المسيحية » ، ١٧٩٤ ، وهو — من بين ما كتب في هذا العصر — الدفاع الوحيد الذي لا يزال مقروءاً ، وإن فقد اليوم قيمته .

وتصور لنا كتابات « پاليه » اللاهوتية ، كيف تتلون الآراء الدينية عن غير وعي ، بروح العصر الذي تقال فيه ، فهو يحاول في كتابه « اللاهوت الطبيعي » ، أن يثبت وجود الله ، مستنداً إلى فكرة الدليل الغائي الذي أسلفنا الإشارة إليه ، دون إكترات بنقد هيوم لهذا الدليل ، فيقول إن وجود الله يستنبط من مشاهد الطبيعة ، كما يستنبط وجود صانع الساعات من الساعة التي صنعها ،

وَيَصُورُ اللهُ فِي صُورَةِ صَانِعِ ذِكِّي يَكْتِفُ مَادَّةَ عَنِيدَةٍ غَيْرِ طَيِّبَةٍ . وَقَدْ لَاحِظَ « لِسْلِي اسْتَفَن » L. Stephen أَنَّ إِلَهَ « پَالِيه » قَدْ تَمَدَّنَ بِتَمَدِّنِ الْإِنْسَانِ ، وَبَدَأَ فِي صُورَةِ عَالَمِ لُودَعِي . . . إِنَّهُ أَعْظَمُ مِنْ « وَات » وَ« بَرَسْتَلِي » فِي الْمُخْتَرَعَاتِ الْمِيكَانِيكِيَّةِ ، وَالْكِيْمِيَاءِيَّةِ . . . فَهُوَ إِلَهُ خَلِيقِ بَعْصَرٍ يَعِيشُ فِيهِ مِثْلُ هَؤُلَاءِ الْأَعْلَامِ ! .

وَمَتَى اسْتَقَامَ أَمْرُ الْإِلَهِ عَلَى هَذَا النُّحُو ، هَانَ خُطْبُ « الْمَعْجَزَاتِ » وَقَدْ أَهْتَمَّ « پَالِيه » بِالْمَعْجَزَاتِ وَجَعَلَهَا مَحْوَرِ الدِّفَاعِ عَنِ الْمَسِيحِيَّةِ ، وَكَانَتْ حُجَّتَهُ فِي صَدَقَتِهَا ، أَنَّ الْخَوَارِيئِينَ قَدْ رَأَوْهَا بَعْيُونَهُمْ وَأَمَّنُوا بِصَدَقَتِهَا ، وَمَنْ أَجَلَ هَذَا جَاهِدُوا وَاحْتَمَلُوا الْعَذَابَ مِنْ أَجْلِ دِينِهِمُ الْجَدِيدِ — إِنْ دَفَعَ « پَالِيه » — فِيمَا يَقُولُ بِيُورِي — لِيُؤْهِلَهُ لِأَنَّ يَكُونَ « مُسْتَشَاراً قَانُونِيّاً » بَارِعاً لِلإِلَهِ الْقَادِرِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ . . . !

مُتَاوِزَةُ صَمَّوئِيلَ « بَيْن » عَلَى الْمَسِيحِيَّةِ :

كَانَ آخِرُ الْفَلَسَافَةِ الطَّبِيعِيِّينَ مِنَ الْإِنْجِلِيزِيِّينَ فِي الْقَرْنِ الثَّامِنِ عَشَرَ ، هُوَ « توماس پَيْن » Th. Paine الَّذِي فَاقَتْ شَهْرَتُهُ شَهْرَةَ أُسْلَافِهِ ، وَقَدْ قَامَ بِدَوْرٍ لَهُ خَطَرُهُ فِي تَارِيخِ النِّزَاعِ مِنْ أَجْلِ حُرِّيَةِ التَّفَكُّيرِ فِي مَجَالِ السِّيَاسَةِ ، فَقَاوَمَ الْإِسْتِبْدَادَ وَكَابَدَ مِنْ أَجْلِ هَذَا عَتّاً شَدِيداً ، لَا يَدْخُلُ الْحَدِيثُ عَنْهُ فِي نِطَاقِ مَحْتَنَانَا .

أَدَانَ الْقَضَاءُ الْإِنْجِلِيزِيُّ « بَيْن » ، وَأَهْدَرَ دَمَهُ ، مِنْ أَجْلِ كِتَابِهِ « حَقُوقُ الْإِنْسَانِ » ، وَاسْكَنَ هَذَا قَدْ عَادَ فَنَشَرَ كِتَابَهُ « عَصْرُ الْعَقْلِ » The Age of Reason (١٧٩٤ - ٩٦) وَفِيهِ هَاجَمَ الْمَسِيحِيَّةَ هَجُوماً عَنِيْفًا كَانَ قَدْ شَرَعَ فِي وَضْعِهِ وَهُوَ فِي سِجْنِ بَارِيْسِ الَّذِي أَلْقَاهُ فِيهِ رُوبَسْبِير - وَمِيزَةُ هَذَا الْكِتَابِ أَنَّهُ أَوَّلُ كِتَابٍ قِيِّمٍ يَنْشُرُ بِالْإِنْجِلِيزِيَّةِ فِي مَهَاجَةِ عَقِيدَةِ الْخِلَاصِ ، وَتَفْنِيدِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ فِي أُسْلُوبٍ وَاضِحٍ لَا يَأْجَأُ فِيهِ صَاحِبُهُ إِلَى التَّخْفِيِّ وَالتَّسْتَرِ ، وَلَا يَلُودُ بِالْحَيْطَةِ وَالْحَذَرِ ، ثُمَّ هُوَ قَدْ كَتَبَ بِلُغَةٍ سَاصِلَةٍ تُسَيِّرُ انْتِشَارَهُ بَيْنَ الْجُمَاهِيرِ ، ثُمَّ يَمْتَازُ مَعَ هَذَا بِأَنَّ صَاحِبَهُ يَنْفَرِدُ دُونَ نِقَادِ الْإِنْجِلِيزِيِّينَ الَّذِيْنَ التَّزَمُوا مِنْهَجَ الطَّبِيعِيِّينَ الْأَوَّلِ ، بِأَنَّ

أوضح التناقض الملحوظ بين الإنجيل وعلم الفلك في تصور الكون ، فقال إن المسيحية لم تنص صراحة على أن دنيانا هي وحدها العالم المعمور ، ولكنها أشارت تليحاً إلى ذلك في قصة العهد القديم ، وقصة حواء والتفاحة وما يقابلها من موت ابن الله ، ولو قلنا إن الله قد خلق كثرة من العوالم لا تقل عما نسميه نجوماً ، لأصبحت المعتقدات المسيحية ضئيلة ومثيرة للضحك ! إن الفكرة المسيحية والفكرة الفلكية في هذا الصدد لا يمكن أن تقوموا في عقل واحد ، ومن ظن أنه يعتقد في كليهما معاً ، دل بهذا على أنه يجهمهما معاً !

ويعرض « بين » - وهو الطبيعي المتحمس - للطبيعة ومشاهدها ، ويقرر أنها وحي الله ومظهر قدرته ، ويشير إلى قصص وردت بشأنها في « العهد القديم » ، ثم يقول : إننا حين نمعن النظر في جلال هذا الكائن الذي يدبر ويحكم هذا « الكل » الذي تقصر العقول عن إدراكه ، ولا يستطيع أنفذ نظر إنساني أن يحيط بغير طرف ضئيل منه ، عندما نتأمل ذلك ، يساورنا الخجل من تسمية هذه القصص التافهة « كلمة الله ! »

وقد نهض للرد على هذا الكتاب الكاهن « وطسون » Watson وهو أحد الممتازين من أساقفة القرن الثامن عشر ، الذين سلخوا بحق الفرد في الحكم على الأشياء كما تبدو له ، وطالبوا بمقارعة الحججة بالحجة ، وأنكروا مقابلة الرأي بالقوة ، وجعل عنوان كتابه « اعتذار عن الإنجيل ! » وقد قال الملك جورج الثالث إنه لم يكن يدرى قبل هذا الكتاب أن الإنجيل في حاجة إلى من يعتذر عنه ! وكان دفاع هذا الكتاب عن الإنجيل دفاعاً متهاثراً ، وفيه إذعان وتسليم بالكثير من وجوه النقد التي وجهها إلى الإنجيل « بين » ، وبهذا حطم عصمة الإنجيل ... !

وقد ذاع كتاب « بين » ذيو عارح المدي ، فتولت « جماعة قمع الرذيلة » إقامة الدعوى على ناشر الكتاب ، وكان الإلحاد شائعاً بين الطبقة الحاكمة ، ولكن هذا لم يمنع من اعتبار الدين ضرورياً لعامة الناس ، والميل إلى قمع كل

حركة ترمى إلى بث الكفر بين الطبقات الدنيا، إن الدين أداة ناجحة في حفظ الأمن بين الدهماء . ولعلنا لاحظنا مما أسلفناه أن الوحيد من بين العقليين الأول - مع استثناء قسنية ولستون Woolston - كان الوحيد الذى عوقب من بينهم « بطرس أنت ، Peter Annet وهو مدرس حاول أن يشيع الفكر الحر بين الناس ، فحُكِمَ بتهمة العمل على ترويح آراء شيطانية ، وحُكِمَ عليه بالأشغال الشاقة مع ربطه فى وتد التشهير (عام ١٨٦٣) - وهى آلة كان يدخل فيها المجرم رأسه ويديه للتشهير به ! وكان من رأى « بين ، أن من حق جمهرة الشعب أن تكون على علم بالأفكار الجديدة ، وفى ضوء هذا الرأى ، كتب فى أسلوب يمكن الجماهير من معرفة آرائه ، ومن ثم وجب أن يصادر كتابه ! وعندما تقدم للحاكمة عام ١٧٩٧ م أقام القاضى العراقل فى وجه الدفاع ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، ثم أصدر حكمه بسجن الناشر عاما !

ولم تكن هذه آخر محاكمات « بين » إذ نشر فى عام ١٨١١ الجزء الثالث من « عصر العقل ، فأدين الناشر « إيتون ، وصدر حكم بحبسه ثمانية عشر شهرا ، وربطه فى المشهر مرة فى كل شهر ، وجاء فى حيثيات الحكم « أن إنكار حقائق الكتاب المقدس ، وهو أساس عقيدتنا ، لم تكن فى يوم من الأيام مباحة لأحد من الناس ، فوجه الشاعر « شيلي ، خطابا لاذعا الى القاضى الذى قرر ذلك ، جاء فيه :

« أتظن أنك تهدى المستر إيتون الى دينك بتنخيص حياته وتكدير عيشه ؟ قد يكون فى وسعك أن تضطره بوسائل القهر والتعذيب الى التظاهر باعتراف معتقداتك ، ولكنه لا يملك الإيمان بها إيمانا صادقا ، إلا إذا حاولت أنت أن تجعلها ممكنة التصديق ، وهذا شيء ربما كان فوق طاقتك ! وهل تظن أنك ترضى الله بهذه الغيرة التى تبديها على هذا النحو ؟ إن صح هذا ، كان إبليس الذى تقدم له بعض الشعوب قرابين بشرية ، أقل همجية من إله هذا المجتمع المتمدين . . . ا . . .

وفي عام ١٨١٩ أعاد ريشارد كارليزل R. Carlisle نشر كتاب «عصر العقل»، فقدم للحاكمه وصدر حكم يقضى بأن يدفع غرامة باهظة ويحبس ثلاثة أعوام، ولما عجز عن دفع الغرامة، بقي في سجنه ثلاثة أشهر وكانت زوجته وأخته قد واصلتا بيع الكتاب، فصدر حكم يلزمهما بدفع غرامة، وألقي بهما، مع عدد كبير من باعة الكتب في المكتبات الى السجن .

كابد الناشرون العذاب في إنجلترا، أما «بين» مؤلف الكتاب، فقد كان في «أمريكا» يعاني اضطهاد بعض المتعصبين الذين جاهدوا لتنبصه بقية حياته .

كلمة أخيرة :

هذه خلاصة موجزة لأمر النزاع بين العقل والايمن إبان ذلك العهد في إنجلترا البروتستانتية، ومن وزن بينه وبين النزاع في العالم الكاثوليكي، أدرك أنه كان في الأولى - في الأغلب والأعم - مقارعة حجة بحجة، وحتى رجال اللاهوت لجأوا الى العقل واعتصموا بشريعته، وكاد الاضطهاد الذي أوقعه بأحرار الفكر ذوو النفوذ منهم، أن يقتصر على مصادرة كتاب وسجن مؤلفه أو ناشره، وإلزامه بدفع غرامة... الى آخر ما عرفنا: دعرض هذا النزاع، أما في العالم الكاثوليكي حيث استحوذت الكنيسة الكاثوليكية على نفوذ مدني الى جانب نفوذها الديني، فقد عرف تاريخ النزاع محاكم التفتيش وهي تطارد أحرار الفكر وتسلط عليهم عذابها، وتتولى تشريدهم والتنكيل بهم إحراقاً وإعداماً، وتسلط سلطانها على قلوب الناس، فتسجل مؤلفات هؤلاء الأحرار في سجل الكتب التي حرمت على المؤمنين قراءتها! ولكن الحق يقتضينا أن نقول إن السلطة الزمنية كانت تُعوز أتباع البروتستانتية، في الوقت الذي تهيأت فيه للسلطات الكاثوليكية، ومن هنا كان نزوع البروتستانت الى الالتجاء للعقل، والاعتصام بمنطقه، وقد عرفنا في غير هذا المكان، كيف استيقظت النزعات الشريرة عند رواد الإصلاح الديني من البروتستانت، حين تيسر لهم التنكيل بخصومهم، وفرض عقيدتهم على الناس غصباً واقتداراً.

الفصل الثامن

النزاع بين اللاهوت والعلم

في القرن الغابر

تحول حديثنا من الفلسفة إلى العلم — عدة القرن في نزاعه — انتصار العلم على اللاهوت في خلق الكون — العلم الحديث يهدم الرواية الدينيّة في نشأة الخلق — ثبات الأنواع وحلّات العلم الحديث التقيوضه — نظرية التطور عند والاس ودارون — الحملات على دارون في شتى بقاع العالم المسيحي — انتصار النظرية الجديدة حتى في المسكرات الدينيّة — موقت العلم لمسيحي من دارون بعد مماته — تأييد رجال اللاهوت لحرية التفكير — فزع السلطانات الدينيّة ومظاهره — الاضطهاد عند الكاثوليك والبروتستانت — كلمة أخيرة .

تحول حديثنا من الفلسفة إلى العلم :

خفت حدة النزاع بين الفلسفة واللاهوت في القرن الغابر ، بل أخذ الكشيريون من رجال الفلسفة يذودون عن الدين ، ويدافعون عن تعاليم الكنيسة ، فأثار هذا ضيق رجال العلم بهم ، ونهضوا لمحاربتهم في ابتعادهم عن الواقع ، وخلقوا فلسفتهم من النزوع المادي ، وغلا هؤلاء العلماء في إغفال جانب الروح ، وتفسير كل شيء بالمادة والقوة ، بل صرحوا بأن نبد العقائد الدينيّة والآراء الفلسفيّة ، فيه مزاولة لفن التضحية وإنكار الذات ! ومن هنا ساءت العلاقات بين العلم من ناحية ، والفلسفة واللاهوت من ناحية أخرى ، ووضح هذا التوتر في النصف الثاني من القرن الغابر ، فيما يقول « ولف » .

ويتحدث « إميل بوترو » E. Boutroux في كتابه عن « العلم والدين » : « عن النزاع بينهما خلال مراحل التاريخ ، مع تصالحهما مرة بعد مرة ، ثم يقول : « لم يبرح العلم والدين قائمين على قدم السكفاح ، ولم ينقطع بينهما صراع يريد به كل منهما أن يدمر صاحبه ، لا أن يغلبه فحسب ، على أن هذين النظامين لا يزالان قائمين ،

ولم يكن مجدياً أن تحاول العقائد الدينية تسخير العلم ، فقد تحرر العلم من هذا الرق ، وكأثما انعكست الآية منذ ذلك ، وأخذ العلم ينذر بفناء الأديان . ، ولكنه يقول بعد هذا مفسراً هذا النزاع في وقتنا الحاضر ، ليس التصادم الآن فيما يظهر بين الدين والعلم باعتبارهما مذهبين ، بل التصادم أدنى أن يكون بين الروح العلمي والروح الديني ، فليس يعنى العالم أن يكون ما جاء في الدين من عقائد ، متفقاً مع نتائج العلم ، لأن الأساس الذي يعتمد عليه الدين فيما يجيء به ، ويختلف عن الأساس الذي يعتمد عليه العلم ، فالدين يقدم مسأله على أنها عقائد يجب أن يتقيد بها العقل والوجدان ، ويعرضها في صورة تدل على إتصال الإنسان بنوع من الأشياء ، يعجز عنها الطبيعي عن إدراكه ، وفي ذلك مما يجعل العالم — إن لم يرفض هذه المسائل نفسها — يرفض الأسلوب الذي يسلكه المتدين في الأخذ بها ، والمتدين من ناحيته إذا وجد جميع عقائده وعواطفه وأحكامه العملية مفسرة بل مثبتة بالعلم ، يكون حينئذ أبعد شيء عن سامة العلم ، فإن هذه الشئون إذا شرحت على هذا الوجه ، فقدت كل خواصها الدينية ، (١)

وهذا صحيح ، والخلاف واضح بين منهج البحث العلمي ومسلك الوحي الديني ، ولكن التوتر — على هذا الخلاف — قد تلاشى أو تضام كثيراً — في القرن العشرين بين العلماء ورجال الدين . لأن العلم قد انتقل فجأة من المادية المتطرفة إلى الروحية المسرفة ، واصطبغت آراء أهله بروح صوفية دينية ، أدتها من نزعات الفلاسفة ورجال اللاهوت معاً ، وبهذا تأخى العلم والفلسفة واللاهوت — في القرن العشرين — وشارك الجميع في حياة خلت من الجفاء الذي شغل شطراً كبيراً في القرن الغابر (٢)

(١) النص منقول عن كتاب Science et Religion طبعة فلاماريون ص ١٣١ ، والترجمة لأستاذنا الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرزاق في كتابه « الدين والوحي والإسلام »

ص ٧ - ٨

(٢) واف A. Wolf في رسالة Recent and Contemporary Philosophy (التي ظهرت في كتاب (An Outline of Modern Knowledge (932)) وقد ترجمها الدكتور أبو العلا في أستاذه الفلسفة الإسلامية بجامعة فاروق تحت عنوان « فلسفة المحدثين والمعاصرين » .

إذا كانت الفلسفة قد تأخدت مع اللاهوت ، وتوحدت نزعاتهما في القرن الغابر ، بل انتصر الفلاسفة — أو الكثير منهم للدين وأيدوا تعاليم الكنيسة ، فلا سبيل إل تأريخ نزاع كان قائماً بينهما ، وما دام ميدان العداء قد تحول إلى مجال العلم ، فمن الخير أن نختم هذا البحث بتأريخ هذا النزاع وهو قائم بين اللاهوت والعلم ، وحسبنا من هذا التأريخ لمحة خاطفة تصور فيها أبرز معالم هذا النزاع وأسطق آثاره ، كما تبدو في أظهر الحالات التي شهدها القرن الغابر — ومن الطبيعي أن يتوقف تأريخنا للنزاع بعد ذلك ، لأن القرن العشرين حين أقبل ، كان اللاهوت والفلسفة والعلم على صفاء !

عرة القرن في نزاعه :

ازداد إيمان الناس بشريعة العقل في القرن الغابر ، فظهرت — في ألمانيا بوجه خاص — موجة من النقد العقلي التاريخي ، اجتاحت الرواية الدينية لكثير من الحقائق ، وأنت على الكثير من ترهات رجال الدين ، حتى جنحت ببعضهم إلى محاولة التوفيق بين التعاليم الدينية والآراء العلمية ، وتأويل النصوص المقدسة ، وجعلها متمشية مع منطق الآراء العلمية الحديثة^(١) ! وتضج العلم في هذا القرن ، وكان لهذا أثره البين في إثارة الشك في عصمة الكتاب المقدس ، فازدهر البحث الجيولوجي ، وتقدم الفلك بالتصوير الشمسي ، وظهرت مكتشفات علمية في مجال الطبيعة والرياضة وغيرها ، واهتدى العلماء إلى كثير من المخترعات ، وكان التقدم في ميدان البحث البيولوجي ، أكبر الأخطار التي تهدد لاهوت ذلك القرن ، الذي سمي بحق عصر النشوء والارتقاء ، فلنعرض للحديث عن بعض مظاهر النزاع في هذا

(١) اقرأ تفصيل هذا النقد التاريخي للكتاب المقدس في الفصل السابع من كتاب J. B. Bury السالف الذكر ، وفي القسم الثاني من الفصل الحادي والعشرين من كتاب Robertson السالف كذلك ، واقرأ أيضا Encyclopedia Biblica في مقالات مفرقة في أجزائها الأربعة ثم A. Duff في كتابه (910) Hist. of Old Testament Criticism واقرأ كذلك F. C. Conybeare في كتابه (1910) Hist. of New Testament Criticism

الميدان ، كنموذج للعداء بين العلم واللاهوت في هذه المرحلة من الزمان^(١) ، وسيضطرنا تصوير هذا النزاع إلى الاستطراد منحدرين إلى عصور طويلة سبقت هذا القرن ، ليكون تصوير الجو العقلي أتم وأكمل :

انتصار العلم على اللاهوت في « علوم الكون » :

انعقد الرأي عند رجال اللاهوت المسيحي - من الكاثوليك إلى البروتستانت - على أن الله قد خلق من العدم كل شيء ، أما زمان الخلق ، فقد وردت بصدده روايتان في « سفر التكوين » ، تقرر أولاهما أن الله قد أنجز خلق الكون في ستة أيام ، كل منها نهار وليل ! وقد ورد فيها تفصيل ما تمّ من الخلق في كل يوم ! أما الرواية الثانية فنذكر « اليوم » ، الذي خلق فيه الله الأرض والسموات ، وذهب البعض إلى أن الخلق قد تمّ في لحظة واحدة ، فقد ورد في سفر التكوين « تكلم فخلقت العوالم » . وحاول البعض أن يوفق بين هاتين النظريتين ، فنال إن العالم قد خلق في ستة أيام ، ولكنه تسبّد للوجود فجأة ! وشاع هذا الرأي طوال العصور الوسطى ؛ وانتهى البحث في تحديد تاريخ الخلق ، إلى القول بأنه وقع حوالي سنة ٤٠٠٠ ق . م ، بل أدت أبحاث جون ليفتوت J. Lightfoot وكييل جامعة كمبردج (في القرن السابع عشر) إلى أن الخلق قد وقع بقدره الثالث الأقدس في التاسعة من صباح اليوم الثالث والعشرين من شهر أكتوبر عام ٤٠٠٤ ق . م !!^(٢)

(١) كان جل اعتمادنا في تاريخ النزاع بصدد نظرية (التطور على A. D. White في الباب الأول بفصوله الأربعة من كتابه المؤلف المذكور وهو الفصل الثالث في النسخة العربية وافرأ كذلك : A. W. Benn, The Hist. of English Rationalism in the 19th Century 2 Vols 1902

(٢) من الطريف أن هذا الزعم لم يعض عليه قرنان حتى اهتدى الباحثون إلى أن العالم كان قد عرف في ذلك التاريخ الذي حددوه لخلق العالم نهضة ناضجة على ضفاف النيل ومدنيات أخرى في أرض آسيا ، ولم يكن هذا التاريخ بدءاً لخلق فجئ كما توهم الواهمون . وإذا كان علم طبقات الأرض قد قضى على هذا الزعم فقد بقي القول بوجود آدم وحواء قبل التاريخ ، وهذا ما تصدى للقضاء عليه علم الحيوان كما سنعرف بعد .

والواقع - فيما يقول بيورى - أن الاعتماد على تواريخ الكتاب المقدس ، لا يرجع بخلق الإنسان إلى أبعد من ذلك !

وإلى مثل هذا نزعت المباحث اللاهوتية فى تصوير مادة الخلق ، وتحديد الخالق ونحوه ، وهى أفكار اصطبحت باللون المسيحى ، ولكنها تحدرت عن بعض الأمم الشرقية القديمة ، وإلى جانبها سار رأى لعله شرقى قديم ، وقد عرف عند بعض مفكرى اليونان والرومان ، وهو يؤيد الأسلوب النشوئى فى خلق الكون ، ويرفض القول بالطفرة ، ويرد الكون إلى الأثر التدرجى لفعل النواميس الطبيعية ، وقد استقام أمر هذا الرأى فى العصور الوسطى ، رغم ضيق الكنيسة به ، حتى قوض التصور اللاهوتى للكون ، أساطين العلم الحديث ، من كوبرنيكوس وكبلر وجاليليو ونيوتن ، ممن مهدوا لظهور نظرية التطور الحديثة . وأحست الكنيسة بحجة المحدثين عن التصور اللاهوتى ، فتأهبت لنزالهم ، واتهمت بالهرطقة كل من أيد الرأى السديمى الذى استشهد فى سبيل التمهيد له « برونو » من قبل .

ثم كشف المحدثون من علماء الفلك - من أمثال « هرشل » - كثيراً من البقع السديمية ، ودلوا على أن النظرية السديمية تعلل جانباً كبيراً من حقائق الكون ، وترقى تركيب « المرقب » فاثبت أن البقع السديمية نجيمات متقاربة الأبعاد ، وزاد المكتشفات الأخرى هذا الرأى تأييداً ، وفى منتصف القرن الغابر ، أجرى Plateau تجربة لإثبات الرأى السديمى ، بدوران كرة مائعة ، اعترف بعدها المستر جلادستون - وهو من أقوى المدافعين عن المذهب الدينى ، بأن من المحتمل أن يكون وجه من وجوه الرأى السديمى صحيحاً . . ! وإذا اشتد ضغط العلم برجال اللاهوت وأنقضت أدلته وبياناته ظهورهم ، لجأوا إلى الاستسلام للبق ، بمحاولة التوفيق بين الدين والعلم ، وأذاعوا أن العلم إنما ينصر مذاهب اللاهوت ويوطد قضايها ، ولطالما ظهر هذا الاتجاه كلما اشتدت أزمة اللاهوت ، وبدا انتصار العلم رائداً ، وقد وضع هذا فى فكرة الخلق إبان القرن التاسع عشر ، فنهض بعبء هذا التوفيق عالم من أشهر علماء

الكيمياء في نيويورك ، فألقى محاضرة في هذا الصدد ، تحت رعاية كنيسة من أحدث الكنائس في هذا الوقت ، وقد أذاعوا في الصحف وعلى جدران البيوت في الطرق العامة ، عن هذه المحاضرة التي ترمى إلى البرهنة على تأييد العلم لنظرية والخلق الموسوية كما بدت في الكتب المقدسة ، وقام المحاضر أمام جمع حاشد من المستمعين بإجراء تجارب ، أدخل فيها الأوكسجين والأيدروجين وحامض الكربونيك على طريقة بلاثو ، وكانت التجارب من المهارة بحيث كانت عند نهايتها تثير صياح المستمعين وهتافهم ، وتحرك بالتصفيق أكفهم ؛ ثم نهض أحد أثرياء المدينة ورفع شكر جموع المستمعين إلى هذا العالم الممتاز ، على هذا التدليل الكامل على صحة التطابق التام في المجمل والتفاصيل ، بين تعاليم الكتاب المقدس ، وأحدث نظريات العلم ، . . . وانصرف هذا الجشد من المستمعين شاكر آجود المحاضر ونشاط الكنيسة في تدعيم الدين وخدمة تعاليمه . . . !

وانتهى العلماء آخر الأمر إلى إقرار فكرة النشوء ، والقول بأن الرأي الديني ليس إلا تحريفاً لرأى قديم ، شاع في العصور الأولى عند قدماء الشرقيين ، وأذعن بالتسليم بهذا بعض رجال الدين ، من أمثال أستاذ العبرانيات ، ورئيس د كنيسة كريست ، في أكسفورد ، الموقر الدكتور درايفر Rev. Dr Driver وأستاذ الإلهيات في جامعة كمبردج الموقر الدكتور رايل Rev. Dr. Ryle حتى تساءل رئيس أساقفة كنتربري بهذه المناسبة قائلاً : ألا يجوز أن يكون الروح القدس ، قد استخدم في بعض الأحيان الخرافات والأساطير . . . !

العلم الحديث يهزم الرواية الدينية في نشأة الخلق :

جرى رجال اللاهوت على التمسك بحرفية النص في مسألة الخلق كما ورد في الكتاب المقدس ، بنفس الروح التي حاربوا بها مكتشفات العلم الحديث ، وقد ورد في « سفر التكوين » ، أن الله قد خلق الإنسان على صورته وجمهرة رجال اللاهوت على اتفاق في أن الحيوانات قد خلقت منذ البدء وطبعت على صورتها ، ولم يطرأ عليها تغير أو تطور ؛ فلما اهتدى علماء الحيوان إلى أنواع جديدة منه ، اضطر رجال اللاهوت إلى التدرج معهم ، فكبروا سفينة نوح تكبيراً يتناسب طردياً

مع المكتشف من هذه الأنواع ليتحاموا القول بأنها نشأت بعد الطوفان ١٠٠. وقد أدى الكشف الجغرافي إلى معرفة عشرات الأنواع من الحيوانات وأفضى إلى الدهشة من توزيع هذه الأنواع على بقاع الأرض ، فاضطر رجال اللاهوت إلى التفكير في الطريقة التي تم بها هذا التوزيع ، بعد أن كانت الأنواع كلها مجتمعة في سفينة نوح ! فزعم البعض أن الإنسان هو الذي وزعها على هذا النحو ، بدافع الرغبة في الانتفاع بها ، أو بدافع الميل إلى التسلي ! ورأى غيرهم أن هذا التوزيع قد تم بهجرة الحيوانات نفسها ، ولكن خصوم اللاهوت قد عجبوا لهذا الإنسان الذي حمل معه في سفينة نوح الدببة والأساد والنمور ! ودهشوا للحيوانات الثقيلة ، كيف هاجرت من أارات - التي رست فيها سفينة نوح - إلى بقاع قاصية . . ؟ وكيف وصلت إلى أمريكا الحيوانات التي لا تعرف السباحة أو الطيران ؟ وتساءلوا لماذا وجد القنغر في استراليا وحدها ، وكيف بلغ هذه القارة بقفزاته على الجبال والوديان وعبر المحيطات ! ولماذا استقر فيها دون غيرها ؟ وتأيد هذا كله بظهور منهج البحث التجريبي منذ مطلع العصر الحديث وقيام الجمعيات العلمية التي أثبت أن تستقي الحقائق من سلطة دينية أو غير دينية ، ونزعت إلى اكتشافها في ضوء هذا المنهج الجديد ، وتقوضت النظرية اللاهوتية نهائياً في نهاية القرن الثامن عشر ، ولكن بعض رجال اللاهوت قد أقاموا على الرأي القديم وأنذروا خصومهم بشر مستطير

اثبات الأنواع ومهمات العلم الحديث لتقويضه :

ظهرت فكرة الخلق على النحو الذي أسلفناه عند رجال اللاهوت ، قالوا بنبات الأنواع ، أي أن أنواع الحيوانات قد لازمت صورها التي نشأت عليها منذ الخلق ، ومنذ أن فارقت سفينة نوح بعد الطوفان ، ولكن هذه الفكرة قد سايرتها فكرة قديمة أخرى ، تقدر أن الكائنات الحية قد نشأت على نحو وتغاير وتطور مضطرب ، ومرد الفكرتين إلى تراث الشرق القديم الذي انتقل إلى العبرانيين ، وبدا في السكتب المقدسة ، وقد قرر دى ميليه Benoist De

Maillet في مستهل القرن الثامن عشر تحوّل الأنواع عن طريق التغير الذي يعترى أعضائها ، فضاقت الكنيسة برأيه ، واهتمته بالإلحاد ، فحاول اتقاء شرها بنشر كتابه تحت اسم مستعار ، وبلغ الحديث في المقدمة والإهداء ، بحيث يستطيع ، إذا قدم للحاكمه ، أن يدعى أن الكتاب ليس إلا مجرد لهو خيالي (١) .

وفي النصف الثاني من هذا القرن ظهر أبو علم النبات الحديث « لينوس » ، Linnaeus ١٧٧٨ + وانتهى في أواخر حياته إلى معارضة الرأي اللاهوتي في ثبات الأنواع . ولكنه خاف غضب خصومه من رجال اللاهوت ، من الكاثوليك والبروتستانت على السواء ، بيد أنه اعتصم بالشجاعة وجاهر بالنظام التاسلي في النباتات ، فاذا برجال اللاهوت الذين كانوا لا يتورعون عن الثناء على الفجرة من أمثال لويس الخامس عشر ، ويعلمون رجال الكهنوت علاقة الرجل بالمرأة من الناحية الجنسية ، يفزعون لآراء هذا العلامة ، ويحرمون إذاعتها حتى عام ١٧٧٣ ، في كل بلد امتد إليه سلطانهم ! حتى اضطر « لينوس » ، إزاء حملاتهم إلى الاستكانة والتظاهر بأنه ينتصر لرأيهم القائل بأن الله خلق الأشياء في البدء ، ومنذ هذا البدء لم تظهر البتة أنواع جديدة أو بعد هذا ذهب العلامة الفرنسي « بوفون » Buffon إلى القول بنظرية التطور بتغاير الأنواع ، فأثار هذا ضيق رجال السربون ، فاضطر أن يستجيب للكنيسة ويعلن اعتذاره عما قال علناً ومطبوعاً على الناس . وفي هذا يقول :
أعلن أني أتخلى عن كل آرائ التي وردت في كتابي بصدد تكوين الأرض ، وأقلع بوجه عام عن كل ما كان منها منافياً لرواية موسى ! (٢)

(١) فأعلن أن الكتاب حديث فيلسوف اهتدى ، موجه إلى مبشر مسيحي ، وجعل فيلسوفه الهندي يصرح بأن أيام الخلق في سفر التكوين قد تكون عصوراً طويلة من الزمن ، وكان هذا مما لا يرضى عنه رجال اللاهوت ، ولهذا طبع الكتاب عام ١٧٣٥ ولم يفسر إلا في عام ١٧٤٨ أي بعد وفاة مؤلفه بثلاثة أعوام !

(٢) أنظر فيما ورد عن دي ميليه : كتاب Quatrefages وهو Darwin et ses Précurseurs Français وكذلك الفصل السادس من كتاب Perrier وهو La Philos. Zoologique avant Darwin ثم المقال الشائق الذي كتبه Huxley في دائرة المعارف =

على الإيمان بما ورد في الكتاب المقدس عن أسباب التكوين .. !
وفي مطلع القرن التاسع عشر ، ظهر « تريفيرانوس » ، Treviranus في ألمانيا ، ولامارك Lamarck في فرنسا ، فأصدر أولها كتابه « علم الحياة » ، ١٨٠٢ وقرر فيه أن العضوبات الراقية قد تطورت بالتدرج عن أخرى بسيطة ، وأن انقراض الأنواع ليس إلا تحوُّلاً إلى أنواع أخرى ، ثم نشر « لامارك » كتابه : « الأبحاث » ، و« فلسفة الحيوان » ، أضاف فيهما إلى ذلك الرأي ، القول بأن الحيوان نفسه يسعى جاداً ليتطور حتى يسد ما يظهر في بيئته من حاجات جديدة ، وأن الأعضاء تنمو أطردياً مع استعمالها ، وأن الصفات المكتسبة تنحدر إلى الأبناء عن آبائهم ، وقد انحدرت هذه الآراء إلى أعلام العلم الطبيعي من أمثال سانت هيلير G. Ssint - Hilaire

نظريّة التطور عند والاس ودارون :

ولبتت المعركة محتدمة بين من أيدوا نظرية النشوء ومن عارضوها ، والكنيسة مطمئنة لنفوذها في العالم الأوربي ، حتى أقبل شهر يوليو من عام ١٨٥٨ حين قرئت أمام جماعة لينوس Linnaen Society بلندن مقالتان ، وضع أولاهما تشارلس دارون Ch. Darwin وكتب الثانية ؟ ا . ر . والاس Alfred Russel Wallace وبقراءة هاتين المقالتين ، انشأت نظرية النشوء بالانتخاب الطبيعي ، وانبثقت ثغرة في حصن اللاهوت ..

لبث دارون نحو عشرين عاماً يدرس في هدوء ، ويجمع مشاهداته في صمت ، يجمع مادته من فضاء الأرض وأعماق البحار ، وحمم البراكين وقنن الجبال وبطون الغابات ، ويتنقل من الأقطار الاستوائية إلى البقاع المتجمدة ، ويستنطق الطبيعة ويستلمهم سرها ؛ حتى اهتدى إلى فكرة النشوء بالانتخاب الطبيعي ،

== البريطانية عن مادة التطور ؛ أما كتاب دي ميليه فقد كان عنوانه :

Telliamid, ou Entretiens d'un philosophe indien a vec un Missionnaire frauca
aur la Diminuitin de la Mer, 174 88 & 56. أما عن مقاومة السلطات اللاهوتية
كاثوليكية وبروتستانتية — لرأى « لينوس » ، فانظر Alberg Life of Linneaus
(لندن ١٨٨٨) ص ١٤٣ — ٤٧ و ٢٧٣ .

لم يبيح بسرّه طوال هذا الزمن المديد لغير الدكتور يوسف هوكر عام ١٨٤٤ ، بعد أربعة عشر عاماً ، ثم تلقى من ألفرد والاس رسالة أدرك منها أنه قد اهتمى بعد البحث والتنقيب إلى مثل ما اهتمى إليه دارون بصدد فكرة النشوء بالانتخاب الطبيعي ويسجل دارون في أمانة العالم التزيه هذه الظاهرة في مطلع كتابه عن أصل الانواع ، فيقول إن والاس قد اهتمى مستقلاً إلى النتائج العامة التي اهتمى إليها دارون — دارون — من قبل ١١ وأجاب دارون مطلب والاس ، وأذاع مذكرته التي أرسلت إليه أمام منتدى لينوس على ما عرفنا — وكان هذا وفاء للصدقه وللعلم معاً .

وفي العام التالي أصدر الجزء الأول من كتابه «أصل الانواع The Origin of Species» وفيه ردّ النشوء الآلى إلى التنازع على البقاء Struggle for existence وبقاء الأصاح Survival of The fittest وعامل الوراثة، وكانت هذه النتائج ثمرة عقل جبار أقام على البحث ثلاثين عاماً ، واستطار نبأ هذا الكتاب فأعيد طبعه مراراً ، ونقل إلى كثير من اللغات (١) وشاعت آراؤه في العالم طولاً وعرضاً ، وفشتت في الدوائر العلمية يميناً ويساراً ، ونشط البحث في الأحياء في شتى الدول ، فتصدى لمقاومة هذا التيار الجارف رجال اللاهوت ، ومن جرى مجراه من أساطين العلماء ، ممن كانوا يهابون السلطة الدينية ويخشون بطشها ، أو لا يجرءون على التصريح بمعاداة الكنيسة ، أو تخالط نفوسهم ميول دينية واضحة — ويمثل هذه التيارات على الترتيب : لينوس وكوفيه وأجاسير .

المحموت على دارون في شتى بقاع العالم المسيحي :

كان مثل كتاب دارون في «أصل الأنواع» ، إزاء عالم اللاهوت ، كمثل محراث صادف قرية من قرى النمل فشتت جموعها وأحال هدوءها فرقا وفرعاً ! إذ هب النيام في العالم المسيحي وقد أفزتهم هذا النذير ، وأطار النوم من عيونهم ، وأشاع الضيق في نفوسهم ، وأثار الغضب في رؤوسهم ، فأجمعوا أمرهم على محاربة هذا المفكر الجديد ، وحشدوا لتقويض مذهبه جهودهم ، مقالات تجري

(١) نقل إلى العربية الأستاذ اسماعيل مظهر بعض أجزاءه تحت عنوان «أصل الأنواع»

في أنهر المجلات ، ومواعظ ترسل من المنابر ، وكتبا تترى ثقيلة وخفيفة ، وكلها تتآزر على الجهاد في سبيل الله ، وقد شرع في قيادة هذه الحملة : أسقف «ولبرفورس» Wilberforce في المجلة الربعية Quarterly Rivrew فأعلن أن دارون قد أجرم «بنزوعه إلى تحديد مجد الله في فعل الخلق ، وأن «مبدأ الانتخاب الطبيعي» Natural Selection يتعارض مع كلمة الله كل انتعاض ، «لأنه يناقض العلاقة بين الخليقة وخالقها كما قررها الوحي ، وأنه غير متسق مع كمال المجد الإلهي . . . إلى آخر ما ورد في حملته . . . وعندما انعقد المجمع البريطاني لتقدم العلم British Association for the Advancement of Science نهض هـذا الأسقف للكلام وأشار إلى آراء دارون الذي اضطره مرضه للتغيب عن هذا الاجتماع ، وأعلن الأسقف على الملأ أنه يشعر بالغبطة لأنه لم ينحدر عن جدمن القرودة . . . فنهض هكسلي Huxlay للرد عليه ، وقال ماخواه «لو خُيرت ، لآثرت أن أكون من سلالة قرد وضيع ، على أن أكون ابن رجل من البشر يسخر علمه وفصاحته ، في الإساءة إلى أولئك الذين يقضون حياتهم في خدمة البحث عن الحقيقة . . . ، وقد دوى هذا الصوت في انجلترا وتردد صدها في غيرها من البلاد .

إذا كان هذا قد وقع في الكنيسة الأنجليكانية ، فقد تردد صدها عند قادة الكنيسة الكاثوليكية في انجلترا ، فقد ألقى الكردينال ماننج Manning خطابا أمام أعضاء الأكاديمية ، التي نشأت لمحاربة ما يسمونه «العلم» ، فأعلن مقته للذهب الجديد في الطبيعة ! ووصفه بأنه «فلسفة وحشية - تقرر عدم وجود إله ، وتصرح بأن القرد أبونا آدم ، وسار في تيار هذا الركب معهد بروستاتى كان قد نشأ لمحاربة العلوم الضارة ، فأعلن نائب رئيسه أن مذهب دارون «محاولة يراد بها إنزال الله عن عرشه !» وصرح ناقد آخر بأن هذا المذهب يوعز إلى الناس «أن الله قد مات !» وقال ثقة من رجال اللاهوت : إذا صح مذهب دارون ، كذب سفر التكوين ، وتحطم كيان الحياة ، وكان وحي الله

إلى الإنسان - كما يعرفه المسيحيون - هذيانا وأحبولة :
وتردد الصدى في أمريكا ، فأعلنت مجلة من أوسع مجالات الطوائف
الدينية انتشارا ، أن دارون قد حاول أن يزيد المسألة تعقيدا ، وصرحت
مجلة ثانية بأن مذهبه « خيانة ! » وراحت مجلة ثالثة تمثل فرع الكنيسة
الأنجليكانية في أمريكا ، تصب احتقارها على دارون ، وتقول إن مذهبه
« سفسطة مجردة عن كل منطق ! » وأخذت غيرها تبرهن على أن المذهب
يناقض النصوص التي وردت في العهدين القديم والجديد !..

واقترح رجال اللاهوت في استراليا هذه المعمعة ، فصرح الدكتور برى
Perry كبير أساقفة ملبورن ، في كتاب عنيف عن « العلم والإنجيل » بأن
الغرض الواضح الذي قصد إليه شامبرز Chambers ودارون وهكسلي ،
هو أن « يغرسوا في نفوس قرائهم الكفر بالإنجيل !.. »

ومن وراء هذا الملحمة ، وقفت أفرع الكنيسة القديمة ، فصرح بايما
Bayma في « العالم الكاثوليكي » بأن من حقنا أن نعتقد بأن دارون يردد
أقوال أولئك الملاحدة الذين لا هدف لهم إلا أن يجتاحوا كل فكرة
عن وجود الله !

وما يبين عن اتجاه رجال اللاهوت في هذا العصر ، تضافرهم على إنشاء
مؤسسات لمحاربة الأفكار الجديدة ، ومن أظهر هذه المؤسسات « الأكاديمية
التي دعا إليها الكردينال ويزمان Wiseman وقد أذاع رسالة دورية ، أُنذر
فيها الناس بالخطر الزاحف ، وختمها بقوله : والآن يصبح من واجب الكنيسة
التي تحظى وحدها بالثقة الإلهية ، أن تقوم على رأس حركة تهدف إلى مقاومة
كل ما يهدد المعتقد المسيحي في إنجلترا ، وقد باركت روما هذه الحركة وأذنت
بانشاء هذه الأكاديمية !.. »

وفي المعسكرات البروتستانتية ظهرت مثل هذه الحركة ، فنشأ « المعهد
الفكنورى » وكان أكبر أعماله خطراً ، نداء لنائب رئيسه الموقر والترمتشل

Rev. Walter Mitchell الذي صرح بأن « مذهب دارون يحاول أن ينزل الله عن عرشه! »^(١)

وفي فرنسا كانت الحملة على عنف ميرر ، فكر بعضهم ما قيل من أن كل نظرية تخالف نظرية ثبات الأنواع ، تتنافى مع النصوص المقدسة ، أما « ديسورج ، Désorges وهو أستاذ سابق لعلم اللاهوت ، فقد اتهم دارون بأنه « مغرور ، أما المونسنيير سيجور Sègor فقد أشار إلى دارون وأتباعه وقال في مس هستيري : إن هذه المذاهب الممقوتة ، لا تؤيدها إلا أخط الأهواء ، فأبوها الكبر وأما القذارة أقبلت من جهنم وإليها المعاد ، ومعها أنصارها المجردون من كل حياء !

وفي ألمانيا كانت الحملة أقل إسفافاً ، وأعظم عنفاً ، إذ تضافر الكاثوليك والبروتستانت على مقاومة المذهب الجديد ، فأعلن الدكتور ميشيلس Dr. Michelis أن نظرية دارون « صورة تخطيطية — كاريكاتورية — للخليفة ، وصرح الدكتور هجرمان Dr. Hagermann بأنها قذفت بالله خارج الأبواب ، وأصر الدكتور شند Dr. Schund على أن الكتب المقدسة في كل صفحة من صفحاتها تناقض مذهب دارون كل التناقض ، ودعا روجنت

(١) اقرأ مقال ولبرفورس في « كوارترلي ريفيو » عدد يولييه ١٨٦٠ ، وأماردهمكسلي فقد ورد في مجلة ، Quartrefages وفي « حياة دارون ورسائله » Life & Letters of Darwin رواية مختلفة بعض الاختلاف ، وعن حملة الكردينال مانج أنظر Essays on Religion & Literature (London 1865) ؛ وعن مقالات المجلات : أنظر مجلة لكوارترلي السافة المذكور عدد يولييه ١٨٧٤ ومجلة North British Review, May 1860 وكذلك Addresses of Rev. Walter Michell before the Victorian Institute ١٨٦٧ وغيرها — أما عن حملات أمريكا فانظر Methodist Quarterly Review عدد أبريل ١٨٧١ وكذلك The American Church Rview عدد يولييه واكتوبر ١٨٦٥ ويابر ١٨٦٦ وعن حملات استراليا ، أنظر كتاب الموقر تشاراس پرى Rev. Ch Perry عن Science & Bible لندن ١٨٦٩ وعن بايما أنظر الجزء السادس والعشرين من Catholic World ص ٧٨٢ ، وعن الاكاديمية أنظر Essays التي نشرها الكردينال مانج وقد ورد ذكرها من قبل . وغير هذا مما اعتمد عليه الأستاذ « هوابت » .

Rougement في سويسرا إلى القيام بحرب صليبية لمقاومة هذا المذهب الفاسد... إلى آخر ما قيل في هذا الصدد.

وفي عام ١٨٦٣ أثار الاضطراب في معسكر اللاهوتيين، تأييد «تشارلس ليل» Sir Ch. Lyell لنظرية دارون - مع صدق عاطفته الدينية وحرصه على الحيلة والحذر، ومعارضته لنظرية التطور عند لامارك، واتصاره لفكرة الخلق المتعاقب! ووضح تأييد «ليل» - وهو أكبر جيولوجي في عصره - لمذهب دارون في كتاباته، ولا سيما «قدم الإنسان»، وكانت هذه لطمة عنيفة أنقضت ظهر اللاهوت.

وسار في الركب «هكسلي»، فنشر في ذلك الوقت كتابه «مكان الإنسان من الطبيعة»، الذي زوّد نظرية التطور بالانتخاب الطبيعي بأدلة جديدة.

وكانت اللطمة الثانية التي أنارت فزع رجال اللاهوت، صدور كتاب دارون «تسلسل الانسان»، عام ١٨٧١ Descent of man، ومع أن هذا الكتاب كان تردداً لما قاله النقاد من قبل، فإن أثره كان مروعا، فنهضت «مجلة جامعة دبلن» لمقاومة هذا التيار، وأحيت الاتهام القديم بأن دارون يحاول إنزال الله عن عرشه! وتصدى طبيب فرنسي كاثوليكي ذائع الصيت «هو قسطنطين جسم»، للرد على دارون، فنشر كتابه في باريس «مذهب دارون أو الإنسان القردى»، عام ١٨٧٧ وفيه صب احتقاره على كتاب دارون ووصفه بأنه «قصة خيالية»، وضحكة كبرى... إلى آخر هذه الأوصاف، من غير أن يعرض لنقد الكتاب ودحض آرائه علياً؛ ولكن رجال اللاهوت قد أسكرهم الرضا بهذا الكتاب، فصرح الكردينال أسقف باريس للبروفيسور بأن كتابه قد أضحي مقرآته الروحانية! وأشار عليه بإهداء نسخة إلى البابا بيوس التاسع، وطرب البابا لهذا الكتاب لأن مؤلفه قد استطاع في لباقة محمودة أن يدحض ضلال المذهب الجديد! والرأى عنده أن هذا المذهب يتنافى مع التاريخ وتقاليد كافة الشعوب والعلم الصحيح

والحقائق المشاهدة ، بل يتنافى مع شريعة العقل نفسها ، فهو مذهب يقوم على غير أساس ، ولو استقامت الأمور ما كان هناك ما يدعو إلى محاولة نقضه ، ولكن الميل إلى الإلحاد والنزوع إلى المادية ، ينجح بأهله إلى الاستعانة بمثل هذه الآراء الخرافية ، إن الكفر قد حمل أصحابه على رفض الإيمان بالله ، خالق الأشياء جميعاً وإعلان استقلال الإنسان بنفسه ، بحيث يكون سيد نفسه وكاهن نفسه وإله نفسه ، ومضى هذا الغرور بأهله حتى أنزلهم منزلة السوائم التي تجردت عن العقل ، بل منزلة الجماد الميت ! فأكد هذا الغرور على غير وعي منه القول اللاهوتي : أنى وجد الغرور وجدت الوقاحة ! ولكن مثل هذه الأوهام ينبغي دحضها ، وما دام أهلها يلقون بها في ثياب العلم الصحيح ، فليكن دحضها بالعلم الصحيح . وبارك البابا بعد هذا جهود المؤلف في عصر أحوج ما يكون إلى مثل هذه الجهود ، ومنحه البركة المستمدة من الرسل ، وخلع عليه رتبة القديس سلفستر البابوية ! وأشار أسقف باريس السالف الذكر ، على المؤلف أن يعنى في الطبعة التالية لكتابه ببيان العلاقة بين قصص سفر التكوين ومكتشفات العلم الحديث لإقناع الملحدين بالتطابق التام بينهما : واطلع هذا الكرينال على تجارب الطبعة الثانية التي ظهرت عام ١٨٨٢ بعنوان « موسى ودارون ، إنسان سفر التكوين مقارناً بالإنسان القردي ، أو التعليم الديني مقارناً بالتعليم الإلحادي ، وأسکر النصر هذا الكرينال فعانق المؤلف باسم الدين والعلم معاً . . . !

وإلى مثل هذا التطرف ذهب قادة البروتستانتية في إنجلترا ، فالمستر جلاستون في خطاب ألقاه في ليفربول يقول : بقواعد نظرية التطور ، يتخلص الخالق من متاعب الخلق ! وباسم القوانين الثابتة أفلت منه حكم الدنيا ! وإن كان قد تراجع عن هذا الرأي حين نبهه هربرت سبنسر إلى أن نيوتن يتعرض لهذا الاتهام بنظريته في الجاذبية وآرائه في علم الفلك ، وأعلن الموقر دكتور كولز Rev Dr. Colls في British & Foreign Evangelical Review.

أن إله التطور ليس هو إياه المسيحية ، ونشرت جمعية تقدم المعارف المسيحية Society for Promoting Christian Knowledge كتاباً وضعه المستر بيركس أعلن فيه أن نظرية التطور تناقض العقيدة الأساسية في الخلق كل التناقض ؛ وإلى مثل هذا ذهب سائر خصوم هذه النظرية !

انتصار النظرية الجبريدة متى في المعسكرات الربنية :

وفي عباب هذه الحملات ، أخذ يفيق بعض عقلاء رجال اللاهوت ، ويشفقون على الكنيسة من موقف التاريخ منها ، إذا ثبتت نظرية دارون ! إنها لا تزال تنوء بعبء موقفها من نظرية دوران الأرض ، والتنكيل بدعاتها إلى الأمس القريب ! أليس من الخير أن يترث رجال اللاهوت في حملاتهم ، وأن يجعلوا لشريعة العقل مكاناً في مهاجمة هذا المذهب الجديد ! هذه روح جديدة بدت طلائعها في أمريكا ، فصرح الدكتور « نوح بورثو » رئيس كلية « ييل » Yale بتدريس نظرية التطور في جامعته مع اعتقاده بعدم صحتها ! بل صرح بأنه لا يجد تنافياً بين هذه النظرية والنصوص المقدسة . . !

وعلى كذب من كلية « ييل » يقوم المتحف البالتولوجي Museum of Paleontology وفيه حاول الأستاذ « مارش » أن يثبت تطور الحصان منذ أقدم عصور التاريخ حين كان حجمه لا يزيد على حجم الثعالب ، وله خمسة أصابع حتى وصل إلى حالته الراهنة حجاً وشكلاً ، وهذه الحلقات التي تتابعت في سلسلة هذا التطور ، قد اتخذها « هكسلي » دليلاً قاطعاً على قيام الانتخاب الطبيعي عاملاً في إحداث النشوء ، على أن هذا لم يوقف تيار النزاع الذي حمله رجال اللاهوت على جناح العنف البالغ ، فالموقر الدكتور هودثي في جامعة برنستون أعلن أن نظرية دارون تناقض نص الكتاب المقدس ، وأن ليس إلهاً من غاب عن خلق الكون ، وأن إنكار القصد في فكرة الخلق إنزال لله عن عرشه ، وإنكاره في الطبيعة كفران بالله ، وأن من يؤمن بالغائبة

في الخلق لا يستطيع أن يكون من أتباع دارون ، وتابع غيره في جامعة برنستون هذه الحملة . . .

ولكن هذه الجامعة « برنستون » Princeton قد تولى رأسها الموقر الدكتور جيمس ماكوش Mc Coch فهاض هذه الحملة الظالمة ، معلناً أنها خطر على المسيحية نفسها ، وأعلن في خطاب له أن أخطر شيء يهدد المسيحية في هذه الجامعة ، أن يتكرر القول على مسمع من الطلاب أسبوعاً بعد أسبوع بأن نظرية التطور بالانتخاب الطبيعي ، أو التطور بوجه عام ، إن صححت ثبت بطلان الكتب المقدسة ، ومن رأيه أن هذه هي آكد الطرق في إحالة الطلبة ملحدين لايؤمنون بشيء ، ومن أجل هذا منع قيام التبشير بهذا الهذر ، ودعا إلى التبشير بالنظرية الجديدة ، وكان عهده بدء التوفيق بين القنيتين ، مع ما ناله من معسكرات الخصوم . وسرعان ما ظهر من بين رجال اللاهوت من جهر بالقول بأن في إمكان الإنسان أن يجمع بين الإيمان بالمسيحية والاعتقاد في مذهب دارون .

ولكن هذا النزوع الجديد ، قد لقي من خصومه عنقاً ، ففي عام ١٨٧٣ ظهرت مجلة الدين الشهرية في يوسطن Monthly Religion Magazine تحمل تهايبها إلى قرائها بجهود الدكتور « بير » في تقويض نظرية التطور والإجهاز عليها وإلقائها إلى الكلاب ! وتابع هذه الحملة في واشنطن مجلس « المتوديزم » — وهو مذهب شيعة بروتستانتية .

ولكن رواد العلم الحديث قد غنضوا الطرف عن حملات خصومهم من رجال اللاهوت ، وأرسلوا بيناتهم تترى مؤكدة صحة المذهب الجديد ، فأثارت الفزع والقلق في معسكرات الرجعيين ، والتمسوا الخلاص من ضغط هذا الخطر الذي يتقدم نحوهم زاحفاً في يقين وثبات ، ونزع بعضهم إلى التوفيق بين النظريتين هرباً من مقاومة التيار الجديد ، وبدأت طلائع هذه الحركة الجديدة بين رجال الكنيسة في إنجلترا وأمريكا معاً ، فالجامعات الإنجليزية قد أذعنت

للتسليم بالنظرية الجديدة ، ففي أكسفورد أعلنوا في اجتماع لحزب الكنيسة العليا في كلية « كيبيل » Keble College أن نظرية التطور « تقدم في سبيل تفكيرنا اللاهوتي » ،

ومن معسكر الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، ارتفع صوت ينادى بأن العقيدة الكاثوليكية لا تمنع أحداً من أتباعها من التسليم بنظرية دارون ، وأعلن ثقة من الكاثوليك في أمريكا أن نظرية التطور لا تتعارض مع عقيدة الكنيسة الكاثوليكية بأكثر مما تتعارض نظرية دوران الأرض !

موقف العالم المسيحي من دارون بهر محامته :

ومات الرجل الذي أثار العالم المسيحي ، وأيقظ علماءه ورجال اللاهوت في شتى نواحيه ، مات دارون فكان مثواه في دير وستمنستر إلى جوار القبر الذي ثوى فيه إسحاق نيوتن ، ورثاه الأسقف « فارار » Farar بخطاب نبيل تردد صدهاء على أعواد المنابر في أوروبا وأمريكا ؛ ولكن دوائر الرجعيين ما زالت قلقة تتابع حملاتها بين الحين والحين ، فن ذلك قول الدكتور « لانج » Rev. Dr. Laing إن دفن دارون في وستمنستر ، يشهد بأن إنجلترا لم تصبح بعد أمة مسيحية ! وتردد الصدى في اسكتلندا وأمريكا معا !

ولكن الكنيسة الإنجليزية قد قاومت هذا العدوان الآثم ، ووقف رئيس أساقفة وستمنستر « فارار » ، فاعترف بأنه لا يجد في نفسه القدرة على التسليم بالرأى العلى الحديث ، ولكنه مما يشين الكرامة « أن تكون محاولة زعزعة المذهب الجديد قائمة على الحجج الخطائية ، وإثارة الحماسة في نفوس الجملة والدهماء ، ممن يمتنون العلم وأهله !

وفي كلية ترنتي بكمبردج ، نرى « هوويل » Whewell الحكيم الكلى الحكمة وواضع كتاب « تاريخ العلوم الاستقرائية » ، يرفض الإذن بوجود نسخة من كتاب أصل الأنواع في المكتبة ، وفي الكثير من المعاهد التي تخضع لرقابة رجال اللاهوت من البروتستانت والكاثوليك على السواء —

وجدت محاولات ترمى إلى حظر التعاليم النشوئية أو تحقيرها ، ولعلنا لا نزال نذكر الكلية الأمريكية في بيروت ، ونذكر كيف طردت الشبان من أساتذتها بحجة اعتناقهم لنظرية دارون ! ومثل هذا نراه في جامعة Vanderbirt في تينيسى ، حين أقصت الدكتور ونشل Winchell من أجل هذا السبب نفسه ١٠٠ . وأطرف من هذا قصة الدكتور « ودرو » Woodrow فقد عُين في عام ١٨٥٧ أستاذاً للعلم الطبيعي من حيث صلته بالدين المنزل بالمعهد المشيخي في كولومبيا ، وقد أداه البحث والنظر إلى اعتناق نظرية التطور ، فلم يغفر له ما عرف عنه من إخلاص للدين ووفاء لتعاليمه ، ثار في وجهه الكثيرون من رجال اللاهوت ، وأدت ثورتهم إلى إقصائه عن منصبه . ! وفي أسبانيا الكاثوليكية تردد الصدى ، فنشر الدكتور مارانجو Chily Marango عام ١٨٧٨ كتاباً عن جزر الكاناري ، وضمن مقدمته الفروض الحديثة في نظرية التطور ، وأيدها بأدلة استقماها مما عرفه عن الإنسان البدائي في جزر الكاناري ، فأثار هذا ضيق السلطات الإكليريكية ، وسرعان ما صدرت الأوامر بمصادرة الكتاب ، وياكره القراء على رد جميع نسخه المتداولة في أيديهم ! أما عن مؤلف الكتاب فقد صدر ضده قرار بالحرمان (١) .

(١) ومن أجل الآراء العلمية الحديثة ، وبسبب نقد الكتاب المقدس . وقع مثل هذا الاضطهاد في قرنتا الغابر ، فالأستاذ شتراوس David Strauss عزل من منصب الأستاذية في Tübingen وتحطم مستقبله من أجل كتابه « حياة يسوع » ١٨٣٥ م وقد رفض فيه رفضاً باتاً أن يعترف بشئ خارق للطبيعة ، ومن أجل هذا السبب نفسه ، كما بدأ في كتاب « رنان » Renan « حياة يسوع المسيح » فقد « رنان » كرسيه في كلية فرنسا — كولييج دي فرانس — وطُرد بجنر Buchner المادى عام ١٨٥٥ من طوبنجن السالفة الذكر ، من أجل كتابه « القوة والمادة » الذى أبان فيه للناس تفاعلة تفسير الكون تفسيراً لا يتمشى مع قوانين الطبيعة ؛ وقد سعى البعض لطرد « هيكلم » Haeckel من جامعة يينا Jena ، بل عوقب في عام ١٩٠٧ القس لوازى Loisy — وهو فرنسى كاثوليكى — بالحرمان الأكبر ، لأنه مساهم مساهمة مثيرة في دراسة الكتاب المقدس ، وإخضاع مبادئه في فكرة التطور مع العلم ! وقد حظر الكهان قراءة كتاب بادن باول Baden Pawell « دراسة في حجج المسيحية » لأنه أنكر المعجزات ، وآمن بنظرية التطور ؛ وفي عام ١٨٦٢ =

ولكن القافلة كانت تمضي في طريقها قدماً ، لا تثقل رجلها ولا تقف التماساً لمرضاة الساخطين عليها ، وسارت في الركب كثرة من الجامعات في العالم القديم والحديث ، وانطلق المستنيرون من رجال الكنيسة إلى محاولة التوفيق بين الرواية الدينية ، والمذهب العلمى الحديث ، ففي كنيسة «روتشدايل» Rochdale صرح الموقر الدكتور «ولسون» رئيس أساقفة مانشيستر ، بإذاعاته للنسليم بصحة المذهب المغرى الذى بشر به دارون ، وحاول أن يربطه في لباقة بوجهة النظر الدينية ، وقد تكفلت بنشر هذه الكلمة جمعية تقدم المعارف المسيحية ، وهى التى كانت إلى الأمس القريب تقوم بشر أعنف الحملات الموجهة إلى النظرية الجديدة ! وإلى مثل هذا الاتجاه الجديد ، ذهبت الحملات الدينية ، وأفسح اللاهوت الطريق لموكب العلم الحديث (١) .

== قدم للمحاكمة من أجل المساهمة في هذا الكتاب اثنان يبيع منصبهما محامتهما ، وأدانتهم المحكمة الإكليريكية في أمور ، وقضت ببراءتهما في أخرى ، فصدر أمر بإيقافهما عاما كاملا . وإن جاء استئناف الحكم في صالحهما — كما ستعرف بعد — ومثل هذه الاضطهادات كان وقوعها كثيرا . أما عن الحرمان فقد فسرناه في كتابنا « قصة الاضطهاد الدينى »

(١) كان هوايت عمدتنا في تأريخ هذا النزاع ، ولكن لا بأس من أن تزود اقرأء بمجلة مصادر تناولت هذا الموضوع في إسهاب : أنظر في عداء الولايات المتحدة لنظرية التطور Systematic Theology (نيويورك ١٨٧٢ في الجزء الثانى من القسم الثانى) وكذلك كتابه Systematic Theology (نيويورك ١٨٧٤ Dr Ch. Hodge, What is Darwinism) وفي مجلة كوارترلى الأمريكية الكاثوليكية عدد أكتوبر عام ١٨٧٧ مقال عن « المذهب الوضعى ونظرية التطور » وفي نفس العدد مقال للموقر A. M. Kirsh عن « الأستاذ هكسلى والتطور » وفي عدد يولية ١٨٧٩ مقال للأستاذ ماك سوينى Mc. Sweeny عن « منطق التطور » وفي عدد يناير ١٨٧٨ مقال لجون دوفيل عن « نظرية التطور لإزاء الإنسان والإنجيل » وفي مايو ١٨٨٦ « محاضرة عن التطور قبل القرن التاسع عشر » وقرأ كذلك مجلة الدين الشهرية المشار إليها في صلب المصلاام عدد مايو ١٨٧٣ وكذلك مقال « التطور وعدمه » في مجله New York Weekly Sun في عدد أكتوبر ١٨٨٨ — أما فيما يتصل بالملطات الأسبانية فقرأ Revue d'Anthropologie عدد أبريل والمجلد التاسع عشر من العالم الكاثوليكي ص ٤٣٣ وعدد مايو ١٧٧٤ من Curch Journal وفي تفصلى اضطهاد الدكتور « وتشل » و « ودرو » وأساتذة جامعة بيرو — اقرأ المصادر السالفة والفصل الذى عقده أندرو دكسون هوايت A. D. White ==

تأييد رجال الموهوت لحرية التفكير :

فاذا تجاوزنا المعارك التي أثير عثورها من أجل نظرية التطور ، لاحظنا أن القافلة كانت إبان ذلك القرن تمضي في طريقها قدما ، وقد أثرت حتى في المعسكرات الكهنسية نفسها ! فمن ذلك ظهور حركة في الكنيسة الكاثوليكية تعرف بالحركة العصرية أو التجديدية Modernism وهي قيا يقول البعض ، أخطر أزمة مرت بالكنيسة الكاثوليكية منذ القرن الثالث عشر ، والمعروف أن أتباعها لا يؤلفون حزبا ولا يلتزمون برنامجا ، وأنهم مخلصون للكنيسة وتقاليدها وجمعياتها ، ولكنهم يرون أن المسيحية دين خاضع للتطور ، وأن حيويته مرهونة باستمراره في هذا التطور ، ومن هنا كان حرصهم على إعادة تأويل العقائد في ضوء العلم والنقد الحديث ، وقد جاهدوا حتى تمثلت المسيحية بعض نتائج الفكر في عصرهم ، وكان القس «لوازي» Loisy أظهر داعية في

== في كتابه المشار إليه من قبل عن The Fall of Man & Anthropology ، وعن الآراء الحرة بين المفكرين الدينيين بصدد نظرية دارون ومحاولات التوفيق بينها وبين الكتاب المقدس انظر رسائل كنجزلى إلى دارون (نوفمبر ١٨٧٩) في الجزء الثاني من « حياة دارون ورسائله » وفي مجلة The Spectator بلندن في عدد مارس ١٨٦٠ وفي Dublin Reveu عدد مايو ١٨٦٠ The Christian Examin عدد مايو ١٨٦٠ وفي Life & Letters of Sedgwick في الجزء الثاني وفي عدد يناير ١٨٧٤ من The Popular Science Monthly (مقال عن التسكوين والجيولوجيا ونظرية التطور للموار جورج Henslow وقد ظهرت هذه المقالة أولا في كتابه Evolution & Religion — وعدد يناير ١٨٨٢ من Lutheran Quarterly ورسالة صغيرة للأستاذ وين W. H. Wynn عن ديانة التطور لإزاء ديانة اليهود ، ومادة «تطور» في Dictionary of Religion ١٨٨٧ والأستاذ هكسلي في An Episcopal Trilogy القرن التاسع عشر (نوفبر ١٨٨٧) وهذا المقال يناقش ثلاث مواعظ ألقاها أساقفة Carlisle و Bedford ومانشستر في كاتدرائية مانشستر أثناء اجتماع عقده المجمع البريطاني في سبتمبر ١٨٨٧ ثم طبعت هذه المواعظ مستقلة تحت عنوان The Advance of Science ثم رانيل H. E. Ry أستاذ اللاهوت في كامبردج في The Early Narratives of Genesis (لندن ١٨٩٢) والمقال الذي كتبه سيرل G. M. Searle بالجامعة الكاثوليكية في واشنطنون في مجلة « العالم الكاثوليكي » عدد نوفمبر ١٨٩٢ ... الخ الخ

هذه الحركة ، وقد أشرنا إلى قرار الحرمان الذي أصدره ضده البابا في عام ١٩٠٧ ، وذلك أن البابا « بيوس العاشر ، قد أنفق كل مافي وسعه لقمع هذه الحركة ، وقد استنكر في قرار أصدره (عام ١٩٠٧) كل ما انتهى إليه لوازى من نتائج ، وبعد ثلاثة أشهر أصدر رسالة دورية مسببة عرض فيها أفكار هؤلاء المجددين في داخل الكنيسة ووضع خطة القضاء عليها .

وقد جرى في تيار هذه الحركة الأحرار من أبحار الكنيسة البروتستانية منذ عدة أعوام ، فكانوا إذا ذكروا ألوهية المسيح ، جردوها من كل مولد خارق للعادة . . ! وإذا تحدثوا عن « البعث ، أولوه بحيث لا يتضمن نشوراً جسمانياً معجزاً ، وإذا تكلموا عن وحي الإنجيل المنزل ، استخدموا معنى الوحي فيما يشبه الإلهام الذي عرف عند أمثال أفلاطون !

ظهر من أحرار رجال الدين ، من حاولوا مقاومة طغيان السلطة . . ! فوضع سبعة - منهم ستة من رجال دين - كتاب « مقالات ومراجعات » عام ١٨٦٠ فسموا من أجله « أعداء المسيح السبعة » ، إذ طالبوا فيه بأن يفهم الإنجيل كما يفهم كتاب في التاريخ مثلاً ، ولهذا حرموا التأويل وحظروا من محاولة التوفيق بين المتناقضات ، وأوعزوا إلى القارىء بأن التنبؤات العبرية ليس فيها عنصر الإلهام . . ؟ وأثاروا الشك في كثير من المسائل التي كانت مقررة عند الكنيسة ، ومن هنا كان فزع رجالها من هذا الكتاب .

وظهر بعد هذا كتاب « بادن پاول ، Baden Powell الذي أسلفنا الحديث عنه في هامش سابق ، وقد أشرنا إلى اثنين من القساوسة قد قدما للحكومة عام ١٨٦٢ بتهمة المساهمة في هذا الكتاب ، وأنهما استأنفا الحكم ، فأصدر قاضى القضاة في المجلس المخصوص « اللورد وستبرى Westbury قراره بإلغاء حكم المحكمة الإكليريكية ، ونص في القرار على أنه ليس من الضروري لرجل الدين أن يؤمن بعذاب الآخرة ! فكتب على قبر هذا القاضى ، : فى أواخر أيامه طرد جهنم ، وانتزع من أتباع الكنيسة الانجليزية آخر أمل عقوده

على الخلود في الجحيم! ومن هنا أدرك الناس مدى التزام رجال الدين للعقائد اللاهوتية ، وبدأت روح الحرية الفكرية في داخل الكنيسة .

ثم استقرت هذه الحرية في عام ١٨٦٥ بقانون اعتمده البرلمان ، غير صيغة القسم الذي كان يقسمه رجال اللاهوت عند توقيع « قانون إيمان الكنيسة الإنجليزية » Thirty Nine Articles .

وكان من دلالات هذا الجوال جديد ، إقبال الجماهير على أحرار المفكرين وقد ظهر هذا في إنجلترا مع « هوليوك » Holyoake الذي سجن بتهمة التجديف في أوائل حياته ، وأنشأ أواخر أيامه Rationa Press Association لنشر المذهب العقلي وإذاعة ما يكتبه أحرار الفكر بين الناس ؛ وقد ألغى هذا المفكر الضرائب التي كانت مفروضة على المطبوعات ، فساعد بهذا على إشاعتها بين الجماهير ، وكانت الرقابة المفروضة على المطبوعات قد اختفت في إنجلترا منذ عهد مديد ، وألغيت في أكثر الدول الأوروبية إبان القرن الغابر وأصبحت المؤلفات تذاع على الناس في أواخر ذلك القرن ، وفيها إنكار لوجود المسيح تاريخياً ، من غير أن يثير هذا ضجة أو صخباً ! وتلاشى القول بأن التفكير الحر لا يستقيم مع اتباع قواعد الأخلاق ! فاتفق الناس — مع استثناء رجال الفاتيكان — على أن كل شيء — في الأرض أو في السماء — خاضع للبحث للعقلي من غير حاجة إلى الاستعانة بمزاعم السلطات الكنسية ! ومن هؤلاء الأحرار « برادلو » Bradlaugh الذي كان أجل عمل أداه ، إحرازه في عام ١٨٨٨ حقاً أتاح لللحدين في إنجلترا أن يكونوا أعضاء في البرلمان من غير قسم يقسمونه !..!

فزع السلطات الدينية ومظاهره :

هذا الفيض الجارف من حرية الفكر — حتى في داخل الكنيسة نفسها — قد أثار فزع المعسكرات الدينية ، أشفق رجالها على تعاليم الدين أن يكتسحها

التيار، وعلى نفوذهم أن يتلاشى في غمرة هذا الفيضان ! فتكاتفوا لمقاومته ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

وفي عام ١٨٦٤ أصدر البابا بيوس التاسع منشورا عرض فيه خطايا العصر، ومناهجية الإنسان في اعتناق المذهب الذي يبدو أمام عقله صوابا، والاعتراض على أن من حق الكنيسة استخدام القوة في مقاومة خصومها وإبادة آرائهم، ثم دراسة الفيلسوف الميتافيزيقية العقلية، من غير الاستعانة بالكنيسة أو اتخاذ الرواية الدينية مرجعاً! ومن هذه الأخطاء دعوة البابا إلى تأييد التقدم ومبادئ الحرية والمدنية الحديثه . الخ وقد كانت هذه الوثيقة في نظر الناس، إعلاناً للحرب على حركات التنوير، كما كان مجلس الفاتيكان في نظرهم أول حشد حربي من جيوش الظلام، يتقدم لمقاومة كل أثر للنهوض (١)

* * *

وزاد مجلس الفاتيكان ففاجأ الناس في العالم الأوربي، بل فاجأ بعض أتباع الكنيسة في روما - بقرار مشير لكل دهشة، أصدره عام ١٨٧٠ وأعلن فيه أن البابا معصوم من الوقوع في الخطأ! وكان للسكردينال «ماننج» أوفر نصيب في إصدار هذا القرار العجيب . ١

جاء هذا القرار في غير أوانه، وإن كان القرار متمشيا مع اتجاهات غلاة المتعصبين من رجال اللاهوت المتعسف، فقد ثارت ثائرة هؤلاء المتزمتين، قبيل صدور هذا القرار، عندما جاهد «ا. د. د. هوايت» صاحب كتاب «تاريخ النزاع بين اللاهوت والعلم» مع «عزرا كورنل» لإنشاء الجامعة التي تحمل اسم الأخير، وعقدا النية على أن تتخلص هذه الجامعة من كل سلطة تعوق حرية البحث، وتتحرر من سيطرة الأحزاب السياسية والطوائف الدينية معا، من غير أن يخطر لها أن يمسا المسيحية بسوء. بل لقد كانت تربطها برجال الكهنوت صلات مودة، وكان من أغراضهما العمل على ترقية الدين المسيحي،

(١) وقد أشرنا من قبل إلى منشور البابا جريجوري السادس عشر الذي هاجم فيه حرية الضمير ... في عام ١٨٣٢ م وقد أورد القرار مختصرا Lucky ج ٢ ص ٦٩ - ٧٠ ويوري ونشره كاملا Lemennais في Affaires de Rome ص ٣١٨ - ٣٥٧ .

إلى جانب غرضهما الثقافي ، ولكن رجال اللاهوت المتعسف ، قد بادروا بمقاومة المشروع خطابة وكتابة !

بيد أن الثورة قد أخفقت ، إذ لم يمض على إنشاء الجامعة ربع قرن ، حتى استقرت قدمها وتوطدت دعائمها ، وامتلات بالطلاب الذين كانوا يتهاقون على الالتحاق بها ، وأجرى عليها الأرزاق المحسنون بغير حساب ، وأحاطتها ثقة الجمهور من كل جانب ، بل انتصرت مبادئها في غيرها من معاهد - فيما يقول هو ايت في مقدمة كتابه عام ١٨٩٢ .

بل لقد جنحت إلى هذا الاتجاه ، الشعوب الحديثة المتقدمة ، كانت الهيمنة على التعليم العام في أمريكا وغيرها - عند صدور القرار بعصمة البابا ، وبعد صدوره بقليل - في يد رجال الكهنوت ، وسرعان ما تغير الوضع ، وانتقلت الهيمنة إلى أيدي العلمانيين ، وفي كبرى الجامعات في الولايات المتحدة - مع استثناء جامعة أو ثنتين - وفي البلاد الأوربية التي كانت تعتبر قلاعاً للاهوت المتعسف ، أصبح الرؤساء من العلمانيين ؛ ويقول « هو ايت » إنه حين زار جامعتي اكسفورد وكبريدج في عام ١٨٥٤ ، ألفاهما خاضعتين للسيطرة الإكليريكية كل الخضوع ، ولكن هذا قد تغير بعد أربعين عاماً من زيارته .

الاضطهاد ضد الكاثوليك وعصر البروتستانت :

كانت معسكرات البروتستانت فيما يظهر أقل غطرسة وخيلاء من معسكرات الكاثوليك ، بل إن بيوري يرد الحالات التي حاولت فيها المدنية قمع الفكر الحر منذ القرن الثامن عشر ، إلى الرغبة في عدم إذاعة الأفكار الحرة بين الجماهير فالذين أداة ناجحة في إخضاع الناس وحفظ الأمن بينهم ، والجهل يحمل أصحابه على الرضا والقناعة والخضوع لحكامه .

ويقول « درابر » Draper في كتابه عن « النزاع بين الدين والعلم » في معرض الموازنة بين الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة البروتستانتية : ليس بين الكنائس البروتستانتية كنيسة اعتصمت بالغطرسة والاستبداد ، وكان لها من النفوذ السياسي الواسع النطاق ، ما كان للكنيسة الكاثوليكية الرومانية !

بل لقد كانت الكنائس البروتستانتية في أكثر حالاتها، تنفر من الإكراه وتمقت الاستبداد، وقد كانت مقاومتها للفكر الحر - إذا استثنيت حالات بالغة الندرة - أثراً من آثار الحقد الذي أثاره المتزمنون من رجال اللاهوت في وجوه خصومهم .

ولعل ترفق البروتستانت بأحرار الفكر، يرجع إلى حاجتهم إلى السلطان الزمى الذى تهباً لزملائهم فى الدول الكاثوليكية، أكثر مما يرد إلى تمسكهم بمبادئهم فى النساح وحرية التفكير، والناظر إلى الدول المسيحية الثلاث الكبرى فى غربى أوربا، حيث يوجد من سكانها أغلبية كاثوليكية، يلاحظ أن الميل إلى التقدم والنزوع إلى حرية التفكير، يصاحبه تدهور فى قوة السلطات الأكليركية، وفى أسبانيا حيث تظفر الكنيسة بوفرة من القوة والمال وتستطيع أن تملئ إرادتها على الحكام، لانكاد نجد لفكرة التقدم أثراً جدياً كالذى نراه لها فى فرنسا وإيطاليا! وإذا كانت حرية الفكر تراو لها أقلية مستتيرة من الأسبان، فإن السواد الأعظم من السكان يعيش فى جهل ملحوظ ومن مصلحة الكنيسة أن يظلوا كذلك! وليس من اليسير التحرر من ضغط هذا الجهل، طالما وجدت هذه السلطة الدينية فى أسبانيا، وليس أدل على ذلك من مصرع « ف . فرير Francisco Ferrer ^(١) الذى يعيد إلى الأذهان ذكرى العصور الوسطى، ذلك أنه نهض بإنشاء مدارس حديثة تقوم بتدريس العلوم الدينية فى مقاطعة « قطلونيا »، فأزعج الإقبال عليها السلطات الدينية ومن ثم أخذت تهاجمه وتثير الحرب فى وجهه، وفى صيف عام ١٩٠٩ أضرب العمال فى برشلونة حيث تصادف أن كان هناك فيرير بضعة أيام فى بدء هذه الحركة، واشتدت حركة الإضراب حتى تحولت إلى ثورة عنيفة دامية. فأعلن خصومه، اتهامه بإثارة هذه الفتنة!! وأخذت الصحف الكاثوليكية والسلطات الأكليركية تطالب الحكومة بمعاينة منشىء المدارس الحديثة التى أوقدت نار الثورة وأدانته « فيرير » المحكمة العسكرية وقررت إعدامه، فقتل رمياً بالرصاص!!

(١) أنظر تمصيل مأساته و Mc. Cabe, T., The Martyrdom of Ferrer, 1990

(في أكتوبر ١٩١٣) فاستشهد بهذا في سبيل الدفاع عن حرية التفكير . وقد أثار هذه المأساة الحق في العالم الأوربي كله - وفي فرنسا بوجه خاص - وهي ظلم جائر يحتمل تكراره في كل بلد تؤتى فيه الكنيسة هذا النفوذ . ويتولاها مثل هذا التعصب ، ويشيع في سياسته مثل هذا الفساد - فيما يقول بيورى .

تنبأ « هويت » ، في أواخر القرن الغابر ، بما وقع في القرن الراهن فعلا ، إذ قال إن العلم الذى سحق اللاهوت المتعسف ، سيسير في المستقبل مع الدين جنبا إلى جنب ، وبينما يتضام نفوذ اللاهوت ، يقوى الدين وينمو في ثبات . وقد عرفنا شيئا من هذا ، إذ انتقل العام فجأة من المادية المتطرفة في القرن الغابر إلى روحية مسرفة موعلة في القرن الحاضر ، واصطبغت نظرتة - فيما يقول ولف Wolf في كتابه المشار إليه من قبل - بصبغة دينية صرفية ، واهتم بعض رجاله بالتفكير الدينى وأساليبه ، فتلاشى الجفاء بين رجال الدين وأهل العلم في قرننا الحاضر ، كما تلاشى بينهم وبين الفلاسفة في القرن الغابر ، وتآخى اللاهوت مع العلم - في القرن العشرين . ومع الفلسفة التى سبقت العلم إلى هذا التآخى على ما عرفنا في مطلع هذا الفصل . وبهذا صفا الجو وخلا - في القرن العشرين - من مقاومة اللاهوت للفلسفة والعلم معاً ، فخلا كتابنا من حديث عن النزاع في عصرنا الحاضر . . . !

كلمة أخيرة :

وبعد ، فقد توج الفشل جهود المتزمنين من رجال الدين ، في اضطهاد الفلاسفة وجندلة رجالها ، لأنهم لا يستطيعون أن يطفئوا للحق نورا ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ، إن غلاة المتعصبين من أصحاب السلطة ، يملكون إبادة خصومهم واستئصال شأفتهم من الوجود ، ولكنهم لا يقوون على أن يطمسوا آية الحق الذى يستشهد فى سبيله هؤلاء الأبطال ، إن الحق لا يموت بموت شهدائه ، إنه يبقى أبداً لا يحد زمان ولا مكان ، وإذا عدم الأنصار فى عهود الاضطهادات

الكالحة المشثومة ، وجدّ هؤلاء الأنصار بعد هذه العهود ، وقد زادهم تاريخه
إيماناً به ، وكفا بالاستشهاد في سبيله . . ! ومن هنا كان الفشل هو المصير
المحتوم للجهود التي أنفقها اللاهوت المتعسف والتعصب المتزمت ، في عرقلة
العقل والتنكيل بأهله . وقد مضى موكب الأحرار في طريقه قدماً ، وقد استبد
بهواه نداء العقل ، وتخلف الجامون وفاتهم الركب ، فعسكروا حيث كانوا ،
وقد قلّ عديدهم واضمححل نفوذهم وتضاءلت آمالهم ، وباتوا يسرحون
الطرف في مواكب الفكر الحر الظافر ، فيرتدّ بصرهم خاسئاً وهو حسير !

تصويب الأخطاء (١)

اقرأ ما يلي بدل المكتوب في صلب الكلام :

س	س	س	س
١٩	١٣	طبيعة العقل البشرى	٨
٢١	١٠	بله الخارجين	٨
٢٢	٦	Draper	٨
	٧	of the	٨
	١٠	la	١٤
	١٢	Freedom	١١
٢٣		بعد السطر السابع يكتب	١٤
		عنوانا لما يليه : ومناظرة بين	٣
		الإمام وفرح أنطون ،	٧٦
٣٠	١٧	جهل السلطات	١٣
٣١	١٩	الثامن عشر	١٣
٣٢	١٠	وقوت من أمره	٣
٣٣	٨	على جهالة	٣
٣٣	١٧	منذ القرن الثاني عشر	٣
٣٥	٦	من أسفل : تيوقراطيا	٣
٣٦	٩	فستنت	٣
٣٨	٧	الثامن عشر	٣
٣٩	٧	أحاطت الكنيسة نفسها بقدسية	٧
٤٠	٥	ما لا قوه من	٧
٤٠	٦	من أسفل : نشأت عن بواعث	٧
		عقلية ولكن الاستدلال العقلي	٧
		ليس هو . . .	٧
٤٣		آخر سطر : عن ظاهر الإنجيل	٧
٤٥	١٠	من أسفل : قراء كثيرا	٧
		وقد صاغ	٨
		آخر س ٥ من أسفل : النصوص المقدسة	٨
		J. Bruno	١١
		الاسبرطين	١١
		مزاجاً	١٤
		يمتاز من	١١
		هي الطريق	١٤
		من أسفل : Brehier	٣
		أول الفصل : تمهيد (كعنوان	٧٦
		لما يليه)	٧٦
		الآباطرة (لا الأمبراطرة ،	١٣
		وتصح كذلك في نفس	١٣
		الصفحة س ٦ و ٣ من أسفل)	١٣
		(+ ٣٩٥ م)	٤
		آخر سطر قبل الهامش :	٨١
		البابا Gelasius	٨١
		Theodwin	٥
		من أسفل : أوجست	٧
		من أسفل : أنه لسوء الحظ	٧
		من أسفل Encyc. of Religion	٨
		Ethics & (أما دائرة المعارف	٨
		البريطانية فيقرأ فيها مادة	٨
		Inquisition	٨
		من أسفل فرح أنطون	٤

(١) ذكرنا في هذا التبت بعض ما وقع من أخطاء ، وأغفلنا الباقي استناداً إلى ذكاء القارئ .

	س	س		س	س
أن يكون ذا فضل	٥	١٤٦	أول الفصل : تمهيد (كعنوان	١٠٣	
من أسفل de Copernic	٦	١٥٨	لما يليه)		
Encyc.	٤	١٦٤	فكفروا من أجلها	١٣	١١١
من أسفل : في تصور	٢	١٧١	وترضى	١	١١٤
واحتفاظهم	٦	١٧٦	ابن رشد	٥	١١٨
من أسفل : ومن وجوه	٥	١٧٩	كل مسموّه	١٤	
من أسفل : كما بدا عند	٦	١٨٥	قد ذهب	٣	١٢٥
من أسفل : وقد بدا	٤		عن التكفير	٥	١٣١
من أسفل M. Tindal	٥	٢١٦	تحذف كلبه : لإنهاء	٥	١٣٤
آخر سطر قبل الهامش Decree		٢٠٠	استقلال شخصيته	١١	١٣٩
تشبيهاً مادياً	١١	٢٢٣	من أسفل : أفلاطون وأفلوطين	١٢	
من أسفل : ثبات الأنواع	٧	٢٣٦			

كشاف

بأهم أسماء الأعلام (١)

الاسكندر : ٦٨	ابن تيمية : ١٠٥ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٩
اسكندر الخامس : ١٥٠ — ١٥٣	ابن الراوندى : ١٢٥
اسكندر السابع : ٢٠١	ابن رشد : ٢٨ ، ٩١ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٦
اسكندر السادس : ١٦١ ، ١٦٣	إلى : ١٠١ ، ١٠٧ ، ١١٣ — ١١٥
أفلاطون Platon : ٥٢ — ٥٣ ، ٥٦	١١٨ ، ١١٩ — ١٣٢ ، ١٣٤
٦٧ ، ٦٩ ، ٨٢ ، ٩٩ ، ١٠٦	١٤٠ ، ١٥٠ ، ١٥١
١١١ ، ١١٣ ، ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٥٠ ،	ابن سينا : ٩١ ، ٩٦ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٥
١٥٠ ،	١١١ ، ١١٢ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٥٠
اكسانوفان : ٥٤ ، ٦٠	ابن الصلاح : ١٠٤ ، ١١٣ ، ١٢٠ —
اليصابات Elizabeth : ١٥٢ ، ١٥٣	١٢٣ ، ١٣٤
ألبير الكبير Albertus Magnus :	ابن قيم الجوزية : ١٢٣ ، ١٢٤
٨٤ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ١٦٠	ابن ميمون : ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٥
أمبروز (القديس) : ٨٠	أبونو (بطرس أليانو) : ١٦٠
أنت (بطرس) Petar Annet : ٢٢٨	أبيقور Epicure (وأبيقورية) : ٦٩
أنسلم (القديس) St Anselm : ٢٤	٧٠ ، ٧٢ ، ١٧٢
٨٤ — ٨٥ ،	أيلارد Abelard : ٣٣ ، ٨٧ — ٨٨
أنكساجوراس Anaxagoras : ٥٤	إربان الثامن (البابا) : ١٤٧ ، ١٤٨
٦٢ — ٦٣ — ٦٤ ،	١٩٧ ، ١٩٨
إنوسنت الثالث Innocent : ٨٣ ، ١٦٣	إرزوم : ١٤٢
إنوسنت الثامن : ٣٢ — ٣٣	أرسطارخورس : ١٥٥
إنوسنت الرابع : ٣٦	أرسطو : ٥٢ ، ٦٨ ، ٨٢ ، ٨٨ إلى
أوريجان Origen : ٧٩	٩٩ ، ١٠١ ، ١٠٦ — ١٠٧ ، ١١١
أوغسطين (القديس) St Augustine	إلى : ١١٤ ، ١٤٧ ، ١٥٠ ، ١٥٥ ، ١٦٧
٣١ ، ٥٦ ، ٨٠ ، ٨١ — ٨٢ ، ٨٤	١٦٨ ، ١٧٣ — ١٧٤ ، ١٩٥ ، ٢٠٥
٨٦ ، ٩٠ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٧٦	
١٧٨ ،	

بطليموس أو بطليموس : ١٥٦ ، ١٥٥ ،
١٩٧ ، ١٩٤ ،
بلاتو Plateau : ٢٣٤
بلازمين Bellarmin : ١٩٥ — ١٩٦
بلوثارك : ٧٢ ، ١٤٣ ، ١٥٩ ، ٢٢٠
بنافورت (ريموند) Raymund
٩٩ : Pinnaforte
بندكت الرابع (البابا) : ١٩٩
بوريللي Borelli : ١٤٨
بوفون Buffon : ١٨١ ، ٢٣٧
بولس (بولص) ١٥٩ و ١٦١
بولس الخامس (البابا) ١٩٥ ، ١٩٦ هـ
٢٠١ ،
بولس الرابع : ١٦٣
بولنجبروك Bollingbroke : ١٨٢
بومپنازى Pomponazzi : ١٥١
بويل : ٢٠٦
بيكون (أنظر باكون)
بين (توماس) Th. Paine : ٢٢٦
إلى ٢٢٩
بيوس التاسع : ١١ ، ١٤٧ ، ٢٤٣
٢٥٣ ،
بيوس السابع : ٢٠٠
بيوس العاشر : ٢٥١
تاج الدين السبكي : ١٠٥ ، ١٢٣
تساريوس (تيريوس الامبراطور)
٧١ ، ٢٠٩ : Teberius
ترتليان Tertullian : ٧٩ ، ٨٢
ترييرانوس Trevirius : ٢٣٨

أوكام (وليام) W. Occam : ٨٥ ،
٩٥ ،
أوليفا Oliva : ١٤٨
إبروید : ٥٦ — ٦٤
باركلي Barkley : ٢٢٢
باكون أويكون (روچر) Roger
٣١ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ١٤٠ : Bacon
١٧٥ ،
باكون أويكون (فرنسيس) Francis
— ٢٠٤ ، ١٤٠ ، ٨٩ Bacon
٢٠٦
بادن پاول Baden Pawell : ٥٢٤٨ ، ٢٥١
بايل Bayle : ١٧٨ — ١٨٠ ، ١٨٢
١٢٠ ، ٢١٨
پاليه Baley : ٢٢٥ ، ٢٢٦
بترارك : ١٥٠
بخنر Buchner : ٢٤٨ هـ
برادلو Bradlaugh : ٢٥٢
برستلى : ٢٢٦
بركليس : ٦٢ ، ٦٣
برنارد (القديس) St Bernard :
٨٧ — ٨٨
بروتاجوراس Protagoras : ٦٣
بروفو (جوردانو) J. Bruno : ٥٤
١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٥٦ ، ١٦٤ ، ٢٣٤
بريسليان (أوبرسكليان) Priscillian : ٨
بسكال : ١٧٩ ، ٥٦ ، ٢٢٢
بطلر : ٢٢١ — ٢٢٢

- الخوارزمی : ۱۱۳
دارون (تشارلس) : ۲۳۸ — ۲۴۸
۲۵۰ ، ه
دانتی : ۱۵۵
درايقر Driver : ۲۳۵
ددويل Dodwell : ۲۱۹
دی دومینس De Dominis : ۱۴۹
دياجوراس Diagoras : ۵۴
ديدرو Diderot : ۱۷۷ ، ۱۸۱ ، ۱۸۶
۱۸۷ ، ۱۸۸
ديكارت Descartes : ۹ ، ۵ ، ۱۶۷ إلى
— ۱۷۲ ، ۱۷۴ — ۱۷۸ ، ۱۸۰
۱۸۱ ، ۱۹۰ ، ۲۰۳ ه ، ۲۰۵
۲۰۷ ، ۲۱۱
دمقريطس : ۶۰ ، ۷۰
الرازی (زكريا) : ۱۲۵
الرازی (نجر الدين) : ۱۰۸ ، ۱۲۵
رالی (والتر) : ۱۵۲
رايل Rev. Dr Ryle : ۲۳۵
رايموند : ۹۰
رکن الدين (محمد بن عبد السلام الجيلاني) :
۱۰۷ ، ۱۳۲
روبسپير : ۲۲۶
روسو (چان چاك) : ۱۸۳ — ۱۸۸
ريتكوس Rheticus : ۳۴
ريدى Redi : ۱۴۸
ريشيلو : ۱۴۷
رينان Renan : ۹۵ ، ۱۱۹ — ۱۲۰
- تشارلس الثاني : ۲۰۶
تليزيو Telesio : ۱۴۷
تولند Toland : ۲۰۷ ، ۲۱۱
تندال (ماتيو) M. Tindal : ۲۱۱
۲۱۶ — ۲۱۸ ،
توما (القديس) St. Thomas
Acquinas : ۸۴ ، ۹۵ — ۲۱ ، ۵
۹۱ ، ۹۷ — ۹۹ ، ۱۰۰ ، ۱۵۵
تيوفيلوس Theophilus : ۸۲
ثاوفر اسطس : ۶۸
جاليليو Galileo : ۳۴ ، ۵۴ ، ۵۵
۱۵۷ — ۱۵۸ ، ۱۷۲ ، ۱۷۳ ،
۱۹۳ — ۲۰۱ ، ۲۳۴
جبون (أنظر جيبون)
جريجورى التاسع : ۳۶ ، ۹۶
جريجورى السادس عشر : ۱۱ ، ۲۵۳
چستنيان : ۸۲
جلادستون : ۲۳۴ ، ۲۴۴
جلاسيوس (البابا) Glasius : ۸۱
چنتايل (أو چنتيلي) V. Gentile : ۵۴
جوته : ۵۲ ، ۲۲۵
چورچ الثالث : ۲۲۷
چون (حنا) الحادى والعشرون
(البابا) : ۹۹
جيبون (أو جبون) Gibbon : ۳۸
۲۲۱ ، ۲۲۴
چيمس الاول : ۱۵۲ ، ۲۱۹
الحكم (الخليفة) : ۱۰۸ ، ۱۱۳

٤٦ — ٤٧ طيون : Theon : ٨٢
 الغزالي : ٢٨ ، ٩٣ ، ٩٩ — ١٠٠ ،
 ١١٩ ، ١١٤ — ١١٠ ، ١٠٩ ، ١٠٥
 — ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٣٤ —
 الفارابي : ٩١ ، ٩٩ ، ١١١ ، ١٢٢
 فانيني : Vanini : ١٥٠ ، ٥٤
 فردريك الأكبر : ١٨٥
 فردريك برباروسا : ٨٣
 فردريك الثاني : ٣٦ ، ٩١ ، ٩٣ ، ١٠١
 فرنسوا الأول : ٣٤
 فولتير Voltaire : ٩ ، ٨٩ ، ١٧٧ ، ١٨١
 إلى ١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٢٠
 فيرير (فرنشسكو) : Fransisco Ferrer :
 ٢٥٥
 قسطنطين (الامبراطور) : ٧٩ ، ٢٢٤ هـ
 كامپانيللا Campanella : ٥٤ ، ١٤٠ هـ
 ١٩٩ ،
 كبلر Kepler : ١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢٣٤
 كلفن Calvin : ٤١ — ٤٦ ، ١٥٢
 كليمان الاسكندري : ١٥٥
 كليمان السابع : ١٥٦
 الكندي : ٩١
 كوبرنيكوس Copernicus : ٣٤ ، ٤٤
 ١٤٩ ، ١٥٤ — ١٥٨ ، ١٩٤ ،
 ١٩٧ ، ١٩٩ — ٢٠٠ ، ٢٣٤ ،
 كوستا (أكوستا) : Gabriel Costa :
 ١٩٢
 كولمبس Columbs : ١٦٠ — ١٦١

١٢٧ ، ٢٤٨ هـ ،
 رينولد Reinhold : ٣٤
 زينو Zeno : ٦٧
 سافونا رولا Savona Rola : ١٤٩
 ساتيلير (عالم طبيعي) : ٢٣٨
 ساتيلير : ٣ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ١٦٦
 سبنسر (هربرت) : Herbert Spence :
 ٢٤٤
 سبينوزا Spinoza : ٤ ، ١٦٧ ، ١٨٨
 إلى ١٩١ ، ١٩٣ ، ٢١١
 ستيفن (لسلي) : L. Stephen : ٢٢٥
 ستيفن (أسقف باريس) : ٩٧
 ستيفن ج. ت. : ١٧
 سرفينوس Servitus : ٤٣ ، ٤٦ ، ١٥٢
 سقراط : ٥٤ ، ٦٥ — ٦٧ ، ١١١ ، ١١٣
 سكستوس الرابع (البابا) : ١٦٣
 سكوت (دانز) : ٩٥
 سنكا : ١٤٣
 شارون Charron : ١٤٥
 شافتسبري Shaftesbury : ٢١٩ — ٢٢٠
 شتراوس (داود) : David Strauss :
 ٢٤٨ هـ
 شكسبير Shakespeare : ١٥٢
 شيكو دا سكوبي Cecco d'ascoli :
 ١٦٠
 شيشرون : Cicero : ٧١ ، ١٤١ ، ١٤٣
 ١٥٥ ، ١٥٩ ، ٢١٧ ،
 شبلي : ٢٢٨
 صوصينوس (أوسوسينوس) : Socinus :

مارتن (ريموند) : ۹۹
 مارتن (القديس) : ۸۰
 مارليو Marlowe : ۱۵۲
 مازران : ۱۴۷
 مالبرانش : ۴ ، ۱۶۷ ، ۱۷۷ ، ۲۰۳
 ماننج (الكردينال) : ۲۴۰ ، ۲۵۳
 مدلتون : ۲۲۱
 المعتصم : ۱۰۶ ، ۱۳۵
 مكيافيلي : ۷۱
 ملانكتون Melanckton : ۴۳
 ملتون Milton : ۱۵۳ — ۱۵۴
 المنصور بن أبي عامر : ۱۰۸
 المنصور (الحاجب) : ۱۱۳
 المنصور (يعقوب) : ۱۱۵ ، ۱۱۸ ، ۱۳۳
 مونتاني Montaigne : ۱۴۳ ، ۱۴۵
 ، ۱۶۷ ، ۱۷۹
 مونتسكيو : ۱۸۴
 دي مونفورت De Monfort : ۸۳
 المهدي : ۱۰۶ ، ۱۱۹
 دي ميليه : ۲۳۶ ، ۲۳۷
 نيوتن : ۲۰۶ ، ۲۰۹ ، ۲۱۰ ، ۲۳۴
 ، ۲۴۴ ، ۲۴۷
 الهادي : ۱۰۶
 هارون الرشيد : ۱۰۶
 هر بارت شيربري : ۲۱۱ ، ۲۱۹
 هرشل : ۲۳۴
 هكسلي : ۲۴۰ ، ۲۴۱ ، ۲۴۳ ، ۲۴۵
 هنري الرابع : ۱۳۶ ، ۱۴۷
 هنري الخامس : ۳۶

كولنز : ۲۱۵
 كونديلاك Condillac : ۱۸۰
 كونت (أوجست) : ۸۸
 كيد Keyd : ۱۵۲
 لاكتانتوس Lactantius : ۷۹
 لامارك Lamarck : ۲۳۸ ، ۲۴۳
 لامتري Lametrie : ۱۸۰
 لامي (الأب) Lami : ۱۷۶
 لفضجستون : ۳ ، ۵۲ ، ۵۳ ، ۵۶
 — ۵۷ ، ۷۲ ، ۷۷ ، ۱۶۶
 لل (ريموند) R. Lull : ۱۰۰
 لوازي Loisy : ۵۲۴۸ ، ۲۴۹ ، ۲۵۱
 لوثر (مارتن) M. Luther : ۴۱ إلى
 ۱۴۲ ، ۴۶
 لوك (جون) John Locke : ۴
 ، ۱۶۷ ، ۱۷۸ ، ۱۸۰ ، ۱۸۲
 ، ۱۸۹ ، ۲۰۶ — ۲۱۱ ، ۲۱۵
 لوكريتوس : ۱۵۹
 لوكيوس الثالث : ۸۳
 ليبنتز Leibnitz : ۲۱۰
 ليتفوت (جون) John Lightfoot :
 ۲۳۳
 ليجيت : Legate : ۱۵۲
 ليل (تشارلس) Ch. Leyll : ۲۴۳
 لينيوس Linneaus : ۲۳۷ — ۲۳۹
 ليو الثالث : ۱۶۳
 ماجلان : ۱۶۱
 المأمون : ۱۰۵ ، ۱۰۶ ، ۱۳۵

- هيرقليطس : ٦٠ ، ٦١
هيوم (دافيد) David Hume :
٢٢٢ — ٢٢٥
والاس (ألفرد رسل) Alfred Russel
Wallace : ٢٣٨ — ٢٣٩
وات : ٢٢٦
ودرو Woodrow : ٢٤٨
وطسون : ٢٢٧
ولتر متشل Walter Mitchel : ٢٤٢
ولستون Woolston : ٢١٥ ، ٢١٦
٢٢٨ ،
ويزمان Wiseman : ٢٤١
ويكلف Wyclif : ١٤٢
يوليوس الثاني (البابا) : ١٦١
- هنري الثامن : ١٥٣
هوايت (أندرو دكسون) A. D.
White : ٢٥٣ ، ٢٥٤ (مع إهمال
الصفحات التي ورد فيها كرجع لنا)
هوبز (توماس) Th. Hobbes : ٥٤
١٩٢ ، ٢٠٨ ،
هوس (جون أوحنا) John Huss : ١٤٢
هوكر (يوسف) Joseph Hooker : ٢٣٨
هولباخ (البارون) Holbach : ٩
١٨٦ ،
هوليوك : ٢٥١
هومير : ٥٤ — ٥٥ ، ٥٧ ، ٦٠ ، ١٤١
هيباتيا Hypatia : ٨٢
هيكل Haeckel : ٢٤٨ هـ

فهرس الكتاب

مقدمة

٣ إمكان الجمع بين التفلسف والتدين ، ٥ لا يستقيم النضج العقلي بغير حرية فكرية ، ٦ العداء مع اللاهوت وليس مع الدين ، ٧ متى قام النزاع بين العقل والإيمان طوال التاريخ ، ١٢ إضطهاد الفلسفة في الإسلام ، ١٢ موقف الدين من اضطهاد العقل ، ١٣ كلمة في علاجنا لموضوع الكتاب ، ١٥ خلاصة هذا الكتاب وعلاقته بكتابتنا عن الاضطهاد ، ١٧ كلمة أخيرة ص ٣ - ١٦

الفصل الأول

حرية النظر العقلي والقوى المناهضة لها

١٧ حرية النظر وآفاقها ، ١٩ طبيعة العقل البشري ، ٢١ طبيعة المعتقد الديني ، ٢٢ موقف الإنجيل والسلطات الدينية من حرية النظر : (رأى دارپر ويورى وهوايت) ، ٢٣ مناظرة بين الإمام وفرح أنطون ، ٣٠ جهل السلطات الدينية ، ٣٣ رجعية الجامعات ، ٣٥ محاكم التفتيش ، ٣٩ رجعية القائمين بالاصلاح الديني ، ٤٦ أحرار الفكر من المصلحين ، ٤٧ كلمة أخيرة ص ١٧ - ٤٩

الفصل الثاني

العقل والإيمان في فلسفة اليونان والرومان

٥٠ تمهيد ، ٥٠ رأى سانت هيلير في أسباب الاصاله في التراث اليوناني ، ٥٢ ، رأى لثنجستون في أسباب حرية النظر عندهم ، ٥٧ دين اليونان وعلاقته بالنظر العقلي ، ٥٩ رواد الفكر الجديد في اليونان ، ٦٥ مصرع سقراط وأسبابه ٦٩ موقف الرومان من حرية النظر ، ٧٤ كلمة أخيرة ص ٥٠ - ٧٥

الفصل الثالث

موقف الأكليروس من شريعة العقل في العصور الوسطى

٧٦ تمهيد ، ٧٧ التقاليد الممهدة لاضطهاد العقل ، ٨٣ مسالة العقل للكنيسة
في العصر المظلم ، ٨٧ بدء النزاع بين العقل والسلطة ، ٨٩ أوربا بين الطابع
الأفلاطوني والأرسطاطاليسي ، ٩٢ موقف الأكليروس اليهودي من أرسطو ،
٩٣ موقف الأكليروس المسيحي من أرسطو وشراحه من المسلمين ، ١٠١ كلمة
أخيرة ص ٧٦ - ١٠٢

الفصل الرابع

موقف الإسلام وفقهائه من التفكير الفلسفي

١٠٣ تمهيد ، ١٠٣ موقف فلاسفة الإسلام من الدين ، ١٠٤ موقف رجال الدين
من العلوم الفلسفية ، ١٠٩ عدا الغزالي للفلسفة وأثره ، ١١٣ موقف ابن رشد من
الدين والفلسفة ، ١١٥ محنة ابن رشد ، ١١٦ منشور الخليفة بتحريم الاشتغال
بالفلسفة ، ١٢٠ فتوى ابن الصلاح بتحريم الاشتغال بالفلسفة والمنطق ، ١٢٢ أثر
فتوى ابن الصلاح فيمن تلاه ، ١٢٢ عدا ابن تيمية وابن قيم الجوزية للفلسفة ،
١٢٤ قيام الفلسفة في الاسلام رغم حملات خصومها المتزمتين ، ١٢٦ موقف
القرآن من حرية النظر العقلي ، ١٢٢ تفسير الاضطهاد في الاسلام ، ١٣٤ بين
المسيحية والاسلام ص ١٠٣ - ١٢٦

الفصل الخامس

النزاع بين اللاهوت والفكر الجديد في عصر النهضة

١٣٧ التنافر بين روح النهضة وروح العصر الوسيط ، ١٣٩ مظاهر النضج
في عصر النهضة ، ١٤٢ موقف العقل الجديد من المسيحية ، ١٤٤ بواعث النزاع
في هذا العصر ، ١٤٦ مقاومة الروح العلمي الجديد في العالم الكاثوليكي ، ١٥١ موقف
العالم البروتستانتي من الروح العلمي الجديد ، ١٥٤ مقاومة الأكليروس لنشأة علم
الفلك الحديث (نظرية دوران الأرض) ، ١٥٩ موقف الكنيسة من عمران الكرة
الأرضية ، فهرست الكتب المحرمة على المؤمنين ، ١٦٤ كلمة أخيرة

الفصل السادس

نمو النزعة العقلية في العالم الكاثوليكي

في القرنين السابع عشر والثامن عشر

١٦٥ إمكان الجمع بين التفلسف والتدين ، ١٦٧ ، سلطان العقل عند ديكارت ،
١٦٩ سلطان الوحي في فلسفته ، ١٧١ غلبة الوحي على العقل ، ١٧٢ علاقة ديكارت
برجال اللاهوت ، ١٧٣ موقف رجال اللاهوت إزاءه ، ١٧٧ أثر ديكارت في العصر
الذي تلاه ، ١٧٨ حملة « بايل » المقنعة على المسيحية ، ١٨٠ تطور اتجاه الفلسفة
في القرن الثامن عشر ، ١٨١ حملات فولتير السافرة على المسيحية ورجالها ، ١٨٣
اضطهاد روسو من أجل حملاته على الدين ، ١٨٥ مقاومة الماديين ورجال الموسوعة
للمسيحية ، ١٨٨ تعقيب ، ١٨٨ سبينوزا بين التفلسف والتدين ، ١٩١ عداوة
السلطات الدينية له ، ١٩٣ جاليليو ونظرية دوران الأرض ، ١٩٥ محنة
جاليليو ومراحل اضطهاده ، ١٩٩ اضطهاد أتباعه بعد مماته ، ٢٠٠ تقهقر
السلطات الدينية بعد انتصار النظرية الجديدة ١٦٥ - ٢٠١

الفصل السابع

مظاهر النزاع في إنجلترا البروتستانتية

في القرنين السابع عشر والثامن عشر

٢٠٢ مظاهر النزاع في هذا العصر ، ٢٠٤ مقاومة باكون للسلطة ، ٢٠٦ الوحي
والعقل عند جون لوك ، ٢٠٨ حرية الاعتقاد بين هوبز ولوك ، ٢٠٩ اضطهاد
نيوتن ، ٢١٠ المذهب الطبيعي الإلهي ومقاومته للدين التقايدى ، ٢١٢ مواضع
الخلافا بين الطبيعيين ورجال اللاهوت ، ٢١٤ مناقشة المعجزات والحوارق ،
٢١٦ نقد الوحي المسيحي عند تندال ، ٢١٨ الخطر في قيام المسيحية على العقل عند
دويل ، ٢١٩ هجوم شاقسبري على الكتاب المقدس ، ٢٢٠ تداعى الدفاع بالعقل
عن المسيحية ، ٢٢٢ موقف هيوم من وجود الله وحوارق العادات ، ٢٢٤ حملة
جيبون على المسيحية ، ٢٢٥ دفاع باليه عن المسيحية ، ٢٢٦ مقاومة حملات بين
على المسيحية ، ٢٢٩ كلبة أخيرة ٢٠٢ - ٢٢٩

الفصل الثامن

النزاع بين اللاهوت والعلم في القرن الثامن

٢٣٠. تحول حديثنا من الفلسفة إلى العلم ، ٢٣٢ عدة القرن في نزاعه ، ٢٣٣
انتصار العلم على اللاهوت في خلق الكون ، ٢٣٥ العلم الحديث يهدم الرواية الدينية
في نشأة الخلق ، ٢٣٦ ثبات الأنواع وحملات العلم الحديث لتقويضه ، ٢٣٨ نظرية
التطور عند والام ودارون ، ٢٣٩ الحملات على دارون في شتى بقاع العالم
المسيحي ، ٢٤٥ انتصار النظرية الجديدة حتى في المعسكرات الدينية ، ٢٤٧ موقف
العالم المسيحي من دارون بعد مماته ، ٢٥٠ تأييد رجال اللاهوت لحرية التفكير ،
٢٥٢ فزع السلطات الدينية ومظاهره ، ٢٥٤ الاضطهاد عند الكاثوليك
والبروتستانت ، ٢٥٦ كلمة أخيرة ص ٢٣٠ - ٢٥٧
تصويب لأهم الأخطاء ص ٢٥٨

كشاف

- بأهم الأعلام الواردة في الكتاب
. فهرس الكتاب
. كتب المؤلف

ما نُشِرَ من كتب المؤلف

(أ) السلسلة الفلسفية والاجتماعية : وقد قامت بنشرها مكتبة الآداب

- ١ - قصة النزاع بين الدين والفلسفة : صدر في يناير ١٩٤٧
- ٢ - التصوف في مصر إبان العصر العثماني صدر في أغسطس ١٩٤٦
- ٣ - علم الغيب في العالم القديم « Divination » : مترجم عن شيشرون Cicero مع الشرح والتعليق - صدر في فبراير ١٩٤٦
- ٤ - الأحلام - دراسة مقارنة : صدر في آخر سبتمبر ١٩٤٥

(ب) كتب ظهرت في سلاسل أخرى :

- ٥ - التنبؤ بالغيب عند مفكرى الإسلام : قامت بنشره الجمعية الفلسفية المصرية . و صدر في سلسلة مؤلفاتها في أكتوبر ١٩٤٥
- ٦ - الشعراني إمام التصوف في عصره : قامت بنشره لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية و صدر في سلسلة أعلام الإسلام في أغسطس ١٩٤٥
- ٧ - قصة الكفاح بين روما وقرطاجنة : قامت بنشره لجنة الجامعيين لنشر العلم و صدر في نوفمبر ١٩٣٦ ، ثم أعادت مكتبة الآداب طبعه في فبراير ١٩٤٦
- ٨ - تراث الإسلام The Legacy of Islam : قامت بترجمته ونشره لجنة الجامعيين لنشر العلم في أكتوبر ١٩٣٦ (وللمؤلف فيه ترجمة الجزء الذي وضعه ا . جيوم عن « الفلسفة والإلهيات » مع شرحه والتعليق عليه .
- ٩ - قصة الاضطهاد الديني : تقوم بنشره الآن لجنة الكتاب العربي .
- ١٠ - الكتاب التالي : الإستمولوجيا أو نظرية المعرفة .

في الطريق إلى المطبعة

الايِسْتِمُوْلُوْجِيَا

أو

نظريّة المعرفة

سيرة المذاهب الفلسفية التي قبلت في طبيعة المعرفة الانسانية-
وعرضت لدراسة مصادرها ومناهجها ، والبحث في
إمكان قيامها أو الشك في وجودها